لا تعبث بذاكرتي

مؤمنة محمود

رواية

لا تعبث بذاكرتي

مؤمنة محمود

رواية

تدقيق: عبد الله راتب النفاخ

إيداع: /٤٦٥٥/ ٢٠٢٢

الإهداء

كانت لي صديقة وكنت لها أختاً

كانت شمسي وكنت قمرها

هي نبض العمر ولا يحلو العمر إلا بقربها

إلى إلهام الأخت والصديقة ورفيقة الحياة

وحين سحقت أوراق شجرة البيروفي في كفّها (شجرة الفلفل الكاذب أو ذات العناقيد الحمراء) اشتمّت رائحتها، أصابها صداع عنيف وبدأ المسمار الصدئ يحفر في أعلى رأسها، تراءت لها يد في أعماق ذاكرتها، يدٌ بيضاء تقدّم لها أوراق هذه الشجرة لتشتمّ عبيرها. ألمّ بها صداع شرس وسقطت مغشيّة على أرضٍ ليس لها في أيّ ذكرى، أرض صنعت لها ذكريات جديدة أحرقت قلبها.

وفجأة!

ماذا حدث؟

لنبدأ الحكاية

- ١ -

كانت السيارة تتحرك بسرعة فائقة على أسفلت الشارع، هي والريح تتسابقان في العدو إلى المجهول، تميد وتضطرب في قلق كما سائقاها (عدنان ومرافقه كمال) سيارة سوداء، نوع تويوتا، يغطّي لوحتها تراب كي لا يتعرّف أحد إلى اللوحة، نوافذها سوداء كسواد قلوب سائقيها فلا يُرى ما بداخلها.

وبعد أن غادرت دمشق الفيحاء عرجت إلى ريفها ثم دلفت إلى الصحراء، وهنا ارتاح سائقها عدنان قليلاً وتنفّس الصعداء لأنه بدأ يغيب عن أنظار العامة. ترك الإسفلت وقاد السيارة وسط الصحراء كي لا تلمحه شرطة الطرق العامة، سار بأسرع ما يمكنه وكان غبار الصحراء يلفّ الأرض ويلعب تحت عجلات السيارة.

خيّم الصمت عليهما وتوالت دقّات القلبين في الطرق على أفئدة ينهشها القلق، عدنان منتبه إلى قيادته الهوجاء، عيناه مثبتتان على الطريق ويداه على المقود ترتجفان، لم يلتفت إلى رفيق محنته ولو مرّة، نظراته تشي بقلقه وخوفه من قرارٍ اتخذه دون رويّة ودون التفكّر بعواقب الأمور، وأخيراً نظر إلى رفيق رحلته كمال وكان هذا الأخير ينظر يمينه حيناً وحيناً إلى عقارب ساعته التي تمشي الهوينا تستهزئ به، نظراته تشي بفقدانه ضميره أو اشتياقه للأمان وربما كان يخاف من شرٍ قادم سيطلّ عليهما قريباً، تبادلا النظرات القلقة في سكونٍ وغبار الصحراء يتطاير تحت عجلات السيّارة، وفي النهاية استطاع كمال كسر حاجز الصمت حين سأل عدنان:

- متى نصل إلى الهدف؟

أخرج عدنان علبة السجائر بيده اليسرى من جيب قميصه، ويده الأخرى ما زالت متشبّثة بالمقود تطلب الأمان، أشعل سيجارته ونفث الدخان وبعد ذلك أجاب بهدوء يُحسد عليه:

- سنصل في الليل، ربّما بعد منتصفه.

- أهذه هي التعليمات؟

- أجل.

- وإن اكتُشف أمرنا؟

- سنقتل من كان.

صاح كمال بصوتٍ أرعب رفيقه:

- لا، أرجوك، لا أرغب أن أصبح قاتلاً.

ثم أخفض صوته، وأردف وهو شاردٌ في صحراء الليل البهيم:

- أنا إنسان بسيط يا صاحِ، لم يكن حلمي سوى حفنة من مال أعتاش بها ومعي أطفالي.

ثمّ نظر إلى صديقه وأمسك بيده الراكنة على المقود قائلاً:

- أرجوك لتفكّر كثيراً قبل الإقدام على القتل، فأنا لا أريد إكمال ما تبقى لي من عمرٍ في غياهب السجون المظلمة.

أخذ عدنان نفساً من سيجارته ثم زفر بقوّة، وقال بصوتٍ حاول جعله هادئاً قدر الإمكان:

- إن رآنا أحدهم فسيشي بنا.

عاد كمال إلى الصراخ مجدداً:

- وإن يكن، فلنهرب، إلّا القتل.

كان يتكلّم بنبرةٍ مرتجفة خائفة، ثم أردف:

- أنا خائف يا صاحبي.

تطلّع عدنان إلى مخاوف صديقه، وقال:

- وأنا كذلك، ولكن لا وسيلة لنا لإتمام الأمر في حال رآنا أحدهم سوى التعليمات التي أُصدرت لنا.

عمّ الصمت مرّة أخرى إلا من عواء ذئاب الليل منادياً بعضها، التحف الليل رداء ظلمته، ولفّ المكانَ قمرٌ حزين أخفت نصفه سحبٌ رمادية ربيعية.

تعب السائق من القيادة وسلّم زمام الأمور إلى زميله كمال، فتّش في جيبه عن شيء يأكله حتى وجد بعضاً من قطع البسكويت الصغيرة في جيب سترته، قدّم إلى زميله بعضاً منها ولكن هذا الأخير رفضها، فالخوف استقرّ في معدته وأقسم أن يمزّق أحشاءها، لن يستسيغ طعاماً طالما لم ينجُ من مصيبته هذه، حدّق بصاحبه وهو يأكل بشراهة، ثم سأله:

- أين سنبيت الليلة؟

- لن نبيت هناك، سنعود أدراجنا إلى دمشق قبل أن يرانا أحد هناك.

ثمّ حثّ صديقه على السرعة إذ قال له:

- عليك بالسرعة القصوى، ستنهش لحومنا ذئاب الصحراء إن تلكأنا هنا.

سكت قليلاً ثمّ قال:

- سآخذ قسطاً من الراحة ريثما نصل، فهدفنا ليس ببعيد عن هنا.

- ولماذا اختار هذا المكان؟

تمدد في مقعده ثم قال:

- لا أدري، لم يخبرني بشيء، فهو رجل كتوم ولا يبوح إلّا بالضروري.

- ولمن تكون هذه المزرعة؟

- لأسرة أظنها إقطاعية.

- زمن الإقطاع ولّى منذ عهد بعيد.

- أسرة ثرية يعود نسبها إلى إقطاعي كبير كان يملك ذاك المكان.

- ومن مالكها؟

- لا أعرف شيئاً، صدّقني ما أعرفه من معلومات قليل جداً، أرجوك دعني أغفو ولو قليلاً، ولتصمت إلى أن نصل المكان.

صرخ فيه كمال:

- كيف ستغفو ونحن في مصيبة كهذه؟

انتفض صاحبه هائجاً:

- أبعد الله عنا المصائب يا رجل، لا تنطق بكلماتٍ لا تعيها.
- سنحمل هذا الإثم على ظهرينا العمر بأكمله.

صاح فيه مجدداً:

- إن كنتَ تملك ضميراً يقظاً فلِم وافقتَ على القيام بالمهمّة؟

صاح كمال:

- لأنه عرض سخيّ لا يقاوم، وأنت تعلم حاجتي الماسة إلى المال.

عاد، ومدد جسده، ثم قال بنبرة هادئة:

- إذن احلم بالمال، ودع ضميرك نائماً.

ساد الوجوم وجهيهما، وأطبق الصمت على فاهيهما، فأخرسهما، وغاب القمر بأكمله خلف الغيوم الرمادية، فزادت ظلمة الليل، وباتت الصحراء موحشة لا يُسمع فيها سوى صراخ وحوشها الباحثة عن فريسة تلتهمها في جنح الليل المضطرب.

مرت ساعات طوال حتى وصلا إلى الهدف المنشود، فلاح لهما الريف الحلبي بمزارعه وجنّاته الخضراء، التي توحّدت جميعها تحت ليلٍ بهيم ربيعي.

وبعد ساعة، حين دقّت الساعة عند منتصف الليل وصلا إلى مزرعة كبيرة تحتلّ قرية صغيرة على ضفة نهر عفرين.

فُتح لهما بابها الضخم، فتوقّفت السيارة ليركب معهما رجل مقنّع ويدلّهما على المكان المراد وضع الأمانة داخله، مشت السيارة في أرجاء المزرعة تطلّ عليها البيوت القروية والأشجار المنبسطة في كل اتجاه.

كانت جنّة خضراء يمتلكها رجلٌ واحد، رجلُ من الآن ستتغيّر حياته ولن تعود كما كانت، سيتغيّر حاضره ومستقبله، رجلٌ لا يعرف ما يحصل داخل قريته الصغيرة، وتحت جنح ليلٍ مدلهمّ لا يعترف بالأخطاء.

أمرهما الرجل الملثّم بإيقاف السيارة والترجّل منها، كانت أمامهم حظيرة مهجورة استُخدمت منذ فترة لماشية المزرعة، ولكن بُنيت واحدة أخرى في القسم الغربي واستغني عن هذه، قال الرجل الغامض:

- هذه حظيرة قديمة استغني عنها منذ زمن ليس بقريب، لن يمر بجوارها إنسان ولن يدخلها حيوان، ضعاها هنا ولتغادرا على الفور قبل أن يراكما أحد وأنا سأفتح الباب لكما.

نظر الزميلان إلى بعضهما، ثم نظر كمال إلى الرجل، وقال له:

- ولكن لمَ لا تساعدنا ونخرج معاً، فنحن غرباء عن المكان، ولا نعرف المسير.

- لا أستطيع البقاء معكما، هكذا صدرت الأوامر، وأمّا الطريق فهو ذو خط مستقيم ولن تتوها.

تركهما وغادر على عجلٍ، وبعد أن أطمأنّا أن لا ثالث يراهما، فتحا صندوق السيّارة وأخرجا منه الأمانة، حملها عدنان على كتفيه بينما فتح له كمال باب الحظيرة، أراحها بهدوء على القشّ، وارتمى بجوارها متنهداً بائساً، وكذلك فعل رفيقه.

كانت صبيّة جميلة في الخامسة والعشرين من العمر، شعرها قصيرٌ يصل إلى حدود رقبتها أسود كما الفحم، ناعمة كطفلة صغيرة، نائمة كالأميرات بعد أن وضعا على أنفها قماشة مليئة بمخدر، يجعلها تنام ولا تستيقظ في الوقت القريب.

كانا مرهقين من سفرهما الطويل، فالمسافة تجاوزت الاثنتي عشرة ساعة، أشعل عدنان سيجارته وهو يتأمّل الفاتنة الصغيرة:

- انظر يا رجل إنها نائمة كملاك لم يعرف الخطيئة يوماً.

أطرق كمال في سكون، نظر إليها ثمّ قال لزميله:

- ونحن الشياطين الذين اغتصبوا حريّتها.

صرخ فيه عدنان:

- اخرس يا رجل.. عليك اللعنة.

- لا تصرخ هكذا، ستوقظها.

همّ عدنان بالنهوض، ثم قال لصديقه:

- انتهت مهمّتنا، سيتكفّل بها هذا الرجل الغامض.

وانطلقا خارج الحظيرة، قال كمال:

- إنها مزرعة كبيرة جداً، لا ليست مزرعة، يخيّل إليّ أنها قرية، أو بلدة.

ثم صاح بحماسة:

- يا إلهي ما أكبرها!

- اخفض صوتك يا رجل، صاحبها من أثرى الأثرياء. لا أحد يضاهيه في ثرائه الفاحش.

أقفلا الباب خشية أن تستيقظ فتهرب ويضيع تعبهما هباءً منثوراً، لم يجدا السيّارة، نظرا في كل اتجاه ولكن لا أثر لها، تأملا المكان جيّداً يحاولان فهم بعض الأمور الغامضة، ركل عدنان حجراً ذا حظٍّ سيء وجده في طريقه، وصرخ:

- اللعنة.. من أخذ السيّارة؟

- ربما الرجل ذاته.

- ولمَ يأخذها؟ ما حاجته إليها؟

صرخ كمال:

- هل وقعنا في فخ؟ هل أرادوا توريطنا؟

- لا .. لا يا رجل.. هم يريدون الفتاة فقط، ما حاجتهم إلينا.

- إذن كيف تفسّر فعلتهم هذه؟

أشاح بوجهه ونظر إلى الأمام، يتأمّل وعورة الطريق، ويفكّر في حلٍ يساعدهما.

- اصبر يا رجل، تعال نمض في سبيلنا قبل أن يعثر علينا أحدٌ.

وفجأة رنّ هاتف عدنان معلناً عن وصول رسالةٍ نصيّة، فتحها وكان فيها "سُحبت سيارتكما كي لا تثير الضجيج، تعالا مشياً إلى الباب الرئيسي ولا تتأخّرا" أعطى الهاتف لصديقه، وإذ شاهد هذا الأخير الرسالة تيقّن بأنّ الأمر لم يكن خدعة، وإنّما لضرورات أمنية. نبهه عدنان:

- هيا بنا يا صاح.

وسارا باتجاه الباب، كان الطريق بعيداً إن سارا على الأقدام، حاولا الهدوء قدر المستطاع ولكن أغرتهما فاكهة المكان، وشرعا يتناولان ما لذّ وطاب من ثمار وفاكهة.

وفي الجانب الآخر بالتحديد من تلك الحظيرة، استيقظت أميرتنا وفتحت عينيها البنيّتين الصغيرتين تبحث بعينيها عن مكانٍ تعلمه، وكل الأماكن أضحت لديها مجهولة، الظلام كان سيّد الموقف ويلفّها من كل الجهات، حاولت تذكار ما حدث وكان الصداع يتعب عقلها، وفجأة حضر في ذهنها ما حصل معها حين ترجّل من سيارة سوداء رجل يسألها عن محطّة الوقود، وحين همّت بالإجابة كانت قد سقطت بين أيديهما بعد أن وضعا قماشة التخدير على أنفها، تأمّلت المكان بعينين خائفتين فهذه البقعة لم تسبق لها زيارتها من قبل، كانت تفكّر بنفسها لمَ اختطفت؟ ومن وراءهما؟ لا إجابات الآن.

وقفت تفتّش عن مفتاح إنارة لتنير المكان، ولكن هيهات أن تجد إضاءة في مكان كهذا، تلمّست الجدار حتى وصلت إلى النافذة، ظنّت في بادئ الأمر بأنها الباب بسبب كبرها فشرعت تطرق بيديها الاثنتين، ولو وصلت إلى الباب لأدركت بأنه لم يكن مغلقاً، ولكن قدميها أوصلتاها إلى النافذة فقط، كانت تطرق النافذة بصوتٍ ذبيح تنادي النجدة، تبكي وتستغيث وما من سامع لبكائها في الليل العنيف سوى غربان الليل تنعب

معها وبوم يبكي لبكائها، ما من أحدٍ استيقظ لندائها فالحظيرة كانت مهشّمة في القسم الذي لا يصله أحد من عاملي المزرعة.

كان الرفيقان يلتهمان ثمار الفراولة متناسين أمر الرسالة الهاتفية التي وُجهت إليهما، فليسا كلّ يومٍ يأتيان إلى بقعة كهذه تضمّ جميع أنواع الفاكهة. صاح كمال:

- إنها جنّة! أقسم بربي إنها لجنّة الدنيا!
- وكأنّك نسيتَ ما بك من نوائب الدهر لتهتف بسعادة غامرة.
- دع عنك هذا الكلام، ما ينقصنا نحن لتكون لنا جنّة كهذه؟
- تنقصنا قوّة القلب والإرادة يا صديقي، أن تقتل ضميرك فلا تحييه ثانيةً.

وفجأة تناهى إلى سمعهما نداء استغاثة لفتاة راجية باكية، همس كمال:

- صه.. أتسمع؟
- إنه صوت استغاثات.
- بل إنه استغاثة فتاة، اسمع جيداً.

أصغيا السمع قليلاً، ليصرخا معاً:

- إنها الفتاة.

وركضا معاً، هرولا بسرعة عجيبة، تسابقت أقدامهما من الجري حتى وصلت إلى ظهريهما، وكأنّهما في سباقٍ للعدو، كانا قد ابتعدا مسافة لا بأس بها عن الحظيرة، ولكن الليل بارع في جلب الأصوات المتألّمة والمستغيثة، كأنّه متواطئ مع الضحايا.

وصلا منهكين يلهثان من شدّة النصب والتعب، فتحا الباب وأضاء كمال جهازاً كان بحوزته فأنارت إنارة خافتة، تراجعت مرام إلى الخلف وهي ترى عيوناً تحدّق بها بشرٍ، أسندت ظهرها إلى الجدار خائفة منهما، كان المخدّر قد نفد ولا سبيل لإسكاتها ولاسيما أنّها ظلّت تصرخ خشية أن يعتدي أحدهما عليها، ظنّت في البداية أنّها اختطفت لأغراض دنيئة، أراد عدنان إسكاتها بغلق فمها، لكنها استطاعت أن تعضّه، سحب يده بعد أن شتمها شتيمة قذرة، وهربت منه ليعالجها كمال بضربة على رأسها من عصا غليظة كانت موضوعة جانب الباب، سقطت على الأرض دون حراك، تنزف دماً كثيفاً من رأسها، وبدأ يصرخ كالمجنون حين رأى دماءها:

- دماء.. إنها دماء.. أرأيتَ هذا؟ إنها دماؤها، لقد قتلتها.

وجلس على الأرض مغمضاً عينيه، يبكي وينوح:

- يا ويلتاه على ما جنت يداي، هذا ما كنت أخشاه، جنت يدي على عمري وعلى أطفالي الصغار.

كان يصيح ويندب كامرأة ثكلى عاد رفاق وحيدها من حربٍ خاسرة دونه، وصاحبه ينظر إليه مبهوتاً به، وبعد فترة من النواح والعويل كان يجب على عدنان أن يكون أقوى من صاحبه، فسحب منه العصا الخشبية وأمسك بيده قائلاً له بحزم:

- لنهرب قبل اكتشافِ أمرنا، أنا الغبي الذي سمحتُ لك بمرافقتي، لنهرب قبل فوات الأوان، فربّما تكون قد ماتت، لنفرّ من هنا وننجُ بأنفسنا من شرّ سيفتك بنا إن تريّثنا قليلاً.

وانطلقا مسرعين راكضين إلى الباب، لا تغرّهما الثمار التي باتت محرّمة عليهما، كل ما همّهما الآن الركض المتواصل والهروب من هذه القرية اللعينة، وبعد قرابة نصف ساعة من الركض المتواصل وصلا إلى الباب، ووجدا الرجل الغامض بانتظارهما متجهِّم الوجه، قال بغضب أظهرته ملامح وجهه:

- ما أخَّركما؟

قال عدنان بصوتٍ حاول جعله هادئاً قدر الإمكان:

- أضعنا الطريق وجلسنا نستريح قليلاً، كما كانت لنا حاجة خاصة فقضيناها، لا يغب عن ذهنك أننا خرجنا شروقاً من العاصمة لذلك كنا بحاجة التبوّل، وكنا جوعى لذلك تناولنا بعض الفاكهة، ما ألذَّها!

كان يحاول التحدث أكثر كي لا ينتبه الرجل إلى ارتباك كمال وهذا الأخير غائب عن المشهد بأكمله، ضاق الرجل ذرعاً به فأسكته بإشارة من يده ثم فتح له الباب قائلاً:

- هناك في أسفل الشارع الموازي لهذا الشارع سيارة أخرى بانتظاركما.

وأعطاهما ما اتفقوا عليه من أموالٍ وغابا عن المزرعة وابتلعتهما طرق لم يسيرا بها يوماً، وكأنّهما ما حضرا إلى هنا. وأصبحت فيما بعد ذكرى هذه الليلة كابوساً يومياً يعيشه كمال وذكرى تائهة لدى عدنان، فالأموال التي اكتسبها من هذه المهمّة أنسته فعلته هذه وأنسته ليلة لم تكن كباقي الليالي.

- ٢ -

طالت الليلة الآثمة كثيراً حتّى بزغ ضوء الفجر وتناثر شعاع الشمس الربيعي في أرجاء الدنيا، داعب النسيم العليل مرام فاستيقظت مرّة ثانية، وهنا كانت إفاقتها تختلف عن المرّة الأولى، في المرّة الأولى هي تعلم من تكون وتعلم أنها مخطوفة مسلوبة الحريّة، ولكن في صحوها هذا لا تعلم من تكون ولا تعلم من هي، وأين هي؟

استيقظت على أرضٍ باردة وصلبة، مستلقية على ظهرها، رأسها ينبض ألماً وكأنه قد فُتح بفعل الضربة، تلمّست مكان الألم خلف رأسها بحذر شديد فراعها منظر الدماء على يدها، وجدت نفسها في مكانٍ تجهله، لمحت آثار الدماء على الأرض، وقفت فترنّحت وكان الوجع قد فاق الاحتمال، لا أجوبة لديها عمّا لحق بها من أضرار جرّاء وجودها في هذه البقعة المنعدمة عن العالم، لذلك لم تعر اهتماماً ببقعة الدماء الداكنة على الأرضيّة القاسية.

تأمّلت الحظيرة وكأنّها تراها أوّل مرّة، مشت فيها دائخة تبحث عن مخرج طوارئ كامرأة ثملة لم تفق من ثمالتها، ذهنها مشوّش وهي غير قادرة على تذكّر من تكون وما حصل معها.

خرجت من الحظيرة وتراءت لها المزرعة بأشجارها الغنّاء، كانت هناك أرض موحلة وعشب يؤدي إلى النهر ولا بيوت هنا سوى الحظيرة التي وقفت مجابهة تعاند وتفرض وجودها على الجميع، يغطّي اللبلاب جدرانها والأعشاب الضارة تتوزّع على جانبيه وصولاً إلى النهر.

دارت في مكانها لترى أحدهم ولكن لم يكن هناك أحد، كانت وحيدة وكان المكان موحشاً، مظَّللاً وساكناً، سارت بين الأشجار المتربّعة في جنة خضراء وخلفها تمدد النهر منبسطاً، مشت بتؤدّة ويدها على رأسها تبحث عن صديق يعرفها، وأين في الغربة تجد الصديق؟ ظلّت تمشي وهي مرتبكة الجسد مشوّشة التفكير، جائعة تبحث عن طعام تلتهمه.

في الوقت ذاته كان هافال ومالك يتابعان الأعمال الصباحية ويتفقدان مشكلات المزرعة ولاسيما بعد أن سمعا الليلة استغاثات فتاة بعد منتصف الليل، هافال يعطي الأوامر ومالك يدوّنها على دفتره الصغير:

- أخبر جميع العاملين بأن لديهم اجتماعاً في التاسعة صباحاً.

- حسناً.

- أشعر بأنّ أحدهم قد اقتحم المزرعة، وأخشى أن يكون قد عاث فيها فساداً.

- ولكن يا عمّاه، لم يُسرق شيء من المزرعة.

- أأنت متأكّد؟

- تقصّيتُ الأمر جيداً.

- الآن لا يظهر بوضوح ما قد سُرِق إلا بعد تفتيش جميع العاملين وبيوتهم أيضاً، هب مثلاً أن هناك من دخل إلى هنا لا بغرض السرقة بل لغرضٍ أكثر دناءة، ناهيك عن الصوت الذي سمعناه الليلة.

- أوافقك الرأي في ذلك يا عمّاه.

- إذن بلّغ الجميع بألا يتغيّب أحدهم عن الاجتماع وإلا فسيُطرد.

- حسنٌ.

تابعا سيرهما حتى رأوها معاً، مع أنها في الخامسة والعشرين من عمرها إلا أن من يراها يحسبها في الخامسة عشرة بشعرها القصير الأسود وعينيها الصغيرتين البنيّتين

ووجهها المستدير وغمازتها اليتيمة، كانت ترتدي بنطال جينز أسود وقميصاً أبيض ذا أكمام قصيرة، كانت تبحث بعينيها عن شيء لا تعرفه.

وصلا إليها وكأنهما وجدا إجابة عن سؤالهما، تحدّثا فيما بينهما وكانت تصلها همهمات للغة لم تسمعها قبلاً، كلماتٌ ليست بعربيّة، وبعد انتهائهما من حديثهما القصير سألها هافال بلكنته التي لم تفهم منها حرفاً واحداً، فوقفت كالبلهاء تتأمل هذيانه، حتى فهم بأنها ربّما ليست من زوّار المكان ولن تعرف لغتهم، فعاد سؤاله بالعربية:

- من أنت؟

لم تتكلّم، لم تستطع التفكير ولاسيما مع النبض المؤلم في رأسها، شعرت بهما يراقبانها، نظرت إليهما بحيرة ثم أطرقت برأسها تتجنّب نظراتهما الثاقبة والدخيلة ثم قالت بعد صمت أضجرهما وهي تعبث بخاتم أصبعها:

- أنا؟ من أنا؟ من أكون؟

حاولت التفكير دون جدوى، فقالت بنبرة منخفضة:

- لا أعرف.

صاح فيها هافال:

- كيف لا تعرفين؟

نظرت إليه بتوسّل طفلة متألّمة، وهمست:

- ولكنني فعلاً لا أعرف.

هي لا تعرف ما فقدته في التو، كلّ ما تعرفه أنها في أرضٍ غريبة، وهي غريبة أيضاً عن ذاتها، لا تتذكّر ولا تعرف شيئاً إذ فتحت عينيها على بداية جديدة، فلا شيء مما تراه يبدو مألوفاً لها، ولا شيء مما تسمعه يبدو قد وصل إلى أذنيها من قبل، رأسها فارغ فلا أفكار ولا ذكريات وكلّ شيء صافٍ كذاكرة مولود جديد، لم تتذكّر اسمها ولم تتعرّف على ذاتها، راح خيالها يطفو في كل الأنحاء ولكنه بعد أن غاب واختفى عاد إليها خالي الوفاض، خالياً من جميع ذكرياتها، وكأنّها أولَ مرة يتراءى لها هذا العالم، شعور غريب انتابها لا تدري كنهه وهو الهروب من مكانٍ ليس لها فيه أيّ ذكرى. ظلّ مالك يحدّق بها حتّى كاد أن يدخل إلى أعماق روحها، ثم صرخ في وجهها:

- إنها رنيم.

وركض ليعانقها، فوقفت مبهوتة في حين أسرع هافال وسحب ابن شقيقه من قميصه إلى الخلف صارخاً في وجهه:

- إلى متى ستبقى تعيش في وهمٍ اختلقه عقلك؟ إلى متى ستبقى تكذّب حقيقة موت رنيم؟ عام كامل مرَّ وأنت ماتزال تنكر تلك الحادثة.
- ولكنّها هي، انظر يا عماه، ذات الشعر القصير، جبال عينيها شامخة ووجهها دائري صغير، وكأنني أرى رنيم كما خلقها الله وصوّرها، صدّقني يا عمّاه.
- إنها ليست تلك فلا تكن أبله.

أعاد هافال النظر إليها متشككاً، وسألها مرّة أخرى:

- ثاني مرّة أسألكِ عن اسمك؟

نظرت إليه بأسى لم يرقَّ قلبه لها، ثمّ خفضت بصرها، وقالت بصوتٍ متردد:

- رنيم.

كانت لا تعرف اسمها، ولكنها تريد أي اسم تتشبّث به، ولتهرب من أسئلة لا تعرف أجوبتها، وتهرب أيضاً من زعيق هذا الرجل الضخم الذي يفوقها طولاً وعمراً، صاح مالك بدهشة:

- أرأيتَ يا عماه، ها هي تقول إن اسمها رنيم.
- ولكن الفتاة أجابت من خلال إجابتك أنت.

أطرقت برأسها خجلاً وكأنها ضبطت متلبّسة، ثم أجابته بكبرياء:

- أجل.

- ولماذا؟

- ربّما يعرفني، بينما لا أعرف من أكون.

سكتت قليلاً، وأردفت بنبرة جعلتها أكثر ارتفاعاً:

- إن انتهيتَ من تحقيقك، دعني أمشِ.

ومشت بكبرياء مخلّفة إياهما خلفها، فلمحا بقعة الدماء مجمّدة على شعرها، أدركا على الفور نصف ما حدث معها، وكان الجزء الآخر غامضاً، فلعبة البازل ستجتمع أجزاؤها بعد قليل، صاح فيها هافال أن تقف، فاستدارت، اقترب منها وقال بحزم:

- أنا هنا من يقرر متى تذهبين، ومتى تأتين.

- لماذا؟

- لأنني..

ثمّ صمت، لا يريد أن يجيب بتهوّرٍ، فهو يشعر بأنها ستغدو بطلة حياته، لا يريد استبقاء الأحداث، ليترك قطعة البازل هذه ناقصة فيأتيه الجواب يوماً ما. ثم مدّ يده إلى خلف رأسها وسألها:

- من فعل بك هذا؟

تمتمت بيأس:

- لا علم لي.

فهم أنها فقدت ذاكرتها جرّاء ضربة على رأسها، ولكنّه لم يفهم مجمل الأشياء، فمن تكون التي هبطت على جنّته بمنتصف ليلٍ أخرس لا يبوح بالأسرار، ستبقى لغزاً عصياً عليه يحلّه خلال ساعات قليلة، أو ربّما ستصعب المهمة وتكون شاقة، وتغدو الساعات أياماً ويخشى أن تطول أكثر من ذلك. التفتَ إلى ابن شقيقه وقال:

- سآخذها إلى المشفى.

- أآتي معكما؟

- لا داعي لذلك، عليك البقاء هنا لتجهّز لاجتماع الساعة التاسعة.

- وإن تأخرتَ؟

- اجعلهم ينتظرون، لن يحدث لهم أمر صعب إن انتظروا.

نظر إليها، وحثّها على المجيء معه، سارت قليلاً ثم وقفت، وسألته:

- لمَ عليّ السير معك وأنا لا أعرفك؟

- سأعرّفك بنفسي في الطريق، الآن أنتِ بحاجة إلى طبيب.

مشت معه بتردد لحظه، ومع ذلك لم يأبه، وبقي مالك جالساً تحت ظلّ شجرة الجوز يستعيد ذكرياته مع عروسه الصغيرة التي ما إن فرح بها حتى اختطفها الموت في حادثة غامضة لا أحد يعلم عنها شيئاً، وها هي الحياة تعيدها بفتاة تشبهها، وعادت به الذكريات إلى ما قبل سنتين تغزو رأسه وتلتفّ على رقبته حتى تكاد أن تخنقه.

"عانقها العناق العاشر وهمس بأذنها (أيامي بك ومعك ولأجلك ولحبّك قد خلقت، أيامي باتت أنتِ وكفى من الحياة شيئاً) قالت له حينها بحياء جميل (مازلتُ أرتبك كلّما غازلتني بحلو الكلام) ضمّها أكثر وهمس في أذنها (ومازال حياؤك يربك كلماتي، ومازال جمالك يربك الفؤاد) "

عاد إلى واقعه بينما أصوات ذكرياته تتعالى، وامتزجت الأصوات بالواقع وانغرست الذكرى في القلب أكثر لتذيبه فتؤلمه، لم تكن حياته عادلة إذ كلّما رأته سعيداً جلبت له ذكرى لن تعود، تبكيه وتشقيه، مسح دمعته الهاربة من عينيه دون أن يدري أنها دمعة

لقاء بعد فراق، أو دمعة حنين وشوق لغائبة لن تعود، كان إحساسه بأنها رنيم قوياً، ومع ذلك خشي على نفسه أن يقتله هذا الإحساس، مازال جالساً تحت شجرة الجوز وخيال مرام يطفو على سطح خياله بسحرها وجاذبيتها، مسح دمعته الثانية على وهمٍ اصطنعه خياله في لحظة شوق، ورسم له السراب أملاً مخادعاً لا يدري متى يصحو منه.

أخذها إلى المشفى، وهناك أجروا لها التحاليل المطلوبة، وصوّروا رأسها ومنحوها الرعاية المطلوبة، كان المشفى صغيراً جداً، ذلك ما كان يرغب هافال به لمنع الضجة إن علم أحدهم بالأمر، أخبروه بإصابتها بارتجاج في الدماغ أفقدها الذاكرة، وتستطيع استعادتها بتمارين لتنشيط الذاكرة، عاد بها إلى البيت، لا إلى بيته وإنما إلى كوخٍ حقير، كوخ خشبي صغير.

كان الكوخ الصغير يقابل القصر الكبير المقام على ربوة عالية، الذي كان حلم مرام زيارته ولو مرّة واحدة.

كانت تشعر بألم قوي جداً، إذ كان رأسها ينبض ألماً مع كلّ خطوة تمشيها، دخلت معه الكوخ وكان متهالكاً من الخارج والداخل، جدرانه مغطاة بورق جدران أزرق قديم متهالك، إن قطعاً منها قد تمزّقت وانفصلت عن الجدار، بعضها ملفوف وبعضها ملتوٍ، كانت أرضية الكوخ ذات ألواح خشبية، ليس فيه أثاث كثير، سرير متهالك، طاولة خشبية وأربع كراسٍ، ثلاثة رفوف مليئة بالكؤوس والصحون، خزانة قديمة ذات جوارير متكسّرة، صندوق أسود كبير وضعت عليه بضع بطانيات.

جلس على حافة السرير وقال:

- أترغبين في تناول شيء من الطعام؟

أومأت برأسها، فقال لها:

- استريحي فيما أجلب القليل من الطعام.

لازمها الصداع، وكأنه رفيق ليس بحنون، وأقسم ألا يغادرها، فبات غير مرحّبٍ به إطلاقاً.

لن يتركها فهو من وجدها وأصبحت من أملاكه، لن يدعها لابن أخيه وإن ماثلها في العمر فما يزال في نظره صغيراً، وهي أنثى رقيقة تحتاج إلى رجلاً خبيراً يعرف ما يريد من الحياة، لا يهم الفارق العمري بينهما، المهم حمايتها من رجس الشباب الأهوج.

هافال صاحب الخمسين عاماً يكبرها بخمس وعشرين سنة، له من الأولاد أربعة، صبي صغير وثلاث فتيات شقيّات، وكلما حلّ الشيب بفوديه أعاد صباغته باللون الأسود لينعم بشبابه الضائع، وكل من يراه يظنّه لم يتعدَّ الأربعين لشدّة ما يعتني بنفسه.

عاد إليها وقدّم لها القليل من الطعام فبدأت تأكل بشراهة، تركها مرّة أخرى وغادرها دون أن يخبرها بأمر خروجه وأغلق الباب خلفه بإحكام، سيذهب ويعود دون أن تنتبه لغيابه فهي غارقة في الأكل الآن، عليه أن يحلّ هذه المعضلة لأن أحرف البازل مازالت ناقصة، والأحجية يسعى لحلّها عقل يفكر دون توقّف.

وجدها عند شجرة الجوز، وليس خلف أجمة أشجار الجوز تلك سوى الحظيرة القديمة، سار إليها يحاول البحث عن خيطٍ رفيع يدلّه على الحل.

مازال مالك تحت شجرة الجوز يفرك أوراقها بيديه الاثنتين مفكّراً بذكرياته القديمة، غائباً عن واقعه الجديد، ومازال الفلاحون يتجمّعون لحضور الاجتماع المقرر عليهم، مشى هافال دون أن يلحظ مالك فلا يريد أن يسأله عنها ولو سؤالاً صغيراً، ولكن هذا الأخير لمح عمه فتبعه مسرعاً منادياً عليه:

- ماذا حصل يا عمي؟ أين هي؟

استدار إليه قائلاً:

- تركتها في المشفى.
- سامحك الله يا عماه، أيعقل ذلك! لمَ لمْ تبقى بجوارها؟ أو كنتُ ذهبتُ إليها.
- وهل أنت من أسرتها؟ إنها فاقدة للذاكرة وتبحث عن أسرتها، والمشفى ستتحقق من أمرها مع الشرطة، اذهب إلى عملك واطمئن على شؤون العاملين.
- والاجتماع.
- اصرف الجميع وأخبرهم قد تم ألغي الاجتماع.

- كما تريد يا عماه.

- غادر.. هيا.

انتظر إلى أن غادر مالك موقعه، ثم غادر بدوره يبحث خلف الأجمة إن كان قد وقع منها شيء على الأرض، في البداية أعتقد بأنها على علاقة مع أحد رجال المزرعة وقد جرّها إلى هنا لعلاقة غير شرعية، وحين حاول معها هربت ودافعت عن نفسها بالصراخ فما كان منه إلا أنه ضربها كي يُسكتها، ورأى ما أراد أن يراه حين دلف إلى الحظيرة إذ كانت بقعة الدم تشير إلى جريمة نكراء، فتّش المكان ورأى أعقاب السجائر مرميّة على الأرض، ثم وفي الزاوية كانت حقيبة بيضاء صغيرة على الأرض، جلس على القش وحملها يفتّش محتوياتها، سماعات هاتف، هاتف من طراز حديث، هوية مدنية، هوية صحفية، بطاقة مصرفية، بطاقات لعيادات أطبّاء متنوّعة وصور صغيرة لها ولشابٍ وسيم.

أعادهم إلى الحقيبة وحمل هاتفها، كانت آثار بصماتها واضحة عليه، قرّبه من الضوء فلاح له النمط وكيفية رسمه، رسمه بسهولة ففُتح الهاتف وبدأت رحلة التقصّي والتحرّي، جهات الاتصال، المكالمات الواردة والصادرة، الرسائل، تطبيقات التواصل الاجتماعي، رسائل عديدة من شابٍ مغرم بها، صوراً عديدة لها ولأسرتها ولهذا الشاب.

كلّ ما في الحقيبة يدلّ على نشأتها ومن تكون، وسرّه أن تكون فتاة عازبة ليس لها تجربة زواج، وإن كان لها حبيب فلا همّه الأمر، فكّر قليلاً ثمّ قال:

- ولكن.. كيف جاءت من العاصمة إلى هنا؟ ولم اختيرت مزرعتي؟ من أحضرها؟ ومن سهّل لهم عملية الدخول؟ من فعل ذلك شخص ليس بغريب يعرف كلّ صغيرة وكبيرة في المزرعة، وإلا لما أحضرها إلى هذا المكان بالتحديد، وهو مكانٌ قد هُجر منذ زمن.

لاحت ابتسامته. وأسند رأسه إلى الجدار المتآكل، وأردف:

- ربّما القدر رماها بدربي لأستعيد شبابي المهدور، فهي لن تقوى على الابتعاد لأنها لا تعرف الطريق، ولكن إلى متى ستبقى لغزاً محيّراً؟ فالأحجية مازالت ناقصة، مرام اسم جميل ولكني لن أناديها به كي لا تستعيد جزءاً من ذاكرتها، فستبقى رنيم إلى ما شاء الله.

أعاد الهاتف إلى الحقيبة، وخبّأها تحت كومة القش، ونهض ثمّ نفض القشّ عن ثيابه. غادر الحظيرة وهو سعيدٌ بما أهدته الحياة.

اليوم لن يعمل، العمال كثر وسيعملون وحدهم ومالك سيتكفّل بكلّ شيء، ذهب إلى سوق الملابس المستعملة وابتاع لها كومة من الثياب البالية، وعاد إليها متأمّلاً

ملامحها البريئة، قدّم لها الثياب فنظرت إليه كطفلة تنظر إلى والدها سعيدة بما جلب لها، ثم سألته:

- هل عرفتَ من أكون؟

نظر إليها بحنان، وكان عليه الكذب في عدّة أمور للظفر بها والوصول إلى مبتغاه.

- اسمك رنيم.

- إذن فذاك الشاب يعرفني؟

- لا.. لا يعرفك، ولكنّك شبيهة زوجته المتوفاة وهو مازال يعيش في وهم وفاتها، ثم...

سكتَ قليلاً، واقترب منها ممسكاً بيديها الاثنتين:

- لنبدأ حالياً باسم رنيم لكي نعرف اسمك، على الأقل لنناديكِ به.

- ومن أكون؟

- أميرة رقيقة.

- أريد معرفة من أكون، بعيداً عن الكلام المنمّق.

- ليس بين ساعة وأخرى ستعرفين، وأعرف من تكونين.

صمتت ليصمت، ثمّ شدّ على يدها فنظرت إليه، قال بتحنان كبير:

- سأفتّش عن أمرك وسأبحث عن عائلتك، ما عليك سوى الثقة بي.

نظرت إليه بتشكك، ولكن ما باليد حيلة، هي ظمآنة محتاجة لماء والنهر ملك يديه، هو أملها رغم ألمها.

- ماذا أفعل الآن؟ إلى أين أمضي؟

ابتسم هافال، وجلس على الكرسي الخشبي مستنداً إلى الطاولة، وقال لها:

- ستبيتين هنا.

- وأنت؟

- سأبيت هنا أيضاً.

نظرت إليه بعد فهم، وقالت:

- كيف ذلك؟ أنا وأنت غريبان لا قريبان.

- إذاً ما العمل يا صغيرة؟

سكتت باحثة عن أفكار تهرب من جحيم اللحظة الراهنة، فبدد الصمت ليقول لها:

- نحن غريبان الآن، ولكن ما يضير لو أننا لم نعد كذلك؟

- وكيف ذلك؟

صمت قليلاً ليفكّر بكلمات ينطقها فلا يكون لها أثر سيء، وحين لم يعثر على ما يريد فجّر قنبلته دفعة واحدة قائلاً:

- لنتزوّج.

فغرت فاهها وأصابها الذهول، فصاحت بدهشة مستنكرةً:

- نعم!!!

- لمَ الاندهاش يا صغيرة؟ ألديكِ مكان غير هذا المكان؟ ألديكِ مأوى ترتاحين فيه من تعب الحياة؟ إن خرجتِ فلن ترحمك ذئاب الشوارع، ثمّ نحن سنتزوّج حبراً على ورق فحسب كما يقولون، لتعيشي هنا دون أن يسألك أحدهم لمَ أنت قاطنة في هذا البيت؟

- ولكنّي لا أعرفك.

- المسألة بسيطة وليس الأمر بهذه الصعوبة، لنتعرّف الآن.. أدعى هافال وأنا عاملٌ بسيط في هذه المزرعة، ولا أملك من الدنيا سوى هذا الكوخ، وأنتِ إن وافقتِ طبعاً.

- أنا خائفة.

- سأكون أمانك.

- حائرة في قبول العرض.

- لا تترددي، ستعيشين سعادة لا توصف.

- ألديك خيارات أخرى؟

- ليتَ لي ملجأً آخر تأوين إليه.

سكت قليلاً يتأمّل ملامحها البائسة، ثم قال:

- رنيم وافقي، وسأكون لكِ الزوج الوفي، والأب الحنون، والأخ السند.

- ولكنّك لا تعلم شيئاً عن حياتي الماضية، هب مثلاً أنني امرأة متزوّجة أو مخطوبة لأحدهم، أو امرأة سيّئة السمعة، أو مطلوبة للشرطة.

عاد إلى الصمت، ثم نظر إلى أصابع يديه المشتبكة وقال:

- أنتِ لا هذا ولا ذاك، ثمّ سأعرف عنكِ أشياء كثيرة فيما بعد، فلا تترددي واحسمي الأمر، واقبلي.

صمتت وعقلها يفكر إن كان هو من جلبها إلى هنا، فهو يعرف عنها أشياءً لا تعرفها، ستوافق على عرضه فلا مكان آخر تأوي إليه، والموافقة هي الخيار الأسلم لها، ستهادنه في كلّ يومٍ حتى تصل إلى أسرتها، أسرة.. هل لديها أسرة؟ هل هناك من يسأل عنها ويبكي لأجلها ويدمع لغيابها؟ أخرجها من شرودها حين ناداها:

- رنيم.

نظرت إليه وكأنّها عادت إلى الواقع، ثم أجابته:

- موافقة.

موافقة هكذا، دون شروط ودون مطالب، موقفها ضعيف ولن تجرؤ على المطالبة بشيء، ربّما يرفض عرضه، فهنا هو الأقوى وهي الطرف الأضعف، كاتفاق بين أرنبٍ مذعور وذئب شرس كان اتفاقهما. وحصل له ما أراد وأهدته الحياة إياها على طبقٍ من ذهب، كانت له زوجة بعقد من ورق، وحدث ذلك حين أتمّ الشيخ عقد القران في ليلٍ أدهم حالك، وكانت هي داخل الكوخ وهم خارجه ولم تدرِ بأن بطاقتها الحقيقية كانت بحوزته وسجّل عقد القران بها، وبعدها أخفاها كما أخفى عقد الزواج، بعد أن ودّع الشيخ وشاهدا العقد الغرباء عن الجنّة الخضراء.

وقفت أمام النافذة تناظر القصر الوضّاء بأبهى الألوان وكأن ألوان الطيف هناك تتراقص بداخله لعقد قرانها على رجلٍ لا تعرفه، خافت إن رفضت أن تُلقى إلى وحوش الشارع فتلهو بها كما تشاء.

عاد الشيخ وشاهداه إلى حلب، وكان قد تعمّد إحضارهم من مكان بعيد كي لا يتعرفوا إلى المزرعة والعاملين داخلها.

كانت على الطاولة شمعة صغيرة تتراقص نارها، وشمعة أخرى كبيرة على حافة النافذة أضاءت الكوخ. جاءها ووقف خلفها مباركاً ما حصل، قالت له دون أن تنظر إليه:

- لمَ لا نرى أضواء هنا، بينما ذلك القصر تتراقص فيه الأضواء؟

قطّب حاجبيه، فها هي تبدأ أسئلتها السخيفة عند أول لحظة زواج لهما، وتقارن مقارنات ستخرج منها خاسرة، قال لها:

- لا تنظري إلى الأعلى يا صغيرتي، وارضي بقسمة الله.

استدارت إليه، وقالت مع ابتسامة صغيرة:

- أنا لا أطلب المستحيل، أسألك عن إنارة الكوخ، فهل هي شيء مستحيل؟

زفر بقوّة، وأشاح وجهه عنها، ثم قال:

- أجل، ثم إنك تكثرين الأسئلة في يومك الأوّل هنا.

اقترب منها وهمس في أذنها:

- ثم إنك ذكية جداً، لا تسألي عن أشياء إن تبد لكِ تسؤك.

اقترب من الشمعة وأطفأها بأصبعه بهدوء، وكذلك فعل بالأخرى ولفَّ ظلام سوداوي المكان، ولم تستطع أن تهادنه، وظلّت هذه الليلة في ذاكرته إلى أبد الآبدين، بينما ظلّت في ذاكرتها فترة تحاول تذكار الليالي التي مضت قبلها، ولكن ذكرى هذه الليلة طفت على سطح ذاكرتها. الليلة الأولى لها هنا كانت الأسوأ، رغم وعده لها بألا يمسّها إلا أنه نسفَ كل شيء حين بقيا وحدهما والشيطان ثالثهما، رغم معارضتها الثائرة ودموعها المنسكبة وجسدها المرتجف، رغم كل ذلك أصبحت في النهاية زوجته رغماً عنها.

وفي الصباح ارتدى ثيابه على عجلٍ ثم قال لها آمراً:

- لا تفتحي الباب لأيّ طارق ولا تخرجي إلّا لأمرٍ طارئ.

نظرت إليه بأسى وهي مازالت في السرير: ثم قالت:

- أخشى البقاء وحدي ها هنا.

فكّر قليلاً وهو ينهش رأسه بأظفاره، ثمّ قال بعد دقيقتي صمت:

- حسناً يا صغيرة، اخرجي وتنزّهي في المزرعة كما يحلو لك، ولكن حذارِ أن تخبري أحداً ما بأنّك زوجتي، فتحدث الفرقة بيننا وتغادري المكان.

همست بألم:

- وهل أنا خطيئة تدارينها؟

جلس بجوارها قائلاً:

- لستِ خطيئة ولكن الناس سيسألون عن سبب زواجنا، وسيتجمهر الفضوليون لمعرفة من تكونين.

همست في سرّها "ربما يتساءلون كيف الكهولة تتزوج الصبا؟" ثم ردّت عليه بصوتٍ مرتفع:

- حسنٌ لك ما تريد.

قرصها من خدّها قرصة ناعمة، وقال:

- زوجة مطيعة، أحب الزوجات المطيعات، لا تنسي بأن الناس يحبون التحرّي عن كلّ أمر، ويستنبئون عن كل نبأ تراه عظيماً.

- وإن رآني أحدهم فبم أجيبه؟

- أخبريه بأنك تقطنين ها هنا، في بيت امرأة عجوز ليس لها أولاد. كان هذا الكوخ مسكناً لامرأة وحيدة، لكنها ذهبت وسكنت في الربوة الغربية، قريبة من ها هنا، أخبريهم بأنكِ قريبتها، وتعيشين في كوخها القديم.

غادر الكوخ قلقاً على أخرى تعيش في قصره، فهذه أول مرّة يتغيّب ليلة كاملة.

تأمّل المزارعين وهم منهمكون في أعمالهم، ألقى أوامره على بعضهم وغادر إلى قصره، دخل خلسة كي لا تراه ميديا، فهو عاشق لها ولكنّه يحب تجديد شبابه أيضاً، صعد إلى الأعلى ليستحمّ، وكان يغنّي بسعادة لأنه لم يلتقها لئلا لا تعكّر لحظات سعادته، ولكنه ما إن خرج حتى وجدها جالسة على السرير واضعة ساقاً على أخرى، تؤرجح قدمها بعصبية، ألقى السلام عليهم وهمّ بارتداء ملابسه، فسألته مستوضحة:

- أين كنت؟

- عند صديق لي في حلب.

- لمَ لمْ تخبرني بغيابك؟

- نفد شحن هاتفي.

- ومن هذا الصديق لتأتي وتستحمّ فوراً؟

- صديق قديم لا تعرفينه، كنت أساعده في زراعة بعض شجيرات الزينة، فعلق بي التراب، وارتأيتُ أن أستحم على الفور قبل أن ألقى أميرتي الجميلة.

وقبّلها من وجنتيها، فابتعدت وهمهمت بما يشبه عدم التصديق، استدار إليها بعد انتهائه من ارتداء ثيابه:

- وكأنّك لا تصدّقينني.

نظرت إليه نظرة فاحصة، ثم قالت:

- الفطور جاهز إن أردتَ أن تأكل شيئاً قبل مغادرتك.

وغادرته ببطء. يحبّها بجنون ويخونها بجنون أكبر، ولكنها تبقى كلّ حياته ومن أجلها يتخلى عن الجميع، مشّط شعره أمام المرآة ثم انضمّ إليها على مائدة الطعام، أمسك

يدها وقبّلها، ثم تمتم باعتذار صغير واعداً إياها ألا يغيب ثانية، ابتسمت ابتسامة امرأة لعوب، فقد اشتاقت إليه كثيراً ولكنها تدرك أن الليلة الماضية ستغيّر حياتهما، ولن تعود المياه إلى مجاريها، فمن يغيب ليلة سيغيب بعدها ليالي عديدة.

خرجت مرام من الكوخ تتنزّه بعدما تناولت إفطارها، كان الكوخ محاطاً بأشجار البيروفي كثيرة الأوراق ذات العناقيد الوردية، التي تلمع تحت شمس مارس الدافئة، ابتعدت في سيرها أكثر عن هذه الأشجار لتتلقّفها أشجار أخرى من النوع ذاته، شعرت بنداء الأشجار لها "أن تعالي وعانقيني، فلدي ذكريات لن تقوي على استعادتها" اقتربت وجلست في فيئها بعد أن قطفت القليل من الأوراق، قرّبتها إلى أنفها واشتمّت رائحتها العطرية، فأثارت الرائحة شيئاً من أحاسيسها السابقة، وثارت ذاكرتها تعانق عبير الأوراق، رأت في ذهنها "يداً بيضاء تقدّم لها بعض الأوراق لتشمّ أريجها، كانت يد رجل"، وكانت الذكرى بعيدة المنال، فأصابها الصداع العنيف ولازمها، أمسكت رأسها بكلتا يديها وجثت على ركبتيها تبكي ألمها، ظلّت على هذه الحالة دقائق قصيرة، والذكرى تغيب وتختفي. حتّى شعرت بيدٍ تمسكها، وتحاول إيقاظها من ذكرياتها، نظرت إليه بدموعٍ غشيت مقلتيها، ثم همس مالك:

- رنيم .. ما بكِ؟

حين رآها هكذا في مكانه المفضّل، وعند شجرة ذكرياته مع زوجته، لم يطق صبراً ليقترب منها ويعرف ما حصل، ولمَ كذب عليه عمّه بشأنها، نظرت إليه وكان بهي

الطلعة، فاتحدت جبال عفرين بجبال قاسيون، لتشكّلا سلسلة جبال شاهقة، رأت في نظراته العطف والحنان، ورأت في نظرات هافال قسوة لا تلين. قالت له:

- لا أعرف ما حصل لي، رأيتُ الأشجار ها هنا جميلة، فكأنّها تناديني لأجلس في ساحتها، لا أعرف لم قرّبتها إلى أنفي على أنّها أوراق عادية جدّاً، شعرتُ حينئذ بأنها تخفي في جعبتها حكاية ما، وفعلاً استذكرتُ شيئاً ولكنه بدا بعيداً وكأنه في دنيا غير هذه، حاولتُ التركيز على الصورة التي رأيتها، فألمّ بي الصداع والتفّ حول رأسي.

- وماذا تذكرّتِ؟

- كانت هناك يد بيضاء، يد رجل كبيرة، تحمل أوراق هذه الشجرة وتمزّقها بيدها، ثم تقرّبها من أنفي كي أشتمّها.

- هل تعرفين اسم هذه الشجرة؟

- لا.. ولكن لرائحتها ذكرى أدمتني دون أن أستعيدها.

- إنها شجرة الفلفل الكاذب، وتدعى البيروفي أيضاً، وينادونها كذلك بشجرة العناقيد الوردية.

صمتت ولم تجبه.

- لا شكّ أن هذه الشجرة لها صلة بماضيكِ، ربما تلك اليد لعاشق أو صديق.

تمتمت خلفه كالمغيّبة:

- عاشق؟

بشرود قالتها، ألذلك وخزها قلبها حين تذكرتها؟ أهناك عاشق الآن يبكي غيابها ويناجي طيفها، انتزعها من شرودها:

- رنيم.

انتفضت من مكانها، ثم أجابته:

- نعم؟

- ماذا حصل في المشفى؟

- أخبروني بأنني أعاني من فقدان للذاكرة جراء ضربة تلقيّتها على مؤخرة رأسي، عالجوا جروح جسدي وتركوا ندوب روحي.

- أين بتِ ليلة البارحة؟

- بتُّ في ذلك الكوخ خلف الرابية الخضراء ببيت امرأة عجوز.

- ولكن تلك العجوز انتقلت إلى مسكنٍ آخر.

- أجل.. ولكن فُتح الكوخ لي لأسكن داخله ريثما....

سكتت ولم تكمل.

- ستعثرين على أسرتك، اطمئني فسنحاول مساعدتك قدر الإمكان، ولكن كيف تعرّفتِ إلى تلك المرأة؟

- هو من دلّني عليها.

تأملها قليلاً، ثم قال لها:

- تعالي اجلسي بجانبي لأحدّثكِ عنك.

جلست جواره تحت فيء الشجرة، ثم سألته بحيرة:

- هل تعرفني يا مالك؟

- أنا أقرب إليكِ مما تظنين.

بابتسامة صغيرة ارتسمت على وجهها سألته باستعطاف:

- أخبرني عني؟

نظر إليها مطوّلاً، ثم أطرق رأسه، وبدأ يرسم حرفيهما على التراب (R+M) وكانت تراقبه، فأجابها:

- فتاة جميلة، ابنة لأسرةٍ تقطن مدينة حلب، كنتِ صديقة لابنة المرأة العجوز، ودائماً تأتين لزيارتها هنا، لذلك وقعنا في الغرام، لكِ أم تعشق تراب الأرض من تحت قدميكِ، فأنت وحيدتها، ولك من الإخوة الذكور اثنان، كنتم تتشاركون المسكن والملبس والمشرب معاً.
- وهل كنت تحبّ رنيم؟
- إن أقسمتُ لكِ بأن قلبي المتيّم قد امتلأ بكِ إلى الحد الذي لم يعد فيه متسع لغيرك، هل تصدّقين؟
- أصدقك إن كان هذا الكلام لرنيم خاصتك، أنا لستُ هي.
- لكنّك تشبهينها كثيراً، دعيني أشعر بأنها عادت إلى الحياة.
- لستُ شبيهة لأخرى ولا تستثقل الأمر علي، لا تثقل كاهلي بعبء جديد ليس بي طاقة على حمله، ولا تعبث بذاكرتي مرّة أخرى.

نهضت تحث الخطأ إلى كوخها الصغير، ركض ورائها وأمسكها من تلابيب قميصها قائلاً لها:

- قفي أرجوك.. أنا لا أعبث بذاكرتك، كنت تواقاً لاسترداد بعض الذكريات النقية.

نظرت إليه قائلة:

- وذكرياتي.. مشاعري.. حياتي.. بقائي هنا، أنا أبكي لغياب حياة خالية كنت أعيشها، وأنت تجلب لي حياة أخرى لا تخصّني وتريد توريطي بها.

ثمّ تركته وغادرت على عجل.

ارتمت على سريرها لا تريد تصديق أحد، تريد الحقيقة ولا شيء غيرها، لن تكون مرآة لغيرها، صورة لامرأة مكررة لا تعرفها، شربت حبّة الدواء لتسكّن ألم رأسها إذ مازال يقضّ مواجعها ويكدّر صفو تفكيرها ويرسم الألم في عينيها البريئتين، ظلّت جالسة ساعات أمام النافذة تراقب القصر الشامخ متمنية أن تزوره يوماً، وضعت رأسها في يديها وعيناها باهتتان في الأفق، في عينيها ألغاز صعبة الحل وفي نفسها اكتئاب لا تدري مصدره حتى صارت الساعة الخامسة فأتى منقذها من وحدة كانت فيها، دلف إلى الكوخ ووضع ما بيده على الطاولة، أمرها بتحضير الطعام ريثما يغتسل من غبار المزرعة.

جاءها وجلس بجوارها، كان يتناول طعامه صامتاً حتى لم يسألها كيف قضت الساعات لوحدها، نظرت إليه مترددة بشيء تريد طلبه منه، ثم استجمعت شجاعتها وقالت:

- أريد استعادة ذاكرتي فأرتاح من عبئها الثقيل.

أكمل طعامه دون أن ينظر إليها مجيباً بنبرته القاسية:

- لكلّ شيء أوان، وحين يحين أوانها ستستعيدينها.

- ولكن أرغب بذلك الآن.

- وهل أنا طبيب؟

- خذني إلى طبيب.

- لا أملك وقتاً كافياً، ثم لا مال زائداً لدي.

- دع مالكاً يأخذني، أليس هو ابن أخيك؟

رمى قطعة الخبز من يده بغضبٍ فوقعت على الأرض، حملتها ووضعتها على الطاولة أمامه، قطب ما بين حاجبيه يحاول تهدئة نفسه فلم يفلح، فأمسكها من معصمها صائحاً بها:

- أين رأيته؟ ها.. تكلّمي، أين رأيتِ هذا الولد؟

صرخت تحاول سحب يدها من يده:

- اترك يدي، إنك تؤلمني، هو من رآني تحت فيء شجرة البيروفي.

أفلتَ يدها، وزفر بغضب:

- وماذا أخبرته؟

- اطمئن، لم أخبره عنك شيئاً، أخبرته بما أمرتني به إن سألني أحدهم، بأنني أعيش في كوخ صغير.

سألها متهكماً:

- ألا يعجبكِ كوخي يا ابنة الأكارم؟

- ليس هذا مقصدي، ولكن..

قاطعها بهمجية:

- وماذا تكلّم؟ أعرفه جيداً فهو ثرثار لا يطيق السكوت.

- أخبرني بقصّة أخرى.

- عن رنيم؟

- يدّعي أنها أنا.

- هو لا يعرف سواها.

- ولكن ماذا لو كنتُ رنيم خاصته؟

صرخ في وجهها:

- أنا أتحدّث عن رنيم زوجته.

- إذن من أكون؟

- أنتِ زوجتي، عليكِ أن تفهمي ذلك وتعيه جيداً.

زفر بقوّة، ووقف يرتدي سترته.

- إلى أين تذهب؟

- لن أبيتَ هنا، لديّ عمل ينتظرني، سأعرج عليكِ في الصباح الباكر لأرى أن كنتِ بحاجة لشيء.

- وهل ستتركني في ظلمة الليل وحدي.

- لا شيء مخيف هنا.

ثمّ اقترب منها هامساً في أذنها:

- أو إذا رغبتِ فبإمكانكِ استدعاء مالك ليقضي الليلة بجوارك.

- لم أقصد ذلك. ربما يغيب عن ذهنك أنني كنتُ سأُقتل، أنسيتَ ذلك؟

- لا تخافي، لقد شددتُ الحراسة على المزرعة ولن يدخلها أحد.

- أنت فعلتها! وما دخلك أنت؟ ألست عاملاً بسيطاً؟

زفر بقوّة، يا إلهي كان سيقع في ورطة معها، ثم صرخ:

- يا إلهي أسئلتك لا تنتهي، ذكاؤك هذا (وأشار بسبابته إلى رأسها) سيقتلكِ يوماً ما، أنا قصدتُ صاحب المزرعة، وهو أوكل إلي هذه المهمّة، تصبحين على خير حال.

وصفق الباب خلفه، نادته كثيراً ولم يستجب لندائها، بكت خوفها، ليتها تذهب إلى مالك وتعتنق صورة ريم لتتحادث معه عن امرأة خارج حدود الزمان، أحبّت الحديث عن تلك المرأة، كأنّها شخصية خارجة عن النص، لا تقيّدها هوامش ولا أسطرٌ في صفحات.

جلست على سريرها وفتحت النافذة تتأمّل أضواء القصر الباهرة فيرسل لها ضوءاً خافتاً يضيئ كوخها، بكت حنينها إلى شيءٍ لا تعرفه، شعرت بأنّ العالم الكبير لا يتّسع لها، ضيّق في نظرها، تائهة في دوّامة هافال ومالك وكلٌّ منهما يريد سحبها باتجاهه، مالك

يريد تسجيل أهداف كثيرة في ذاكرتها وهافال متمسّك بالكرة يريد سحق ذاكرتها فلا تتذكّر إطلاقاً. وبعد أن استعبرت العبرات في عينيها وعبر الدمع وجنتيها فغسلهما ونزلت إلى الأرضِ لؤلؤاً منثوراً، عاد الصداع يلوك ألمها الفظيع، تريد أن تعيشَ طموحاً كانت تعيشه، وحياة صُممت لها، لا تريد أن تكون في جسدٍ ليس لها وتحت سماء لم تمرّ من تحتها يوماً، لا ترغب باستنشاق هواءٍ لم يسبق لها أن استنشقته، هي تتوق لاسترجاع ذكريات مليئة بالضحكات والبسمات فحسب، ضحكات تشبهها ومواقف مرّت بها، ترغب أن يناديها الجميع باسمها الذي اعتادت عليه فيما مضى، والآن تشعر بغربتها أينما حلّت، تشعر من داخل أعماقها بأنّها غريبة عن الدنيا بأكملها، لم تُخلق للعيش في مكان كهذا، وقفت وصرخت بأعلى صوتها وكأنّها تناجي الألم:

- من أنا؟ من أكون؟ يا الله ساعدني لأصل إليّ، أنا وحيدةٌ يا الله، هذا العالم يخنقني، أشتاق البحث عن أناسٍ صادفتهم يوماً وكانوا لي نعم الخلّان، أناسٍ يرحّبون بوجودي بينهم ويفرحون، ليته كان كابوساً أفيق منه على يد أمٍ حانية توقظني صباحاً بقبلة على الرأس.

أمسكت برأسها وهوت على الأرض فاقدة الوعي، ساعات ديجورية مرّت بها وهي مرتمية على الأرضيّة الخشبية حتّى انتبهت في فجرِ يومٍ آخر على يد هافال تداعب شعرها وكان قد حملها إلى السرير، قال لها بصوته الغليظ:

- ما الذي حصل؟

- لا أعرف.

- ألا تملكين إجابة غيرها.

أسندت ظهرها إلى السرير، ثمّ قالت:

- تؤلمني ذكرياتي، يؤلمني شعورٌ لا أعرفه.

عادت دموعها تنساب على وجنتيها.

- أشعر بأنني أنتمي إلى عالمٍ آخر، وهبطتُ إلى هذا العالم دون قصد، يتيمة وغريبة ووحيدة، أشعر بالعجز وهو أشدّ المشاعر قسوة وألماً.

خبّأت رأسها بين يديها وبكت قسوة المزرعة، ظلم الحياة. ضمّها إليه حتّى كاد أن يلتحم بجسدها، وهي مازالت تتمتم:

- أشعر بأنني عاجزة عن فعل أيّ شيء، شعور أجرّبه أوّل مرّة ولا أعلم إن كنتُ قد جرّبته قبلاً، أحاول مواراة عبثي ها هنا، أحاول أن استلذّ بذكريات ابتدعها عقلي ولكنها جميعها ذكرياتٌ ملفّقة لا توصلني إلى طريق أسلكه، أرغبُ بشيءٍ قديمٍ لا أعرفه، لا أستطيع وصف شعوري الآن، أتفهمني يا هافال؟

ابتعدت عنه، وأكملت وهي تشيرُ إلى قلبها:

- قلبي يؤلمني، أشعر بالضياع وكأنني أسير في متاهة ألف عام، وتتلاشى أجمل الذكريات في متاهة يسهل أن تختفي بداخلها ويصعب العثور عليك، أشعرُ بحنينٍ إلى شيء لا أدركه، حاولتُ الوقوف فترنّحتُ ما بينَ النواح والبكاء، حاولتُ العبور إلى خلجات نفسي المظلمة فكانت الأماكن هناك مخبّأة ومغلقة بإحكام كبخيل حريص على كنزه الثمين، ومع ذلك حين أهمُّ بالوصول يفتكُ بي نصبٌ فظيع يفصل بين شقيّ الأيمن والأيسر، وكأنّ ألف مطرقة تطرقُ به.

وخبّأت وجهها تنشج ببكاءٍ حاد، عاد وعانقها مرّة أخرى وهو يربتُ على ظهرها تارةً وتارةً يمسح شعرها، ثم همس لها:

- أنا هنا، سأبقى معك فلا تخشي الذكريات، وسنحاول معاً وضع حدٍ لصداع رأسك، ستتجاوزين محنتك، سنتجاوزها معاً.

نامت بين يديه كطفلة تائبة من ذنبها الصغير، وهو الأب الحنون الذي لا يعرف القسوة.

شعورٌ سيّء ينتابها كل إشراقة صباح، يلهو الألم بجسدها الصغير ويداعب أوتار قلبها، موسيقى قديمة تطرق ذاكرتها وتهرب بسرعة كما الأطفال، لا تستطيع لمس بداية الخيط وكل الخيوط تشابكت في ذهنها، كلّ الأشياء بدت مشوّشة.

وضعت الطعام على المائدة وجلست قبالته، ارتسمت على شفتيها ابتسامة بريئة، وقالت:

- هل ستصبح هذه الأيّام ذكريات؟

أطال النظر إليها دقائق لابتسامتها النضرة، لبراءتها العفوية ثمّ قال:

- لا تتوقفي عن خلق ذكريات جميلة ما دمتِ ترغبين بذلك.
- هل ستغدو ذكريات رائعة أرويها يوماً ما؟
- ستنسينها إن عادت إليك ذاكرتك، فهذه الذاكرة التي تخزّنين بها كل شيء ما هي إلا ذاكرة مؤقّتة.

شهقت شهقة عالية، وصرخت:

- وهل أنساك؟
- وهل تنسى المرأة زوجها؟

- أنت قلت ذلك، بما أنّك لم تكن في حياتي الماضية.

- أنا رجلكِ، حاضرك ومستقبلك، إن عادت ذاكرتكِ إليكِ يوماً فسأذكّركِ بهذه الأيّام.

أومأت برأسها وأكملت طعامها والصمت لفّ المكان، هي تخشى إن زادت ثرثرتها أن يهرب منها كعادته، أنهى طعامه وغادر على عجل واعداً إيّاها بالمبيت عندها الليلة كي لا تؤرّقها الكوابيس، وسيتدبّر أمر ميديا فيما بعد.

على الكرسي الخشبي جلست أم حسام غارقة في تسبيح خالقها بالمسبحة السوداء التي أهدتها إياها رنيم قبل وفاتها بأسبوعين. كانت جالسة في حديقة دار المسنّين شاردة في سحب الربيع الأبيض فلم تنتبه إلى مالك حين اقترب منها وسحب كرسيّاً وجلس قبالتها، كان يهيم بها كأمّه التي ولدته، تأمّل تجاعيد السنين في وجهها ثم سحب يدها ولثم كفّها، مازالت على حالها منذ سنة بعد وفاة رنيم واختفاء ولديها، كانت الحادثة غامضة واختفاؤهما كان لغزاً محيّراً للجميع.

في كلّ ذكرى لابنتها تبتسم وتدمع عينيها، أحبّ المجيء إليها لأنّها وحيدة لا أحد يزورها، ولأنّها من رائحة زوجته، قال بعد أن تأمّل زرقة البحر في عينيها:

- لا أعرف عمّن أحدّثكِ الآن، عن رنيم وذكرياتي معها وشوقي الجارف إليها والفراقُ ليس بأمرٍ هيّن؟ أم عن أخرى تشبهها في جمالها وحركاتها وسكونها، في تألّقها ونضارتها وصمتها، وجبال عينيها شامخة كأنّها تبتهل لباريها، أحببتُ ما فيها لأنّها تذكّرني بامرأة كانت لي حياة.

ترك يديها وزفر بألم ثمّ قال:

- ذكرياتي معها موجعة جدّاً لأنها لا توصل إلى حقيقة مفادها بأنني خسرتها للأبد، أحسد تلك الفتاة على خسرانها لذاكرتها، فلا شيء لديها ترثيه وتبكيه،

أتمنى أن ألقى مثلها كي أنسى خلال دقائق قليلة، ولكن ذكرياتي معها على الرغم من قصرها فهي سعيدة ومؤلمة في آن.

كان يتعمّد عدم الإتيان على ذكر رنيم، ويذكرها بتلك الفتاة كي لا تعتقد بأنّه نسي ابنتها وهام بغيرها، وقف وجثا على ركبتيه أمامها قائلاً:

- قبل أن تكون زوجتي كانت صديقتي ورفيقة دربي، ذاكرتي مليئة بتفاصيل أيامها، تستحضرها كلّما لمحت تلك الفتاة جالسة في ظلّ شجرتنا التي كتبنا عليها أحرفنا، أغرمنا برائحتها لأنها تعيد إلينا ماضٍ أسعد كلينا، في كلّ ليلة يا أمّاه أصابُ بوحشة الحنين ونار الشوق تستعر في أضلاعي، أكتبُ لها لترى ما خطّت يدي ويرتجف القلم بين أناملي كأنه خائفٌ من لقاءٍ حميم بعد فراق أليم، يرجفُ قلبي في كلّ ليلة أذكرها ولا أحتاج حينها إلّا طيفها لأعانقها العناق الأخير، لتأتي من رحم الموت في ساعة أعانقها فيها وترحل.

احتضنها والدموع تنهمر من عينيهما كشلّالٍ ينساب بغزارة، مسح دموعها وتركَ دموعه، همس لها:

- سامحيني لأنني أضفتُ عذاباً إلى عذابك كنتِ قد جاهدتِ لنسيانه، ولكن إلى من أشتكي وكل واحدٍ أعرفه غارق في همّه والغم يخنقه.

نظر إليها ثمّ قال:

- عانقيني أنتِ يا أمّاه، أليس من واجب الأم احتضان وليدها حين يتزاحم الألم على قلبه، خففي عني وزر الشوق وساعديني لئلا أتحوّل إلى وجعٍ لا يبرأ.

عانقته وهي تنوح معه وتبكي فلذة كبدها، لا صداقة بينهما إلا صداقة نكبة جمعتهما ولم تفرّقهما. قبّلها على جبينها ولثم يدها ثمّ غادرها ببطء، سار في أزقّة حلب وعرّج على الجامع الأموي فصلى بداخله ودعا ربّه بالرحمة لها وبالغفران والنسيان له وإن كان لا يرغب أن يبرأ منها قط. عاد أدراجه وتمشّى في خان الحرير، حاول تسلية نفسه بأيّ شيء يبعده عن وحدته، فهو يمقتُ وحدة لم يخترها وعزلة يخشى الموت بها.

سيكون صديقاً لفتاته الجديدة، ولكنه يخشى على فؤاده من التعلّق بها دون إرادة.

عاد أدراجه إلى المزرعة ووجدها هناك جالسة بثوبٍ رمادي طويل، ومسندةً ظهرها إلى جذع الشجرة، مغمضة العينين وكأنها في أحلامها تعيش، همس لنفسه "يا الله! وكأنّها ملاك هبط إلى المزرعة" تقدّم منها يتأمّل كلّ ذرّة بجسدها، شعرت بشخص حولها ففتحت عينيها، دُهشت حين وجدته يناظرها عن قرب، همست:

- أفزعتني.

جلس قبالتها على صخرة صغيرة.

- أعتذر منكِ، لم أقصد ذلك.

أومأت برأسها في استحياء، وأبقت رأسها مطرقاً وكأنّها تعدّ الحصى الذي أمامها، بدد الصمت بقوله:

- أتدرينَ يا رنيم أنني أغبطك؟

نظرت إليه مستفهمة:

- علام؟

- على فقدانك لذكرياتك.

ضحكت كثيراً حتى ذرفت الدمع وبكت:

- أتضحكين وتبكين معاً؟

- أبكي سوء فهمك وأضحك لأنّك تغبطني على شيء أرثيه كل ليلة، ماذا تعرف عن هذا الضياع الذي أعيشه؟ أنا في غربة بأرض أناس لا أعرفهم، اشتاق لذكرى واحدة فقط كي أبكيها، خذ ذاكرتي الفارغة وأعطني بدلاً منها خزائن من ذكرياتٍ لا تنتهي وتخصّني وحدي.

- الذكريات أحياناً تشقينا ولا تسعدنا، من المؤلم أن تنتظري ذكرى جميلة مرّت بحياتك مرّة واحدة فقط، ستشتاقين إليها كلّ عام حين يمرّ التاريخ بذكراها، الأكثر وجعاً وإرهاقاً أنّكِ تدركين أنّها لا تتكرر.

- يكفيكَ من هذه الدنيا أن تشتاق إلى أحدهم فتعيش على ذكراه، وأنتَ تعلم أنّ هذا الشخص في بقعةٍ ما من العالم يبتسم لذكرى جمعتكما، يكفي أن تعيش العمر كلّه وأنتَ غارق في ذكرياتٍ سعيدة.

- وإن كان هذا الشخص قد مات، والحياة لن تهبنا ذكرى جديدة معاً.

- ستحيا على ذكراه القديمة وستحلم به في الأوقات جميعها، ستغدو حياتكَ أخفّ وطئاً لأنّك قادر على إحيائه بداخلك. أمّا أنا فلا أعرف من أكون ومن هم خلّاني وأصدقائي، ربّما لستُ من روّاد هذا المكان، أتدري يا صاحِ إلى الآن لم أسأل عن هذا المكان، كان كلّ تفكيري منصبّ على من أكون.

- أنتِ في مزرعة كبيرة، تستطيعين عدّها قرية صغيرة في مدينة عفرين وذاك هو نهر عفرين المحاذي للقصر الكبير.

أومأت برأسها وصمتت، ولكنه لم يطق الصمت، فأردف بحنانٍ ناظراً إليها:

- الماضي مجرّد ذكرى، تستطيعين اعتباره غير موجود، لكن الغد هو الشيء الوحيد المتبقّي لكِ، عشيه بسعادة.

كانت ستجيبه لولا أنّها رأت هافال واقفاً ناظراً إليهما بغضبٍ، كان واقفاً خلف مالك لذلك لم يره، أشارَ إليها أن تعود إلى الكوخ، اعتذرت من مالك وغادرت مسرعة، حاول إيقافها فاصطدم بعمّه.

- عفواً يا عمّاه، ولكن منذ متى وأنت هنا؟

- وهل يهمّك الأمر، لو كان يهمّك فلمَ جلستَ وإيّاها وحدكما في هذه الساعة من الليل.

- الليل في بدايته يا عمّاه، ثمّ هي لا تخصّك لتحدد ذلك.

أمسك بتلابيب قميصه، وقال له:

- منذ متى وأنت تعمل معي وتقطن هنا؟ أنا سأجيبك، منذ أن كنتَ فتىً يافعاً، حين مات والدك لتهرب أمّك في جنح الليل وتتزوج بآخر لا نعرفه. منذ ذلك الوقت وإلى الآن أعدّك كابني روبين ولم نختلف قط، فلا تجعلنا نختلف الآن بسببها، لا تنس أنّ ما في المزرعة من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها يخصّني وحدي.

أفلته، وهمس في أذنه:

- لا تدعني أعيد ما قلته للتو، من الباب الرئيسي إلى نهر عفرين حيث قصري، كل كائن حي ملكي أنا.

أطرق رأسه خجلاً، ثمّ قال:

- اعذرني يا عمّاه.
- أتيتُ لأحدّثك بأمرٍ آخر، لا تخبر رنيم بأمري.
- كيف ذلك؟
- لا تخبرها بأنني مالك الأرض، وإن كثرت أسئلتها فأجبها بأنني عاملٌ من عمّال المزرعة.
- لمَ؟
- ستعرف لاحقاً، ولكن إلى ذاك الوقت لا أريد أن يجمعكما مكان، ولا أن تأتيا بأيّ حديث.

وغادره بشموخ بعد أن تركَ هذا الأخير يفكّر بآخر جملة نطق بها، هل هناك مشاعر لدى عمّه للفتاة الصغيرة؟ ولكنه يزيد عمرها ضعفاً، هل من المعقول أن يجرّها إلى عالمه؟ ولكن ميديا لن تحتمل الأمر إطلاقاً.

كل هذه التساؤلات بقيت دون إجابات، فالأيام كفيلة بكشفِ بعضها والزمن كفيل بحلّ ما لم يحل.

أغلق هافال الباب خلفه بغضبٍ واقترب منها، أمسك بعصمها وهدر في وجهها:

- ألم أطلب منك ألا تجتمعي به في مكانٍ وحدكما؟

صرخت بألمٍ، وصاحت:

- هو من انضمّ إلي، كنتُ جالسة وحدي.

- بإمكانك المغادرة، أم تراه قيّدك بقيدِ لسانه؟

سحبت يدها من يده بصعوبة، وهربت من نار جحيمه لتقف على مبعدة منه:

- لم يقيّدني، وإنّما كان يحدّثني عن ذكرياته مع الراحلة زوجته.

- ألم تملّا هذه الأحاديث السخيفة؟

- سخيفة عندك ومؤلمة عنده، كلّ إنسان يرى همّه أكبر الهموم وغيره يراها أصغر الهموم.

اقتربت منه بعد أن هدأ، وقالت:

- أنا لا أعرف أحداً هنا، أرجوك لا تجعلني أجنّ بوضعي في مكانٍ كهذا، انظر إلى نافذتي فيتراءى لي القصر وأطفاله، وهم يتضاحكون سعداء، وأتأمّل حالي والوحدة تتلبسين.

- سعداء! هل تراءى لك أصحاب القصر كذلك؟
- أجل وأحسدهم على ذلك، عندهم أسرة سعيدة وإن كنتُ لا ألمح أبويهم أبداً، ولكن يخيّل إليّ بأن جميع من في القصر سعداء.

ابتسم ابتسامة تهكم وخلع جاكيته، ألقاه على الطاولة وسحبها إلى السرير قائلاً لها:

- ليس كلّ ما تراه الأعين نصدّقه، فالعين لا ترى سوى جانب واحد، إن لم نعاشرهم فلن نعرف أكانوا سعداء أم لا، ربّما هم من يحسدونكِ على مبيتكِ في هذا الكوخ.

صاحت دهشة:

- هذا الكوخ!
- أجل.. هذا الكوخ الذي لولاه لما عرفتِ ما سيحلّ بكِ.

واقترب منها يعانقها، كانت مطيعة إياه على الدوام، تخشى الرفض كثيراً فلا مكان تلجأ إليه، قال لها:

- لمَ لا ترفضين؟
- أخشى الرفض، فأرمى في الشارع.

- لا.. لستُ سادياً لأفعل ذلك، من حقّكِ الرفض والقبول.

صمتت، فلم تعثر على إجابة تجيبه بها، ولمّا طال صمتها بدده بقوله:

- ارفضي بقدر ما ترغبين في الهروب من المكان، أشعلي الثورات فمن حقّك ذلك.

- وماذا إن أطفأت لهيب الثورة بروحي، وقتلت الحياة فيّ.

- الثورة لا تشتعل يا صغيرتي إلا إذا قام شخصٌ ما بالتضحية، فينقذ جيلٌ بأكمله.

- لا أشاطرك الرأي يا عزيزي، ماذا سأستفيد أنا؟ لستُ مثالية إلى هذا الحد، حين أرفض سيتم وأدي، وحينها تأتي أخرى لا تعرف الرفض، حين تنطفئ ثورة ما سيعيش شعبٌ كامل كما اعتاد، ولا يفنى حينها إلا من تعلّم الرفض، والحياة بعده ستمضي والكل سينساه.

عادت إلى صمتها، وبعدها همست:

- ثمّ لا مكان لي أرحل إليه.

أعجبته ثقافة الرفض والقبول هذه، أحيت عنده رجولته الخاصة، لا ريب أنّها تخشى عليه من امرأة أخرى تحتلّ مكانها، فقال مبتسماً:

- أتغارين علي؟

وكأنّها ضُبطت متلبّسة بغيرتها.

- نحن رفاق رحلة على طريق سفر، ربّما يطول الطريق وربّما يقصر وبعدها لكلّ منا دربه الخاص به.

تمدد بجوارها قائلاً:

- ولكنّك الآن امرأة متزوّجة، وإن عدتِ لأسرتك فلن يغيّر الأمر شيئاً، ستبقين زوجتي، لا تنسي ذلك.

- حينها سيتمّ الطلاق.

- هذا الأمر سابق لأوانه، ليس هافال من يأتمر بأمر امرأة، ليس هافال من تعانده امرأة، ولستُ أنا من يستغني عن شيء ملكه.

ونام بجوارها كما وعدها، مسحت على شعره وابتسمت لأنه أشعرها بأنّها لن يُستغنى عنها بسهولة، همست:

- شكراً لأنّك تفكّر بي ولبيّت طلبي بالبقاء هنا، أما أنا فالآن بات لديّ مخزون هائل من ذكرياتٍ رائعة عنك أتمنّى ألا تنتهي أبداً.

ونامت وهي تعانقه، هل بدأت تحبّه؟ أم إنه شعور الأمان، فهو من يعتني بها كأنّه والدها، يخشى عليها كخشيته على أبنائه، إنها حقاً مدينة له وأقلّ ما تفعله أن تمنحه جسدها لترضيه، فلا يسخط عليها، وهي لا تملك شيئاً آخر تهبه إياه.

وعلى الطرف الآخر في القصر الكبير كانت ميديا تنتظر من وعدها ألا يغيب وغاب، تنتظر رجلاً لن يأتي، وها هو أول مرة ينقض عهداً قطعه، أزاحت الستارة عن النافذة لتراقب المزرعة بأبعادها الشاسعة لعلّها تلمحه، ولكنها رأت الأطفال الصغار والنسوة العاملات، والرجال الضاحكين الباحثين عن أعشابٍ ضارة لقلعها، ولم تره ولم يقترب من مدّ نظرها.

تعب جسدها من الوقوف الطويل، فترنّحت حتى كادت تسقط، جلست على سريرها وضغطت زراً بجانبها هرعت إليها الممرضة ما إن سمعت صوت الجرس ولبّت طلباتها جميعاً، قاست لها ضغطها وبعدها أراحتها على الوسادة وخرجت لتتركها وحدها، أغمضت عينيها وتجمّدت قطرات الدمع في المحاجر، تكرهُ لحظات الضعف التي تنتابها في لحظاتٍ كهذه، قويّة هي ولكن بهافال، فحين يغيب عنها تُسقط قناع قوّتها لتحلّ محلّها نوبات هشاشة تسقطها أرضاً.

منذ علمها بمرض السرطان الذي بدأ برئتيها وهي متعلّقة به أشدّ التعلّق، انتشر المرض من بعد في جسدها وعجز الأطباء عن مقاومته، حاولت مراراً التشبّث بالأمل، وكم قاومت حتى لا تقع أرضاً، لكن عدوّها شرس لا يرحمها أو يرأف بها، قاتلت كثيراً ولكن قتالها لم يسفر عن شيء ونال السرطان من جسدها بقدر ما نال هافال من

قلبها، كلاهما فتكا بها ولم يرحماها، الأوّل محاربٌ بارع عرف كيف ينشر ويقتل خلايا جسدها دون أن تنتبه إليه والثاني كان سرطاناً من نوع آخر سيطر على قلبها ومنعها من التفكير بنفسها، كان كلّ ما تملكه باسم الحب قد صار له.

لن تبكيه بسبب مبيته خارج البيت، ربّما تعب من مداواتها ولذلك هرب منها إلى مكان بعيد عنها.

فُتح الباب، ظنّته هو، تأمّلت القادم بعينين معاتبتين لكنّه كان طفلها روبين ابن العشر سنوات، جلس بجوارها ومسح على شعرها وكأنّه يخبرها بأنّه بسبب حزن عينيها قد جاء، أغمضت عينيها أكثر كي لا يرى ضعفها، ضمّها إليه وانحسر بجانبها هامساً بأذنها:

- كم اشتقتُ إليكِ يا أماه، وكم اشتقتُ إلى جلساتنا معاً.

لم تستطع التظاهر بالنوم أكثر من ذلك، فتحت عينيها وضمّته إلى قلبها إذ انتشر الحبّ في جسديهما، ولم تبكِ ولن تبكي. همست:

- وأنا يا صغيري اشتقت إليك وإلى إخوتك.

وهنا انسكبت عبرة واحدة يتيمة، لكنّها ثرثارة ثرثرت كثيراً عن ضعفها وهشاشتها، وخلال هذه الساعات التي قضتها تحكي لروبين حكاية زوربا كانت تنظر إلى الساعة الجدارية تنتظر حبيب قلبها، تأخّر الوقت ونام صغيرها بجوارها وسيد قلبها لم يعد.

نامت أخيراً وكم تمنّت أن تستيقظ على صدى أنفاسه، ولكن أشرقت الشمس وطلع نهار جديد وهافال لم يأتِ، هنا نزعت عنها رداء كبريائها وانتظرت خروج روبين من الغرفة لتتصل بها، جاءها ردّه ناعساً وهذه أوّل مرّة ينام فيها إلى هذا الوقت، أغلقت الهاتف وتربّعت على السرير تفكّر في دنياها الجديدة معه، هل وجد أنثى غيرها ليست بعليلة؟ هل باعها وباع أطفاله الصغار؟ انتظرته كثيراً وأبت تناول فطورها قبل أن يأتيها ليشرح لها وضعه الجديد، لم يتأخّر عن نداء قلبها. جاءها يسألها عن سبب اتصالها وقدّم سلالاً من اعتذارات دون أن يبادلها النظر، كانت نظرات عينيها جامدة باردة، فأمسك بيدها وقال:

- صدّقيني يا حبيبة الفؤاد ما أخّرني عنكِ سوى صديق لي قديم.

- لمَ أشعر بأنّك بدأتَ تبتعد عني؟

- لمَ تقولين ذلك؟ هو يومٌ واحد فقط نمته خارج البيت.

- يومان يا عزيزي.. لا يومُ واحداً.

- أعتذر لقلبك عمّا سببته من ألم، ولن أكررها ثانية.

ودخل ليستحمّ وهو يفكر بالاثنتين، لا يعرف من يرضي. هذه؟ أم تلك؟ إن رضيت تلك حنقت هذه، وإن رضيت هذه كدّرت عيشته تلك، كان يفكّر بحلٍ يرضي جميع الأطراف دون أن تعرف كلّ واحدة بالأخرى.

وخارِج الحمام كانت جالسة على كرسيها تنتظره لتشبع منه، تريدُ أن تبقى وإياه العمرَ بأكمله، لن يفرّقهما سوى الموت، الموت الذي يتربّص بها ويهددها في كلّ ثانية تمرّ بها تنقصُ من عمرها.

اقتربت منه وجلست بجواره، نظر مالك إليها برهة، ثم خفض رأسه، بددت الصمت هي حين قالت:

- أشكركَ من أعماق قلبي على حسن كرمك مع أنثى مثلي عديمة الذاكرة.

كانت تطرق بيدها على صدرها، وكأنّها تحاول أن تلمس وجودها، مازالت تشكّ بأنّها غير مرئيّة، تأمّلها قليلاً، ثم وقف يداعب أوراق شجرة البيروفي وقال:

- أعتذر لأنني لم أجرّب هذا من قبل، لا أستطيع أن أكون مكانك.

- أقسم لك أنه شعورٌ مؤلم، أن تبحث عن نفسك ولا تجدها.

أغمضت عينيها كي لا تفيض بالدمع، ولكنّها أمطرت دمعاً كثيفاً، ثم قالت:

- من المؤلم أشرح ألمي، إنه لوجعٍ عظيم فاق احتمالي، والأكثر ألماً أن أعيد شرحه بطريقة أخرى أكثر وصباً. إنني لا أعرف طريقة شرح العذاب الذي أعانيه.

اقترب منها وقال لها:

- لم أكن أعرفك قبلاً ولكن أقسمُ أنّك أصبحتِ الآن عزيزة علي، صدقيني أحاول أن أشعر بما تشعرين، وأعجب لصبرك وأودّ مساعدتك ولكن كيف السبيل؟

مسحت عبرتها، وابتسمت ثم شكرته لمواساتها، وبعدها قالت:

- إنكَ لا تدرك معنى أن تمشي الأفكار في عقلك، وتمشي بحثاً عن ذاكرة مختبئة حتى تتأكل الأفكار دون أن تسفر عن شيء جديد.

عجز عن قول كلماتٍ تساعدها على الابتسامة، الآن يراها في أشدّ حالاتها بؤساً، تتخبّط لعجزٍ يسيطر عليها، تائهة في دهاليز ذاكرتها. أكملت هي:

- أعرف بأنني أثقل عليكَ بهمومٍ لا تعنيك، ولكن إلى من أشتكي ولا أجد سواك في دربي الطويل.

سكتت قليلاً، ثمّ أكملت:

- في رأسي صورٌ ضبابية تتدفّق بسرعة غريبة ثم تختفي ما إن تظهر كومضات مشعّة، لذلك كان يشقّ علي استحضار إحداها.

كتفَ يديه ووقف يتأمّلها، يريد أن يستمع إليها فحسب، يريدها أن تبوح بما في قلبها من آلامٍ تثقلها، لذلك لم ينبس ببنت شفة. ووحدها من كانت تهمس بألم يغلي في قلبها، وينفخ عروقها، ويضخّم أوردتها، ويؤلم رأسها الصغير.

- أنا هنا دون أمل، دون أحداث ولا أحلام، دون ذكرياتٍ أو تفاصيل، أشعر بشعورٍ غريب وهو توقٌ شديد لاستعادتها كاملة دون نقصان، كأنني في كابوسٍ سأستيقظ منه ذات نهار صيفي. وجع الفقدان ينهش قلبي، لا أعرف أسباب هذا الوصب العميق الذي ألمّ بقلبي فآلم روحي، لا أحد يشعر بما أعاني سواي.

نظرت إليه، وحدّقت في جبال عينيه الساكنة، ثمّ قالت بابتسامة متكلّفة:

- لقد أتعبتكَ بأحاديث لا تسلّيك.. أعتذر إليك.
- لا داعي للاعتذار، سأكون بجانبك متى احتجتني، وسأسمعك ما دام في قلبي نبضٌ للحياة.
- أتبحثُ معي عن إنسان يعرفني؟
- أتمنى ذلك.
- أريد أن ينتهي هذا العبث في أسرع وقت، أريدُ أن ينتهي كلّ شيء في غمضة عين، أنا لا أشعر بأنني منتمية إلى هذا المكان، أرغبُ بالعودة إلى منزلي، إلى أهلي وأصدقائي، حارتي ومدينتي، فرشاة أسناني وغرفتي وكتبي وطهي أمي، أريد أسرة تعرف من أكون، فتضمّني لصدرها اشتياقاً، أتمنى انتهاء كلّ شيء، كلّ شيء.

تركته وعادت إلى كوخها، تركته حائراً يمزّق أوراق الشجرة، لا يريدها أن تعثر على أسرتها فهي ستبقى خليفة رنيم ولن تغادر المزرعة بتاتاً، لن يسمح لها، سيداهنها قليلاً بينما تستكين جراح قلبها وتهدأ، اقترب من الشجرة وتلمّس الحرفين، ثم قال:

- أليس جنوناً أن نمتلك نحن الاثنين ذاكرة واحدة؟ أن نغرم بشجرة واحدة ومكان واحد.

نظر إلى البعيد يراقب آثار خطواتها التي غاصت في التربة الحمراء، ثم همس:

- من أنتِ يا فتاة؟ هل أنتِ جزء من ذاكرةٍ جميلة عبرت روحي ذات يوم؟

أسند جذعه إلى الشجرة، وأغمض عينيه، فاستذكر محبوبته، وكان ذلك عند غروب أحد الأيام وبعد مشادة كلامية بينهما:

"اقتربت منه وطبعت على جبينه قبلة صغيرة، وقالت (في لحظة الخلاف تكون الذاكرة ناكرة ابنة عاقرة، تستجلب كلّ ذكرى بشعة وتمحو كلّ حضور طيب) طبعت قبلة أخرى على وجنته، ثم أكملت (بالنظر للساعة نجد أن الوقت يمر بسرعة وكل الأشياء في الكون تتغيّر، الوقت لا يصلح كل شيء كما علّمونا، بل بمروره ينسف كل جميل فينا، يرحل أشخاص وتتغير أماكن، وأخشى الاستيقاظ يوماً فأجد مكاني قد تضاءل في قلبك، وقد أصبحتُ مجرّد ذكرى تداهم عقلك كلّ حين)".

استيقظ على هذه الذكرى هامساً لقلبه:

- ذلك الحزن الذي ظننته أن لن يمرّ بتاتاً أصبح مجرّد ذكرى مؤلمة تنغّص علي واقعي، الوقت لا يجعل الجروح تلتئم بسهولة ويسر، وتلك الندوب كانت لا مفرّ منها، وفي النهاية كلّ شيء مرّ بألمٍ وعذاب ولم يكن لهذا العذاب من نهاية، فكلّ الذكريات لم تنضب إلى الآن بل اشتعلت في ذاكرتي براكين لا تخمد.

كان هذا الوصب يقتل الحياة فيه، هو مريضٌ بالشوق ولا علاج له سوى دمع الحنين يذرفها بين آونة وأخرى، تستيقظ في ذهنه في كلّ مرّة ذكرى تدميه دون أن تشفيه من شغفه العميق، ذكرى رهيبة شغلته عن أمور حياته بضع دقائق، ثمّ عاد إلى حاضره الكئيب

بدأت سيرتها على لسان الكلّ في المزرعة، يلوك الجميع سيرتها وهم يزرعون أو يعملون أو حين يتناولون إفطارهم، لا شيء يشغلهم عن الحديث عنها، ما اجتمع اثنان إلّا وكانت محور الحديث، كانت حديثاً دسماً على موائدهم وفي أعمالهم وقبل نومهم، الكل يريد معرفة أشياء جديدة عنها والجميع يتحدث عن الفتاة الغريبة التي هبطت إلى أرضهم ذات ليلة ربيعية باردة، لا أحد على علم بحكايتها، ومع ذلك بدأت الإشاعات تسري على ألسنتهم كما المياه في نهرٍ لا ينضب، ولم يعرف بعد أحد قصّتها مع مالك الأرض، الكلّ يخشاه ولا أحد لديه الجرأة على التحدّث بأمورٍ تخصّه، بل الأحاديث تخصّها وحدها.

- إنها فتاة بائسة.

- ليست بائسة، تعرف ما تريد، فهي طبعاً ترغب بالسيد الكبير، وإلا فلمَ قدمت إلى هنا.

- يقولون إنّها فاقدة للذاكرة.

صاح الرابع بصوتٍ غليظ:

- إنها حيلة يا رجل، ما الذي أتى بها إلى مكانٍ كهذا بعيد كل البعد عن البيوت السكنية؟

- إذن فما غرضها؟

- لا أحد يعلم.

- ربّما لديها عشيق مغرمٌ بها، هربت وإياه فتخلّى عنها وتخشى العودة بخفي حنين إلى الديار.

كانت أحاديثهم لا تنتهي، تبثّ سموماً وإشاعات لا تنضب، يرغبون بمعرفة ما يجري خلف الكواليس، ليت لديهم من أوقات الفراغ الكثير حتى يراقبوها ويتعرّفوا إليها.

لكنّها كانت منعزلة بأحاديثهم، منكبّة على عمل المنزل وزيارة شجرة ذكريات لم يكن لها فيها يوماً أي ذكرى.

مشاداتها مع هافال لا تنتهي، أحاديثها مع مالك لا تنطفئ، هافال يريدها زوجة سرّ مطيعة، ومالك يريدها شبيهة لزوجة رحلت ولن تعود.

أشرقت الشمس وغربت، أضاء القمر لياليها الحزينة وأفل على ذات الليالي، وحياتها تمشي ببطء شديد، هي تحاول العودة إلى ديارٍ نشأت بها وهو يحاول عدم الذهاب إليها كي لا يقلق زوجته وكي يُسكت الألسنة التي بدأت تبثّ سمومها، ويخشى أن تطاله هذه السموم وتصل إلى مسامع ميديا.

مالك ينتظرها كلّ صباح أمام شجرة البيروفي، يتناولان حديثاً مقتضباً، ثمّ تغادر إلى صومعتها ويبقى هو مستذكراً أيام ولهه بأنثى بقي له الآن فتات من ذكريات يبكيها ويرثيها، يئنّ لشوقه ويذبحه الحنين ولا دواء لمريض شوق فتك به ولا علاج لمرضى الحنين.

وميديا منقسمة بين مرضها الفتاك وأطفالها الأربعة وزوجها الذي تغيّر دون أن تدري السبب، لم تعرف بعد عن هذه الصبيّة شيئاً، إلى الآن تظنّ أن أعباء العمل تثقل عليه، وإلى الآن مازالت تلتمسُ له الأعذار.

كان قد مرّ يومان دون أن يظهر هافال في كوخه الصغير، وبقيت مرام تتجرّع الوحدة واليتم كأنّها منبوذة من قبيلتها، وكأنّه لا أحد يطيق المرور بجوار بابها، جاءها أخيراً تحت مطر مارس الشديد، نزع قبّعته ودلف إلى الداخل، وجدها تنظر إليه بهدوء كأنّها تلبّدت من جرّاء إهماله، ألقى التحيّة عليها وأفرغ ما في يده من أخشاب، جلس القرفصاء ليشعل النار فيستدفأ بها، طال صمتهما وانتظرت أن يبادرها بعناق اعتذار لكنه تجاهلها وكأنها لا مرئيّة.

هي ليست كميديا تتخذ الصمت صلاة سكينة لروحها، بل هي مغرمة بالتفاصيل، تهتم كثيراً بالتفاصيل حتى وإن كانت ترعبها. قالت بعد أن عجزت عن الصبر:

- أين كان غيابك؟

- في العمل.

- وأيّ عملٍ هذا الذي يبعدكَ ليلتين كاملتين؟

- تعوّدي على هذا الأمرِ وإيّاكِ أن تسألي.

اقتربت منه، وجلست القرفصاء، ومدّت يدها إلى يده تلتمسُ منها الدفء، ثمّ قالت:

- حين جلبتني إلى هنا فتحتَ صدري للحياة وكنتَ عادلاً معي، أبعدتني عن قسوة الأيّام، قلتَ لي إنّ الحياة خارج هذا الكوخ لا تطاق، ستكون قاسية وشرسة، لكنّك كنتَ أقسى من الحياة وضربتني في ذات الصدر الذي فتحته، سهم قسوتك اخترق قلبي واستقرّ في أعماقه، ليلتان مضتا وأنا أدمع لقسوة المكان، خريف العمر السابق رافق ذاكرتي من عمرٍ لستُ أذكره إلى ما قبل الحادث، تأتينني كظلالٍ لا واقع فيها.

ابتعدت عنه، كانت يداها باردتين ولم يبقها بجواره كي يدفئها من بردٍ يقرصها، وقفت أمام النافذة تتأمّل القصر بأضوائه الباهرة ثمّ أكملت بهمسٍ وصل إليه حزيناً مليئاً بغصّة الوحدة:

- في ماضيّ البعيد الذي لا أذكره كان لديّ صديقات، ربّما خسرتُ بعضهنّ لكنني متأكدة أنّ لديّ العديد منهنّ، كانت لي العديد من الأخطاء، سقطت وتعثرتُ وأغمضتُ عينيّ كثيراً عن آلامي، فشلتُ ونجحتُ مرّات كثيرة، كانت لي حياة جميلة كباقي الأشخاص، حياةٌ أرفضها أحياناً وأعشقها أحياناً، وفي النهاية كانت لي حياة تخصّني وحدي.

استدارت إليه، وقالت:

- لكن هذه الحياة تستنزف قوّتي وطاقتي، ليست هذه ما أرغبها، لم يعد لدي شغف اتجاه أيّ شيء وكأنّ مشاعري فقدت جزءاً من أحاسيسي، روحي منطفئة وقلبي منكسر، حزينة لأنني في أرضٍ كل من فيها يرفض انتمائي إليها، كلّ من فيها حسبوا أن الله قد أرسل لهم دمية يلهون بها متى أرادوا ذلك ورغبوا، لستُ دميتكَ يا هافال، لستُ كذلك؟

أغمضت عينيها وخبّأت وجهها في يديها وبكت، اقترب منها وضمّها إلى صدره يهدّئها، في حين أكملت وهي تجهش بالبكاء:

- أريد تذكّر كل من هواهم قلبي وأحبّوني كذلك، كلّ من كانوا لي يوماً أصدقاء أوفياء.

صمتت وصمتَ ليستمعا إلى مطر مارس وهو يتساقط كالودق على زجاج النافذة، نظرت إلى عينيه ومدت يدها تحيط وجهه، قالت:

- هل شعرتَ بتخبّطاتي كلّ ساعة، كأنني في متاهة لولبيّة، لمَ تصرّ على الهرب من أمامي، في كلّ لحظةٍ أرتمي في حضنك أشكو إليك الوصب وألماً يطرق رأسي، أقضي أوقاتي هنا في عزلتي وحيدة بينما أنتَ لا تشعر بما أعاني، وصلتُ في غيابك إلى مرحلة الانهيار ولم تفعل شيئاً سوى المجيء وإشعال النيران لتستدفئ دون أن تهتمّ لبرودة يدي وقلبي الذي يحترق من نيران قسوتك دون أن تشعر به.

ابتعدت عنه، وجلست بجوار النيران التي بدأ لهيبها يعلو ويرتفع، ثم قالت بيأسٍ:

- لقد وصلتُ إلى مرحلة الانتظار، انتظارك، انتظار انقضاء أيّامي، انتظار انقضاء صمت اللحظات وضجيج الذكريات، لم أعد أملك ردّ فعل تجاهك ولن أعترض وإن لم تعد، لم أعد أطلب منك شيئاً لأنني متأكّدة أنّك لن تقدر على مدّ يد العونِ لي، وليس بمقدورك تقديم المزيد.

في هذه الليلة نامت على يده تبكي قسوته وهو يهدهدها بكلمات الاعتذار، أقسم لها أغلظ الأيمان أنّه يبحث عن أسرتها، يبحثُ عن ماضيها ولا خيط يدلّه على مكان أهلها، صاحت بأعلى صوتها:

- وكيف سيعثرون عليّ وأنا سجينة هنا.

لن يدعها تفلت منه، لن تتسرّب من بين يديه فهو من وجدها في أرضه، وكلّ ما وجد في أرضه فهو ملكٌ له حتى يظهر مالكه، صمت كعادته حين يحار في الإجابة، وأغمض عينيه ونام قبل أن تشكوه من جديد قسوة الكوخ الجليدي، تريد ذاكرة قديمة والكلّ يشتكي من ذاكرته.

عاد يضيفُ إليها ذاكرة جديدة لا تمتّ لها بصلة، وفي كلّ مرّة يضيف شيئاً جديداً تكثر فيه كذباته الصغيرة، تصرخ في وجهه "أن كفاك عبثاً بذاكرتي" تهرب من عينيه لتنام فيحاصرها بيديه ويضمّها إلى صدره اشتياقاً، يواسيها ويمسّد شعرها القصير، يغنّي لها بصوته الرخيم فتهدأ وتنام.

ما أرفقه في حضوره وكأنّ الحنان ينبع من راحتيه فكأنما لم يعشق سواها، تنسى معه خشونة الكوخ وبؤس الحياة. معه فقط تصبح الدنيا ملوّنة بألوان الطيف، بكلمة منه تنسى أنها تبحث عن ذاكرة عتيقة خانتها وفرّت منها لتبقيها في وهم الذكريات.

قال لها صباحاً بعد أن قبّلها على عتبة الكوخ:

- ارحمي غيابي وارفقي بأيّامي السوداء دونك، فأنا وإن غبتُ ليالي فإن الشوق إليكِ قتّال والحنين إليكِ فتّاك، فارحمي ضعف قلبٍ في هواكِ متيّماً ولا تحمّليني إصراً لا أطيقه، لا تكوني والأيّام على كاهلي المتعب، لا تحمّليني ما لا طاقة لي به، لا تؤاخذي غيابي المتكرر فأنت في البال لا تغادرينه ومسكنكِ في القلب باقٍ لا يزول، اعذريني إن طال الانقطاع واغفري مغيب شمسي في بيتكِ الصغير.

قبّلها مرّة أخرى وذهب كأنّه كان يؤدي موعظة حسنة على عتبة كوخ مهترئة، أقفلت الباب خلفه ووقفت تراقب شروق الشمس من نافذتها الدائرية الصغيرة، لمَ غادرها قبل الشروق وكأنّه أراد أن يشرق في مكانٍ آخر؟ لم تستيقظ العصافير بعد وكان استيقاظه أوّل الأشخاص ليهرب من عالمها إلى عالمٍ آخر، إلى أخرى لم تنم وإنّما بقيت مستيقظة ساهرة الليل بأكمله تنتظر زوجاً وعدها ألا يغيب، وها هو غاب ليلته الثالثة.

بعد كلّ ليلة يقضيها هناك يعود إليها بطعنة أقوى من سابقتها، وفي كلّ مرّة يقدّم لها صناديق كثيرة من اعتذارات وقبلات ثمّ يعود ويقتلها بدمٍ بارد ثم يعتذر، ولكن هذه المرة كان أشدّ ألماً، فانتابتها رغبة عارمة في فقدان ذكرياتها الحلوة معه لتقتله بقلبها قبل أن

يقتلها، تريد محوه من ذاكرتها ليصبح في طيّ النسيان، ستضحّي بكلّ أيامها الحلوة معه مقابل أن تنسى أنه كان لها يوماً رفيقاً وكانت له صديقة.

الليلة الثالثة كانت أقسى من تلك الليلتين، هذه الليلة شعرت أن هناك أخرى تنام معانقة إياه ويتبادلان قبلات الأحباب، انتفضت عند هذا التفكير كأنّها تشاهد فعلاً ما يحصل هناك، انسكبت دمعة من عينيها مسحتها على الفور ونهضت تحثّ الخطأ إلى الباب متعبة مرهقة، فجأة فُتح الباب ليدخل، حدّق بها فوجدها شاحبة اللون وقد أصابها من الإعياء ما أصابها، كأنّ بها ألف علّة وهو أكبر العلل، علّتها الوحيدة لا شفاء منها ولا دواء.

ترنّحت في وقفتها، أمسكها من يدها وسحبها إلى السرير، أجلسها بهدوء، سحبت يدها من يده، بدد الصمت لأنّه يدرك أنّها ماهرة فيه، ولن تفتح فمها بكلمة:

- أحزينة أنتِ؟

نظرت إليه دهشةً بعينين منفتحتين، ثم طأطأت رأسها، وهمست:

- ولمَ الحزن؟

- لأنني بتُّ ليلتي خارج القصر.

- وهل هذا يحزن؟

- أعتقد ذلك، على الأقل إلى واحدة مثلك تخشى الفراق.

- وهل الفراق هيّن؟

- لم يكن الفراق هيّناً يوماً، أقسمتُ لكِ آلاف المرّات أن لا فرقة بيننا ستحدث.

- والشقاق الذي بيننا.

- ارحميني يا ميديا، فعملي مرهقٌ هذي الأيّام. نحن في فصل الربيع وتعرفين أن العمل فيه كثيف.

- ولكن هذا الفصل يعودنا كلّ عام، ولم تطل فيه الغياب يوماً.

- لقد اتسعت رقعة المزرعة على ضفاف النهر.

- وما في ذلك؟

- اتسعت أعمالي.

- لك أيّامك ولي آلامي، فاتركني وامض إلى عملك.

حاولَ تقبيل رأسها فرفضت، ابتعد عنها ووقف مقابل النافذة يراقب كوخه البعيد:

- قل لي متى ستكون الليلة الرابعة؟

نظر إليها فاغراً فاه:

- آه.. ماذا؟ ماذا تقصدين؟

- الليلة الرابعة التي ستقضيها في عملك قل لي متى ستكون كي لا أنتظرك، هل تدرك يا عزيزي أنني في انتظارك تتعطّل جميع الساعات ويوقف الليل زحفه لتتراءى لي المزرعة بظلامها المدلهمّ كأنّها أشباح تسيطر على عقلي، فتزرع الوحدة في ثنايا غرفتي؟

- سأعدك....

قاطعته:

- لا تعد بأشياء ليس بمقدورك فعلها، فقط أخبرني قبل ليلة لأنام قريرة العين فلا يزورني شوق لليلٍ سهرناه معاً ذات ليلة صيفيّة في حديقة قصرنا، لم يكن حنيني إلى ليلة واحدة بل كانت إلى ليالٍ كثيرةٍ تقرض أنحاء جسدي فأشعر بأنني لا أستطيع المكوث ولا الجلوس ولا النوم ولا الوقوف، ولا سبيل لعلاج الشوق سوى من تشتاقه الأيام.

أدارات له ظهرها، بدّل ملابسه وخرج إلى أطفاله يداعبهم ويطمئنّ على شؤونهم يفكّر بالاثنتين، ماذا لو عرفت كلّ واحدة منهما عن الأخرى؟ كيف ستتصرّفان؟ هل ستقضي

ميديا بموجب مغادرة رنيم المزرعة؟ وهل ستبكي رنيم لأنّه أخفى عنها أمر زواجه وأطفاله؟

في لحظة نزوة وانتشاء برجولته جلب لنفسه مصيبة أصابت عقر داره ويخشى أن يمتدّ الأمر على جسد ميديا الضعيف ليرديها، فماذا يفعل وهو لا يستطيع تركهما، يريدهما معاً، تلك التي تعيده إلى شبابه وهذه زوجة العمر التي خزّن معها أجمل الذكريات والأحلام، كما أنه لا يريد أن يتحدث عنه الناس بأنه هجر زوجته بعد إصابتها بمرضها المزمن، سيكون وفياً لها حتى موتها وتبقى مرام بعيدة عن أعين الجميع.

جلس مالك بجوار أم حسام وهي غارقة في تيه ذكرياتها بمنزلٍ كانت يوماً سيّدته، كانا يتقاسمان حزناً واحداً، لذلك طالما عدّته ابنها ولطالما عدّها والدته، أمسك بيدها وسحبها إلى الحديقة، نزلت الدرج ببطء شديد تتوكّأ كتفه، صامتة تجري خلفه مطمئنة البال، جلسا على مقعدٍ في الحديقة ووضع رأسهُ في حجرها كطفلٍ صغيرٍ توّاق للحنان، مسّدت شعر رأسه. قال:

- افتقدها كثيراً، فعقلي لم يستوعب غيابها بعد. جرّبتُ شتّى أنواع النسيان ولم أفلح، اعتادت عليّ مضادات القلق واضطرابات النوم، تمنيّتُ فقدان جزء كبير من ذاكرتي ولكنّها كانت معلّقة بحبل في منتصف رأسي فلا تبرح مكانها، حاولتُ حذفَ محادثاتنا وصورنا ولكني شعرتُ بشللٍ يغزو أطرافي إن أكملتُ الحذف، صوتها يا أمي مازلتُ أسمعه بوضوحٍ ينتقل بخفّة بين دهاليز ذاكرتي كعارفٍ في الطريق فلا يتوه، لم يكن الفراق يوماً هيّناً، كان شاقاً عليّ وصعباً على روحي.

أسند رأسه على مسند المقعد، وشبك أصابعه، ثمّ أردف:

- لمَ لا أستطيع إلى الآن إخراجها من مخيّلتي، أهربُ منها إلى وهم ابتدعته فأجدها متربّعة في داخلي على نحو أعمق من الأوّل، ومازالت ساكنة قلبي وأخشى أن تسكنه غيرها.

تنهّد بأسى وحزن، فرك يديه ببعضهما ودمعاته تتراقص على وجنتيه وهي تنظر إلى الآفاق ترسم صورة لابنتها مع حبّها الأول والأخير، تبتسم لهذه الذكرى تارة وتارة تدمع عيناها لكلامه عنها، مازالت تعيش وهم الذكريات، تقتاتُ على سرابٍ صنعته بنفسها وتتغذّى عليه، بينما يقتلها ببطء دون أن يحييها.

جلس معها ساعات عديدة يشكو وتستمع، حتى أوصلها إلى غرفتها، وعاد قافلاً بسيّارته إلى المزرعة.

اقترب من الكوخ حاول طرق بابه، ولكنه خشي على سيرتها من ألسنٍ لن ترحمها ولاسيما بعد ما سمع المزارعين يتحدّثون عنها بأشياء لا تمتّ لها بصلة.

مشى أمام الكوخ يركل حصى الطريق، ساعة كاملة وهو واقف يفكّر بعمره الذي توقّف ولا جديد في أيّامه سوى عمل المزرعة الروتيني، خرجت مرام من الكوخ فوجدته واقفاً قبالته، دهشت بوقفته أمام كوخها كأنّه ينتظرها، تأمّلها ثواني، كانت تحمل في يدها تفاحة، قال مبتسماً:

- لقد تأخرتِ.

- هل كنتَ في انتظاري؟

أومأ برأسه صامتاً.

- لمَ لمْ تطرق الباب؟

- لا أحبّذ ذلك، سيتساءل المزارعون كثيراً.

أومأت برأسها في تفهّم، ثم اقتربت منه وقدّمت له قسماً من تفاحتها، تناولها منها وأجابها دون أن ينتبه لكلمته:

- سوباس.

نظرتْ إليه في ذهول، هذه أوّل مرّة يحدّثها بلغته يوماً، هافال فعلها قبلاً. اعتذر منها وقال:

- شكراً.

- أنا لا أفهمها، ولكني سمعتك وهافال تتحدّثان بها في أول لقاء لنا، كنتُ حينها شديدة الغباء.

- اعتقدنا حينها أنك قريبة من الديار، ولكن حين استعصت عليكِ اللغة عرفنا أنكِ غريبةً عن المكان.
- هل الجميع هنا مثلكما؟
- أجل.
- ورنيم؟
- رنيم كانت من حلب.
- آسفة لتدخلي، ولن أسألك عنها مرّة ثانية.
- لا عليكِ.
- إذن.. أنا لا أنتمي لهذا المكان.

نظر إليها، ومن ثم أطرقَ برأسه إلى الأرض.

- إلى أيّ مكانٍ أنتمي؟ فأنا لا أستطيع معرفة الطريق الذي يصل إلى مكان نشأتي، القدر برعَ في لعبته ولن أصل إلى هناك حتّى تحلّ معجزته، كل شخص ها هنا إن سألته أن يصفَ لي طريق بيته فلن يعجزه الأمر، وسيصف لي رحلة عودته كاملة، إلا أنا سأبقى تائهة في مدينة غريبة عني لا أعرف

طرقها وكيف السبيل إلى تخطّي دروبها، إن سألني أحدهم عن دربي فسأصمت، حتى طريق هذا الكوخ سيعجز عليّ وصف الطريق، لأن لا نقطة أبتدئ بها وأنا لا أغادره بتاتاً.

تركها تتحدّث، وقطف القليل من أوراق شجرة البيروفي وقدّمها إليها، ضحكت وأول مرّة يرى ضحكتها، قالت:

- سوباس.

ابتسم لذكائها وسرعتها في الحفظ ولكن حين أخذت الأوراق من يده وقرّبتها من أنفها هاجمها الصداع النصفي ذاته كذئب أخرق، وذات اليد البيضاء مرّت كطيفٍ أمام ناظريها، رأتها تقترب منها وتمدّ لها بأوراق الشجرة ذاتها، أمسكت رأسها بكلتا يديها وصرخت وهربت إلى داخل الكوخ، حاولَ اللحاق بها لكنّها كانت قد أغلقت بابها، ندم على فعلته ولكن رنيمه كانت تحبّ أوراق البيروفي، فما الذي يصيب هذه الفتاة حين تشتمّ أوراقها.

على السرير المهترئ كانت مرام جالسة ممسكة برأسها باكية، غادرها الطيف دون أن تُمسك بخيطٍ واحد فتشوّشت الرؤية أكثر وغاب الظلّ وأتت ظلال حامت حولها، وعبثت بذاكرتها ذكريات مضطربة، يده ضخمة كيدِ مالك، نهضت من سريرها بألمها

واقتربت من الباب، هل اليد التي تراها لمالك؟ أسندت رأسها على الباب وبكت، هل يعقل أن تكون رنيمه؟ وإلا فلمَ اهتمّ بها كثيراً. بينها وبين مالك ورنيم الذكريات ذاتها.

ظلّت الأطياف تطرقُ ذاكرتها كصبية صغار وتهرب ما إن تحاول فتح باب الذاكرة، لم تلمس شيئاً من هذه الذكرى سوى وخزة قلب جعلتها تجثو على ركبتيها، تلمّست قلبها فشعرت به خاوياً على عروشه، يؤلمها فؤادها في كلّ مرّة تطالعها هذه الذكرى وكأنّها كانت ذكرى قاسية ستدميها إن حاولت استعادتها. مسحت عبراتها وخرجت من الكوخ، وجدتهُ مازال جالساً على الصخرة يراقب باب الكوخ وما إن فتحته حتى انتفض واقترب منها:

- أأنتِ بخير؟
- أجل.
- أعتذر إليكِ.
- لا عليك، ولكن أليس مصادفة أن تجمعنا ذكرى كهذه؟
- ما قصدك؟

- أنت ورنيم وأنا وشخص لا أعرفه، قلبي يا مالك يؤلمني من فراغ شخصٍ كان مسكنه.

- ربّما هي مصادفة من القدر.

- في صراعي مع هذه الذكريات أحاول الخروج بأقلّ الخسائر وبأكثر الذكريات، أتمنى أن أبقى بعقلي ولا أصل إلى الجنون. أخشى أن تصرعني هذه الظلال وكذلك أخشى أن يموت فؤادي ها هنا، ومع أنني أحببتُ أشجارها ورائحة الطبيعة هنا، ومع أنني لا أغادر المكان قط، إلا أنه هنا اغتُصب قلبي، وهذا كثيرٌ بحقّ قلبٍ ربّما يكون متيّماً بآخر.

- من اغتصب قلبك؟

أشاحت بوجهها، وأكملت:

- في صراعي مع الأطياف أفقد الكثير من الذكريات إذ تتسلل عبر شقوق الذاكرة.

وقفَ ورائها، وأدارها إليه:

- أخبريني من اغتصب قلبك؟

- مجرّد هلاوس، لا تلقي بالاً لها.

- هل فعلها عمي؟

- وهل أراه ليفعلها؟

- إذن من فعلها؟

كان يحدّق بها غضباً وكانت تحدّق به أملاً، هو يحاول معرفة الحقيقة من خلال عينيها وهي تحاول معرفة حقيقة عشقه وغرامه من خلال عينيهِ، والتقت جبال عفرين بحبال قاسيون ليصرف عينيه أولاً وزفر ثمّ ابتعدَ، تنهّدت وابتعدت عنه، ناداها، نظرت إليه:

- لا تحاولي استعادة ما فات، ربّما كانت ذكرياتكِ أشدّ قسوة من حياتك هذه، في لحظةٍ ما ستعود إليكِ دون المشقّة في الحصول عليها، حينها ستذرفين العبرات وتندمين على لحظات عودتها إليكِ، ماذا لو كنتِ فتاة يتيمة؟ لديكِ زوجة أب فقيرة معدمة؟

- وهل تعرف حياتي لتحكم بأحكامكَ هذه؟

- لا أعرفها، ولكن أحياناً الحياة تهدينا فرصةً جيّدة للهروب من واقعٍ لا نرغبه.

- وهل تمقتُ واقعك؟

- كثيراً.

اقتربت منه وقالت:

- مالك من أنت؟

- ألا تعرفين؟

- أشعر بأنّك صديقٍ قديم لي، أنت الوحيد الذي يحاول التسرية عني في حين هناك من ينشغلون دائماً عنّي.

- ربّما التقينا ذات ليلة في نزهة قصيرة.

- وهل كنّا عاشقين؟

نظر إليها حائراً في الإجابة، لا يمكن أن يمنحها أملاً أو وعداً لا يستطيع تنفيذه.

- جمعنا حلم واحد، أنتِ وجدتِ فيَّ من تبحثين عنه، وأنا وجدتُ فيكِ امرأة ما عادت تأتي إلى ذاكرتي.

- شكراً يا مالك.

- على ماذا؟

- على هذه الذكريات التي اختزنها عقلي ولن تروى لإنسان، هناك ذكريات يصعب علينا أحياناً الاعتراف بها حتّى لأصدقائنا، لا نرددها لأنفسنا، تبقى في خزانة ذاكرة مقفلة، وهناك ذكريات نرغب في استعادتها لأننا نحيا بها، أشكرك مرّة أخرى لأنّك الآن جزء من ذاكرتي.

- ولكن ستنسينها حين تعود إليكِ ذاكرتكِ، هذه ذاكرة مؤقّتة.

- لك حق.. ولذلك أنتَ تضع الحدود بيننا، أنا لا أرغب في أن تهيم بي، ولكن أحتاجك معي لنفكّر معاً، لا تترك يدي كي لا أغرق في قاع وحدتي مع أطياف غير مكتملة في مواجهة ذكرياتٍ وآلامٍ صغيرة النمو تداعب أوتار قلبي وتضخّ الدم في شرايين رأسي، وتهرب بعيداً فلا التقطها.

- اعذريني يا رنيم، فأنا لا أستطيع الاقتراب لأنني كلّما أبحرتُ فوقَ أمواج الحياة لا تلقي الأمواج بي إلّا على شاطئ من أحببت.

- أنا ملكٌ لآخر، أنا لا أقول لك هذا كي تُغرم بي ولكن لنبقى صديقين، ربّما ذات ليلة وبمصادفة من القدر نجد نفسينا أننا كنّا في غياهب الزمان صديقين مقرّبين.

ابتسم لها وأطرقَ برأسه يمنحها سعادة ارتسمت على محياها، هي تتمنّى ذلك فعلاً ولكنّ لم يغب عن ذاكرته أنها لم تكن حاضرة في حياته ولم يكن قد التقاها يوماً، لكنّ القدر حملها إلى أرضه كي ينعم بشبيهة زوجته لذلك سيبقى لها نعم الصديق، وسيتحرّى عنها أكثر ليعرف من تقصد بأنّها ملكٌ لآخر؟ هل فعلها عمّه؟

اجتمعت المزارعات في ليل مارس الأخير تحت ضوء القمر وهنّ يتحدّثن عنها، كانت حديثاً شهيّاً للجميع، قالت إحداهن وهي تقشّر برتقالة صغيرة:

- أنا لم أرها أبداً

- لم يرها أحد، فهي لا تخرج إلا لماماً.

قالت الثالثة وقد كتّفت يديها:

- أخشى على زوجي منها، لأنه دائم الحديث عنها.

- لكِ حق يا رقيّة، فهي نذير شؤم.

صرخت أصغرهن وكانت فتاة شابة مرحة:

- لم لا نطلب من سيّد الأرضِ طردها؟

- أأنت مختلّة؟ طبعاً هو عالم بكل ما يحصل في أرضه وإلا لما سكت عليها.

أجابتها أخرى بنبرة متعالية"

- لو أراد طردها لفعل ذلك.

باتت في نظرهنّ صخرة تسدّ أبوابهنّ، الكلّ يخشين على أزواجهنّ منها بما أنّها تقطن لحدها، وعلى ذلك الجميع يرغبن في التعرّف إليها ليعرفن حكايتها وليروينها للجميع.

هذه القرية التي تجمع المئات من المزارعين والمزارعات، بات لا شيء يحكى في مجتمعهم سوى تلك الغريبة التي جاءت إلى المزرعة تحت ستار ليل أدهم، لا تقترب من أحد ولا أحد يقترب منها، لا واحدة منهنّ تذهب إليها لتسمعها وتعرف قصّتها، الكلّ يتحدّث وراء ظهرها، وهافال يستمع ويغضّ الطرف عن باقي الأحاديث ويكمل سيره إلى قصره، ومالك يستمع ويحاول الدفاع عنها ولكنّه يخشى أن يُتهم بعشقه السريّ، الجميع يستمع ولا أحد يدافع عنها، يأكلون لحمها كما يشاؤون بإشاعات غريبة ويصدّقونها ثمّ يستغفرون الله على تفوّههم بأمورٍ لا تخصّهم وتبقى رغبتهم ثابتة في معرفة أصل الحكاية.

- لمَ لا نذهب إليها جميعاً؟

هكذا صرخت إحداهنّ اتقاءً للمشاكل.

- وماذا نقول لها؟

- نريد التعرّف إليها والجلوس معها لنتحادث ونعرف كلّ أسرارها، بدلاً من أحاديث لا تسمن ولا تغني من جوع، يا صديقاتي هي أنثى مثلنا، لن تغلق بابها في وجوهنا.

جلست بجانبها تلك الصغيرة، وقالت:

- أحسنتِ فتلك أفضل الحلول، بدلاً من التحدّث عنها فلنتحدّث إليها.
- ولكن اليوم تأخّر الوقت.
- غداً بعد أن ننهي أعمالنا، نخرج لزيارتها.

رحّبت المزارعات بالفكرة وأخبرن رجالهنّ، لاقت الفكرة استحساناً لدى البعض ورّحبوا بها ودعمن نساءهن في الذهاب إليها لأنّ الفضول باتَ عادة للجميع، وهناك من اتخذ موقفاً محايداً لتغلق تلك الصفحة للأبد. لا يهمّم معرفة من تكون، أما الصنف الثالث فقد كان الأكثر همجيّة بحقّها، رفضوا الفكرة رفضاً قاطعاً واتهموا تلك الدخيلة بأنها مومس. فلا تؤتمن من تركت بيوت المزرعة قاطبة واتخذت من كوخٍ قديم يبعد عن البيوت جميعها مسكناً لها، لا تؤتمن وإن كانت ملاكاً بهيئة بشر، هي بالطبع تغزل سراً لا أحد يعرفه ولن تعرفه سواها، لذلك تباينت الآراء ولكلّ واحد رأي يخالف الآخر،

أول مرّة تنقسم المزرعة إلى صفوف، الأول محايد ولا يهمّه سوى لقمة العيش، والثاني يدافع عن عرضها وشرفها بأنهم ما رأوا منها شرّاً قط، والثالث هو من كان يبثّ الشائعات بحقّها ويتحدّث بأشياء لا تمتّ لها بصلة.

اقتربت من الشجرة، ونظرت إلى الحرفين بتمعّن وتأمّل، وجاءها ظلٌّ شاحب لذكرى جديدة، ذات اليد ترسم هذين الحرفين، أمسكت برأسها وأكدت شكوكها في كونها تعرف مالكاً منذ القدم، كانت ثمّة كلمة كرديّة قد كُتبت أسفل الحرفين، عادت الذكرى تطفو ولكن الصداع هاجمها كعادته عند كلّ ذكرى، حاولت تجاهله لعلّه يرحل ولكنّه تشبّث برأسها، وكان عنيداً بحقّ، فآلمها ولم يرح أعصابها، أمسكت برأسها وجلست أسفل الشجرة.

كان يراقبها، يتأمّل ملامح الألم المرتسمة على وجهها، لكنّه ما عاد يحتمل أكثر من ذلك، اقترب منها وأمسك برأسها يمسّده، التفتت فجأة فلمحتهُ، هدأت أنفاسها الثائرة وودّت لو ترتمي في حضنه لكنّها امرأة لا تخون، مسحت عبراتها وجلسا معاً تحت فيء الشجرة، كسر الصمت حين سألها:

- ماذا تذكّرتِ؟
- أليسَ غريباً أن تكون لنا ذكرياتٌ مشتركة ها هنا.
- ليس لنا هنا أيّ ذكريات.
- لمَ؟

- لأنّكِ جديدة على هذا المكان.

- رأيتُ ظلّاً يرسم ذات الحرفين على جذع شجرة كهذه.

- ربّما في بقعة ما من العالم قد فعلها أحدهم من أجلك.

- ألم تخبرني حين وفدتُ إلى هنا بأنني زوجتك رنيم؟

- مجرّد هلاوس استيقظتُ منها، لا تعيريها أيّ انتباه.

- ولماذا لا تزال تنادينني بالاسم ذاته؟

- وهل أعرف لكِ اسماً غيره؟

صمتت وهيّ تشكّ في صدقِ أقواله، لا يعقل أن تأتيها ذكرى مماثلة لذكرياته، لا يعقل أن تكون مصادفات القدر بهذه الواقعية.

- أتعرف أن هذه الذكريات المبهمة تشبه سهاماً يرميها صيّاد محترف، يستمرّ عقلي في الركض ولا أعرف أن السهم يصيب القلب فيجرحه، في كل ذكرى أشعر بقلبي ينادي أحدهم كأنّه الحنين إلى شخصٍ لا أذكره.

صمتت ثم أردفت بابتسامة صغيرة:

- ما تعني الكلمة التي كُتبت أسفل الحرفين؟
- أحبّك.
- اقرأها لي.
- حه زد ليه أكم.
- سأتعلّمها منك ذات نهار.
- لا داعي إلى ذلك، ها نحن نكلّمك بالعربية، ابقي بعيداً عنها تسلمين.

نظرت إليه بحيرةٍ من جوابه المبطّن، ثمّ وقفت وألقت تحيّة الوداع، وغادرته إلى كوخها وما إن ولجت كوخها وجلست على السرير مفكّرة بأحاجي مالك الغامضة، متأمّلة غرابة أحاديثه حتى طرق بابها طرقات سريعة.

فتحت بابها فوجدت خمسة من النسوة أمام الباب يسألنها الدخول بلغتهن، وحين أجابت بعدم فهمها طلبن منها الطلب ذاته بالعربية، رحّبت بهن وأدخلتهن إلى الكوخ، وقفن ينظرن إلى أثاث البيت المعدم، قدّمت الكراسي فجلسن يتأمّلنها ويحدّقن بها، بددت الصمت أكبرهن لتسألها عن أحوالها هنا وتعرّف بنفسها وبصديقاتها، وبعد انتهائها لم تطق النسوة صبراً، وكان الفضول يقتلهن، فسألتها أكثرهنّ حشريّة:

- أخبرينا عن روايتك، فنحن إلى الآن لم يصل آذاننا سوى أحاديث عابرة؟

روت لهن ما طلب منها هافال أن ترويه فحسب. سألتها أكثرهن بدانة:

- ولمَ أنتِ منعزلة هكذا؟ تعالي وشاركينا العمل فحتماً ستسعدين بصحبتنا، بدلاً من جلوسك هنا هكذا دون عمل.

- سأفكّر بالأمر.

- لا داعي إلى تفكير يطول ولا يسفر عن شيء، نحن جميعاً نعمل في القسم الشرقي مع جميع العاملات، وفي القسم الغربي يعمل المزارعون، هنا العمل مريح نوعاً ما.

طالت أحاديثهنّ وأشبعن فضولهن، حكين لها حكاياتٍ كثيرة عن مالك المكان وزوجته، عنهنّ وعن أزواجهنّ، وتمادين في الحديث عن النسوة الغائبات، أخبرنها بالكثير وهي تستمع فرحة لأنها لاقت رفيقات يشاركنها الهمّ والغم.

شكرت لهنّ مجيئهن وهي تودّعهنّ على عتبة الباب فيعدونها بتكرار الزيارة، ويطلبن منها أن تزورهن لتأنس بهن ويأنسن بها، الآن أصبح لديها صديقات هنا يأتينها في أي وقتٍ ليسألنها عن أحوالها، هي الآن سعيدة بذلك فلم تعد وحيدة.

رمت نفسها على السرير تستعيد عباراتهن التي غلّفنها بالمحبّة ورأتها تنبض من أعينهن النقيّة، كانت تريد الفرار إلى مالك لتخبره عن سعادتها بهذا الحدث العظيم لكنّها خشيت أن تعاودها ذكرياتها، معه تستعيد ذكرياتها الأكثر شراسة فحسب، فيما تنام نومة خالدة مع هافال.

دقّت الساعة معلنة انتصاف ليلٍ أسود حالك الظلمة، وهي مازالت جالسة تقضم أظافرها العشرة وتفكّر بكلّ شيء.

تلك الساعة الهرمة مازالت تدقّ في مواعيد خاطئة، فهي تختلف عن توقيت الساعات جميعها، مازالت تؤخّر الوقت كعادتها والعنكبوت بين عقاربها ينسج بيته على مهل، وفي كلّ مرّة يخرب عقرب الدقائق بيته يعيد غزله من جديد، فلا هو يملّ ولا العقرب يعتذر، وكأنّ العنكبوت قد تعود على الهدم والبناء.

الساعة الثانية صباحاً، الآن فتح هافال باب الكوخ ودلف منه، ظلت تنظر إليه كأنّه غريب عنها، لم تقترب منه ولم تعرف ما يحدث بداخلها من مشاعر متناقضة، فوضى عارمة تجتاحها وخليط من المشاعر يهاجمها. جلس بجوارها وعانقها.

- اشتقت إليك.

- أتكفيكَ هذه الأيام لتعلن شوقك وتأتي؟

- اعذريني وسامحيني يا صغيرتي.

- إلى متى؟

ابتعد عنها وتمشّى في أرجاء الكوخ يفكّر، ثمّ استدار إليها:

- لا أعرف.. صدّقيني لا أعرف.

- يرهقني أنني مليئة بأشياء لا أستطيع نطقها، أجمع عبارات كثيرة في غيابك، عبارات لوم وتقريع بل عتاب، لكن حين أراكَ تهرول الكلماتِ منّي ولا أجد إلا الصمت تعبيراً عما يعتمر قلبي، لا شيء سيتغيّر، إن عاتبتُ فلن تبقى هنا ولن نعود مرّة أخرى.

- صغيرتي ابتهجي أرجوكِ، فالهم في قلبي قد اتسع كاتساع المدى.

- وهل أنا السبب؟

عاد وجلس بجوارها، طوّقها بيديه الاثنتين وقال:

- أنتِ معصية لذيذة، لا طاقة لي بتركها، وزرٌ كلّما تبتُ وأقلعتُ عنه كلّما أتيته مطالباً بالمزيد، لا أستطيع الابتعاد.

- ولا تستطيع الاقتراب.

- الأيّام القادمة ستكون أفضل لكلينا، ثقي بي، أنا أحميكِ الآن من خطرٍ يحدق بكِ إن عرفكِ الجميع لا أستطيع التخلّي عنكِ، فأنتِ أمانة في عنقي.

ابتعدت عنه ووقفت قبالة النافذة تستطلع أضواء القصر الصاخبة، ثم قالت له بارتباك وهي تتحاشى نظراته:

- زارتني نسوة من المزارعات اليوم.

هبّ واقفاً ورائها.

- لمَ؟

استدارت إليه، وأجابته:

- وهل نسأل الصيف لمَ زارنا؟

- أقصد ما الغاية؟

- يردن استطلاع الأمر عني، ألا تدري بأنني الآن معضلة المزرعة، فالكل يتساءل عن هويّتي.

لمحت الغضب في عينيه، فصمتت، وحين طال الصمت كثيراً، قالت:

- طلبن مني الخروج معهن إلى العمل.

هدر بها فأفزعها:

- لا.

- لمَ؟ أليس أفضل من بقائي هنا وحدي، ماذا تعرف عن وحدتي؟ ألمي الذي لا يصلك ينخر قلبي كل مساء، كلّ ليلة أمضيها وحيدة تزورني الدموع وظلالٌ من الذكريات وأطياف لا أتبيّنها، يزورني الخوف واليأس والكآبة ولا تزورني أنتَ، أنت تعرف أنني أخشى الظلام أخبرتكَ ذلك قبلاً، ومع ذلك تتركني في ظلمة الليل الأدهم أتجرّع كأس الخيبة فيما لا تفكّر سوى بنفسك، لمَ لا تخبرهم من تكون؟ لمَ لا تخبرني بذلك؟

- اصمتي.. ويحك يا امرأة! مازلتِ ثرثارة تكثرين من الشكوى.

نظرت إليه بخيبة أمل كأنّ خذلان العالم بأكمله قد وقع في قلبها، ابتعدت متألّمة عنه واقترب بدوره منها وعانقها كعادته حين يقسو عليها، أعطته ما رغب به بخيبة أملٍ جعلتها أكثر صمتاً ومع ذلك تأمّلت أن يبقى الليلة عندها ولكنّه ارتدى ثيابه وغادرها بعد أن ألقى أوامره بألا تغادر كوخها ولتحترس من نساء القرية.

كيف يقسو دقائق ويحنّ دقائق؟ يأتيها بحنان الكون ويغادرها بقسوة وجفاء، يبتعد عنها كأنّه لا يعرفها وما زارها يوماً، ثم يقترب منها كأنّه عاشق مغرم ما ابتعد عنها يوماً.

في كلّ ليلة تحمل ألمها وخيبتها وتسافر بخيالها إلى ذاك القصر المضيء تحسدهم على سعادتهم، ثمّ ينخرها الوجع الأخرس في فؤادها فتستذكر مالكاً ومعاملته الأخيرة التي كانت كأنّه خشي أن تعرف شيئاً لا يحقّ لها معرفته.

لم تنم بل بقيت مستيقظة تعدّ خيباتها وفي كلّ خيبة أمل تلمح قسوته، هذا الربيع كئيب عندها وإبريل لن يرحمها البتّة، فمن أول ليلة له يعاندها ويرسل إليها كميّة من الألم حتى ارتسمت الهالات السوداء أسفل جفنيها، اغتسلت وتناولت فطورها، رافضة الخروج، رافضة البقاء، لا تعرف ما تريد إذ تشعر بأن بداخلها أنثى ترغب بالتمرّد لكنّها تخشى الندم فيما بعد، تخشى أن تفترق عن هذا المكان ولا يبقى مكان يؤويها.

وهناك في ذاك القصر لم تكن الأمور جيدة، ففي الليلة الرابعة استطاع أن يقسمها إلى قسمين، وبعد أن نامت ميديا هرب إلى تلك، لكنّه إذ عاد وجدها جالسة على سريرها، هتف في سرّه (تباً لها.. لا تريح ولا تستريح.. ما أنا فاعل بها؟) نظرت إليه وابتسمت في تهكّم واضح:

- أشكرك لأنّك قضيتَ جزءاً من ليلتكَ هنا.

- كان هنالك عملٌ ضروري.

- وما هذا العمل؟

- ياه يا ميديا! أنتِ تكثرين من الشكوك والأسئلة، اتركي لي مساحة من الحريّة أستنشق بها الهواء، ولا تحمّليني ما لا طاقة لي به.

أوّل مرّة يصرخ بوجهها، أجفلت من صراخه وصمتت محمّلة بوزرِ حبٍ لا ترغب التوبة في عنه، غادرها ليستحمّ وتركها في ذهولها تعدّ على أصابعها الليالي، فكم ليلة بقيت ويغادرها إلى الأبد وربّما تغادر قبله، لن يطول بقاؤها في حياته فليصبر قليلاً، لا تريده أن يكون السمّ الذي يقتلها فلطالما كان ترياق حياتها، منذ ذلك الخذلان وقبل خمسة أعوام حين عشق غيرها وهي وكانت تخشى أن يعاود الكرّة، لذلك باتت تحاصره

بالشكوك والأسئلة، ترتاب في أيّ فعلٍ يصدر عنه، تتوهم أموراً مستحيلة الحدوث، تخشى ابتعاده في لحظة غادرة رغم أنّه أقسم الوعد وقطع العهد ألا يعاود الكرّة، لكنها تخاف أن يخلف وعده فيخدعها ويخونها ويرحل عنها.

كانت تفكّر بطريقة تعرف بها عنه كل شيء، غياباته وأعذاره، لكن العيون في هذه المزرعة كثيرة والمتربّصون بها لا حصر لهم، وتخشى ن طلبت من أحدهم مراقبته أن ينشر الخبر بين الجميع أو يخبره، لا أسرار هنا تقال ولا شيء هنا يمرّ دون أن معرفته، ظلّت تراودها أفكارها المشتتة إلى حين خروجه وهو يدندن بأغنية شعبية، حاصرته بنظراتها، تريد سبر أغواره واستكشاف ما لم يخبرها عنه، عيناه ربّما تنطقان بما يخفيه لكنّه بارع في المراوغة يستطيع إخفاء ما في قلبه عن تعابير وجهه.

اقترب منها وعانقها هامساً بأذنها:

- لكم اشتقتُ لتناول الفطور معاً، هيّا بنا إلى الأسفل، الأطفال اشتاقوا أيضاً لجمعتنا معاً على مائدة واحدة.

- معك حقّ.. ربّما لا تتكرر.

- لا تكوني متشائمة، ها أنتِ تتحسنين مع العلاج.

- أتأمل ذلك؟

- كلّنا نأمل ذلك؟

قبّلها وغادر معها الغرفة وهي تتكأ عليه.

تجمهر المزارعون حول صديقهم روني ليخبرهم بما حكته زوجته من حكايات جديدة صدرت عن صاحبة الكوخ، كل الجميع بين مؤيّدٍ ومعارضٍ لحكاياتها، بعضهم رآها منطقيّة وواقعية وبذلك أُسكتت أفواههم وبعضهم رآها رواية ملفّقة تدّعي فيها الطهر والعفاف وتمارس رزيلتها في منتصف الليل، حتماً لن تخبرهم بحكايتها الحقيقية.

تفرّق الجميع كلّ إلى أعمالهم وكلّ واحد يخبر الآخر بما سمعه حتى وصلت الحكاية إلى المئات، وهناك في الجانب الشرقي كانت تقف رقيّة المرأة البدينة زوجة روني تحدّث النسوة بما سمعته من صاحبة العلاقة.

- ولكننا نرفض وجودها بيننا.

- لا حاجة لنا بصداقتها.

- فلتغرب عن وجهنا.

- إن رآها أحد رجالنا فلن يكون الأمر سهلاً علينا.

وقفت واحدة أمام رقيّة، وسألتها:

- ولمَ اختارت الكوخ مسكناً على المبيت بجوارنا؟

أجابتها الأخيرة:

- لا أعرف ولكن لنساعدها على الانضمام إلينا.
- هذا إن كانت نيّتها سليمة.

كان هافال كعادته يستمع ويغضّ الطرف، يمرّ بجوارهنّ فيسكتن قليلاً ريثما يرحل ويتابعن الحديث بشوقٍ عارم كأنّها حكاية تدر عليهنّ أرباحاً خيالية.

ومالك يأتي ليستمع ويرحل، يتمنّى الدفاع عنها ولكن كعادته يجبن فلا يستطيع إلا أن يصمت ويمضي في سبيله.

وهي في عزلتها تنتظر أن تعود النسوة إلى زيارتها، صار لديها صديقات لكن هافال يرفضهن.

فتحت النافذة لتتأمّل أضواء القصر وفي قلبها لوعة من أسى، تنتظر من لا يأتي، وستمرّ الساعة كعادتها وهي تهدم بيت العنكبوت فلا يأتي، إلى متى سيظلّ هكذا لا يشعر بما تعاني، رغم حاجتها إليه ورغم الدموع التي تذرفها على كتفه كلما زارها إلا أنه يغيب عن ساحتها كعادته دون مبررات، تحتاج إليه الآن أكثر من أيّ وقتٍ مضى

كي تحدّثه عن وحدتها هنا وعن حزن عينيها وارتجافة جسدها جرّاء غليان القهر في قلبها.

آه كم يؤلمها هذا الثقب الذي مازال يحفر صدرها بقسوة لا تلين، وبدأت ذاكرتها تعيد إليها ذكرياتها الحديثة في أوّل ساعة لها هنا حين كانت مصابة بضربة على رأسها لا تعلم من وجهها، ولا تعلم من أحضرها إلى هنا، أسئلة كثيرة حامت حول رأسها، أبرقت وأرعدت ولفّ الصداع رأسها فركعت على الأرض تتمسّك به وهي تبكي وجعها إذ شعرت بأنّ هناك من يدقّ مسماراً في أعلى جمجمتها، ألم نابض اخترق شرايينها فانحبست الدماء برهةً وبعدها تدفّقت بغزارة فأصاب الوجع الشديد شقاً من الرأس كأنّ هناك من يسحب الشريان ليسقي به خلايا الدماغ، هناك بداخل رأسها من يحارب بأسلحة فتّاكة ويجلب بعدها أطيافاً من الذكريات تحاربها وتصلها ناقصة.

نهضت متثاقلة وارتمت على السرير، ثم نامت من فرط الإعياء والتعب، ودموعها مازالت متحجّرة في المقلتين.

غفت قرابة الساعتين ثم استيقظت على طرقات الباب الخافتة، نظرت إلى الساعة الجدارية التي جاوزت التاسعة بخمس دقائق أي أنها في الواقع بلغت الحادية عشرة،

نهضت متثاقلة في مشيتها، لا تعرف هويّة الطارق، ربّما كان مالك أو نسوة القرية أو هافال فربّما أضاع مفاتيحه.

سألت:

- من الطارق؟

جاوبتها الريح الصاخبة، عادت طرقات الباب الخافتة، تطرق هنيهةً هنيهة كقطرات مطر خجولة. أعادت سؤالها بنبرة أعلى متشككة من هويّة الطارق الصامت:

- من بالباب؟

جاوبها الفراغ وحفيف الأشجار الراقصة، هاجت الرياح في الخارج وماجت وطرقات الباب لم تتوقّف، كان الطارق لحوحاً. أتراه عابر سبيل قد ضلّ الطريق.

دخل الشكّ قلبها، ربّما هناك من يداعبها، قررت أن تفتح الباب وليكن ما يكون، فتحته ببطء فطالعها وجه لإنسانٍ تجهله، كان بشعاً، غثٌّ نحيف، قصير القامة، كثيف اللحية، كان روني، سألته بارتباكٍ:

- من أنت؟

- أتسمحين لي بالدخول والتحدّث قليلاً.

- طبعاً لا، ليس هناك حديثٌ يجمعنا.

وهمّت بإغلاق الباب لكنه وضع قدمه أمامه وفتحه بقوّته، فدخل إليها بينما ابتعدت، طلبت منه الرحيل فاقترب منها أكثر وأجابها:

- وهل الاقتراب مسموح لمالك فحسب؟

- مالك لم يدخل إلى هنا بتاتاً.

اقترب أكثر، تراجعت عنه إلى الجدار واستندت إليه، فانقضّ عليها يحاول تقبيلها، قاومتهُ بشراسة، كانت لها قدرة على المقاومة، حاولت إبعاده عنها بمختلف السبل حتى قذفته بمزهريّة قديمة كانت بجانب السرير، كُسرت المزهرية على رأسه وتناثر الزجاج مع بقع الدماء، وضع يده مكان الإصابة، صرخ ككلبٍ مسعورٍ وأطلق شتيمة قذرة، حاول الإمساك بها فهربت وتركته في الكوخ. هذا المكان لا يناسبها إطلاقاً، ستهرب من هنا.

ركضت في أرجاء المزرعة الخضراء خائفة مما سيحلّ بها في الأيّام القادمة حتّى أرهقت قدميها فأكملت سيرها مشياً على الأقدام، داعبتها نسمات أبريل العليلة تهدئ من

روعها، ظلّت تمشي على غير هدى تذرف عبرات صامتة لا تُسمع في جوف ليلٍ بهيم، شعرت بالضيق يخنقُ أنفاسها والحزن ماهرٌ في العزفِ على أوتار فؤادها، حرمتها الحياة من الأمان وأذاقتها الوحدة والعذاب.

بينها وبين الأفراح ستارٌ ليس بشفاف، إلى متى ستبقى تقاسيها الحياة ألوان العذاب؟ وصلت إلى بيوت المزارعين ولكن خشيت إن طرقت باب أحدهم أن يكون ذئباً كسابقه، لذلك استكملت وحدها الطريق، دون هدف دون رفيق، وجهها في الدموع غارق حتى استكانت لهدوء الليل حين وصلت النهر واقتربت من القصر، ظلّت تتأمّل أسواره العالية حتى ملّت الوقوف، فانحدرت يميناً وجلست على ضفّة نهر عفرين تندب وحدتها وحزنها العميق، كان البرد يقرصها فعقارب إبريل لم ترحمها والريح تلفح وجهها ببرد لا طاقة لها بتحمّله، لا تعرف أيّ طريق تسلك؟ وجدت نفسها تدور في حلقة مفرغة ولم تصل إلى باب الخروج، نامت تحت شجرة الجوز بعد أن ضمّت قدميها إلى صدرها وكتفت يديها وأسندت رأسها إليهما، وغفت بعد أن غسلت وجنتيها بدمع العيون.

لا تدري عن الوقت أيّ شيء، نامت من فرط ألمها وتعبها، وأصابها من الوصب والنصب ما أصابها، لا تريد التفكير بالأمر ولا تريد الشعور به.

استيقظت عند الشروق على يدٍ تهزهزها، فتحت عينيها وتطلّعت إليه، كانت ملامحه حائرة لا غاضبة، سألها هافال مستفهماً:

- ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟

وقفت وارتمت في حضنه تسكب الدموع الباقية، ربت على ظهرها ثمّ أبعدها عنه برفق تأمّل المكان خشية أن يراه أحدهم، ثم عاود سؤاله بطريقةٍ أخرى:

- ما حصل؟

- لا أريد العودة إلى هناك.

- أخبريني السبب فحسب؟

روت له ما حدث معها بالتفصيل، هدر بها بغضبٍ أظهرته تقاسيم وجهه:

- أغبيّة أنتِ؟ كم مرّة أخبرتكِ ألّا تفتحي الباب لطارقٍ يطرقه؟ ولم تسمعي الكلام.

ثمّ ضربها بأصبعه على رأسها، وأكمل:

- أهذا الذي تحملينه عقلٌ؟ أم ماذا؟ ألا تفكّرين؟

ظلّت مطرقة الرأس صامتة، زفر بقوّة ثمّ قال:

- والآن كيف تشعرين؟

- وهل للرمادِ إحساس بعد الحريق؟

نظر إليها مستفهماً وهي تكمل:

- أنتَ أحرقتَ ما بقي فيّ.

- وهل تتهميني على تهوّرك هذا؟

- لو أنّكَ كنتَ معي لما حصل ما حصل.

نظر إليها وهمّ بالتحدّث، ولكنّه صمتَ في آخر لحظة، ثم قال بعصبية واضحة:

- اتبعيني دون التفوّه بحرفٍ واحد.

ثمّ استدار إليها فجأة كأنّه استذكر أمراً ما، فقال:

- هذا يدلّ على أنّك نمتِ طوال الليل البهيم هنا.

أومأت برأسها.

- ألم تفكّري بأنّ ما نالكِ هناك سينالك هنا؟

- أخبرتكَ يوما ألا تتركني وحدي، على هذه الأرض اختطفت ومع ذلك تصرّ على تركي وحدي.

- كفاك ثرثرة.

نظرتْ إليه متعجّبة وقد مشى أمامها، فسارت خلفه دهشة من أسلوبه معها، لمَ لا يبقيها بجواره؟ مشيا قرابة الربع ساعة، وفي بقعة جميلة خضراء مليئة بأشجار الكرز والياسمين وزهور الليلك، يتوسّط البقعة كوخ خشبي أكبر من ذاك الكوخ، طرقَ بابه طرقتين، انتظر دقائق فلم يجبه أحد، أعاد الطرق مرّة أخرى فجاوبه الصدى، استمر في الطرق إلى أن فتحت الباب امرأة عجوز نعسة وقد استفاقت في التو، نظرت إليه بفزعٍ، ماذا يفعل سيد المكان أمام بابها؟

- صباح الخير يا جنّار؟

- صباح الخيرِ أيّها الـ......

قاطعها قبل أن تكمل خشية افتضاح أمره أمام صغيرته.

- هذي رنيم، أبقيها لديكِ، تأنسين بها وتؤنس وحدتك، ستكون خير جليسة لكِ.

- من هذه؟

- ونحن واقفون بالباب؟

- أعتذر منكما، تفضّلا بالدخول، فلم أتوقّع قدومك.

حكى لها الحقيقة التي رغب في سردها، ليست حقيقة مرام بل حقيقة رنيم بأنّها زوجته، أوّل مرّة يتحدّث عنها لأحدهم على أنّها امرأته، حتّى مرام دُهشت وفغرت فاها، والعجوز ساكتة لا تنطق بحرف، نهض أخيراً وأوصى مرام ألا تخرج خارج الكوخ إلا إلى البقعة الخضراء أمام الكوخ، خرج مع جنّار يوصيها بها، سكتَ قليلاً وبعدها قال:

- لا تخبريها بمن أكون؟

- ألا تعرف؟

- لا.. ولا أريدها أن تعلم بالأمر.

- لمَ؟

- ستطالب بالإنصاف والعدل، وليس لديّ مقدرة على ذلك.

- أمازلتَ تخشى ميديا؟

- لا أخشاها وإنّما أخشى على رنيمٍ منها، اعتني بها أرجوكِ، ومالك لا يعرف بالأمر ولا يعرف أنّها امرأة متزوّجة، انتبهي إلى هذا الأمر.

- أعدكَ أن تسير الأمور كما ترغبُ.

غادرها بارتياحٍ، دلفت إلى الكوخ وجلست قبالة مرام، وقالت:

- اسمي جنّار، أقطنُ لوحدي، أنرتِ بيتي المتواضع.

تأمّلت أنواره الساطعة وأثاثه الأنيق، أجمل من كوخها بكثير، هنا لا شموع بل إضاءة عالية.

- تشرّفتُ بكِ يا خالة، وأتمنّى أن أكونَ ضيفة خفيفة الظلّ.

ابتسمت المرأة وطبطبت على كتفها، ثم ذهبت لتعدّ طعام الفطور، لحقت بها هذه الأخيرة لتساعدها في إعداد المائدة، كانت لها كالأم وكانت لها كالابنة.

وبعد أن اطمأنّ على مرام ذهب إلى الكوخ الصغير وجد بابه مفتوحاً، دخل وتأمّل زجاج المزهرية المتناثر أرضاً، لم يكن هناك دماء ولكن آثار الاعتداء واضحة، عماله كثر ولا يستطيع التفكير بشخصٍ واحد. حكّ رأسه لعلّ الفكرة تأتيه مسرعة ولكنّ عقله

لم يسعفه بشيء، أغلق النافذة والباب خلفه وغادر إلى عمله، مرّ على جميع العمّال، شكّ بالجميع، تأمّلهم وطالعهم بعينين خبيرتين ولم يجد شيئاً.

ذهب إلى اسطبل المزرعة وإلى حظيرة الخراف، وإلى قنّ الدجاج وإلى المبقرة وإلى بيوت النحل وإلى بحيرة الإوز والبطّ، ولم يجد رجلاً قد فُج رأسه أو تظهر عليه ملامح الارتباك.

في هذا الصباح لم يتغيّب أحدهم عن العمل، تباً للجميع.. من عساه فعلها؟ عاد إلى مكتبه يجرّ أذيال فشله، طلب قهوة ليُسكتُ صداع رأسه وانكبّ على عمله يحاول التفكير بشيءٍ آخر، ولكن في كلّ محاولة للهروب يلمح هشاشتها وضعفها أوّل مرّة ترتجف بين يديه، هو الذي اعتقد بأنّه عاشق لميديا وجد نفسه يتمنّى الموت لها ليعيش ما تبقّى من عمرٍ مع معذّبته الصغيرة، ابتسم لهذا الخاطر وشعر أنه مشتاقُ إليها ولكن لا يستطيع الوجود هناك كثيراً بسبب تردد مالك على ذاك المكان فهو يعتبر جنّار أمّه الروحانيّة.

وأمّا عن مالك فقد كان لاهياً في مكانٍ آخر بعيداً عن الجميع يقصّ شعر أم حسام بطريقة جميلة ثمّ قام بصبغته، فأسعدها ذلك كثيراً، قبّلها من رأسها ثم جلس بجوارها بعد أن نظّف شعرها من أثر الصباغة، فبدت بشعرها الأسود الجديد أصغر عمراً، جفّف شعرها بمجفف الشعر، أمسك يدها وقبّلها، تأمّل زرقة السموات في عينيها، ثمّ قال:

- لم يعد يحمل قلبي همّاً جديداً مذ دفنتُ أعزّ ما أملكُ في التراب، في كلّ مرّة أحاول استذكار أمور لا تعنيها تجيء الحياة بذكراها، أليس سعيداً يا خالتي من يعيش المرء دون ذكرياتٍ يرثيها؟ لم تكفّ الحياة عن إرسال هدايا الحزن إلى قلبي، بل صارت ترسلها مغلّفة بذكرياتٍ قاسية.

وخبّأ رأسه في حجرها، مسحت على شعره، أكمل عذاباته:

- اشتقتُ إليها كثيراً، وما أصعب أن تشتاقي إلى قطعة من روحك رحلت دون عودة، لا أستطيع التعبير عمّا يعتري قلبي، ولكن أشعرُ برغبة عارمة في عودتها دقائق، أعانقها كثيراً ثمّ تغيب.

جلس ونظر إليها، فمسحت عبراته المنسكبة وعانقته، والتحمت دموع العيون، وأكمل بألم:

- أعبرُ الليالي المظلمة ملتحفاً ذكراها، أدفئ يديّ الباردتين في قفازي الحنين، أعودُ خائباً منتظراً إياها ليلة إثر ليلة دون أن تسعفني الحياة بها، أعود ملتحفاً ذكراها مجدداً فأستشعرُ دفء نظراتها الغائبة عن ساحتي، وأقضي ليلتي باحثاً عنها بين أمسياتٍ رحلت وأخرى قادمة دونها، أعود خائباً إلى نفسي أجدد ذكرياتنا في قلبي، لأرجع للبحثِ عنها في كلّ الليالي التي وعدتني فيها ألا تغيب وغابت. أتدرين يا خالتي بأنها لم تغادر قلبي، بل ظلّ ينتظرها عند محطّة الوداع ذاتها، أدركتُ أن ميعادها لن يتأخر، وستأتي لتخبرني بشوق يكاد يفتكُ بها، لكنّها تأخّرت كثيراً وغدت المحطّة شبحاً كبيراً يجثمُ على صدري، وما عادت تزورني، والقلب بقي في انتظارها.

نام في حجرها حتى أيقظته العاملة تطلب منه المغادرة، نظر إلى أم حسام فوجدها قد نامت والدمع ملأ وجنتيها، مسحها وقبّل رأسها، ثمّ غادرها بخطا مشبعة بإرهاقٍ متعب.

وضعت رأسها في يديها على حافة النافذة، تحدّق في أشجار الكرز المزهرة، أُغبطَ الزرع والتفَّ على جذوع الأشجار، وأُغبطَ النبات فلا ترى سوى جنّة قد ارتدت أبهى الألوان، مرتبكة الفكر، ساهمة في فراغ الدنيا.

جلست بجوارها تقشّر حبّات البطاطس، انتزعتها من شرودها حين قالت:

- بم تفكّرين؟

نظرت إليها بشرود، ولم تنبس بحرف.

- إلى أيّ ذاكرة تهربين؟

- لا أعرف.. أشعرُ بالفراغ أينما حللت.

- لماذا جاء بكِ إلى هنا؟

وحين روت لها القصّة كاملة، قالت لها:

- هاتي يدك.

ناولتها كفّها. أمسكت به وداعبت خطوط يدها، ثمّ قالت:

- في ذاكرتكِ القديمة حبّ يترنّح، يميل مع الغروب ويشرق مع الشروق، وهناك ابتسامة متألّقة ارتسمت على وجهك منذ زمنٍ ولى.

- أخبريني من أكون؟

- في القديم أم الحديث؟

- لا يهمّني الحديث قدر ما يهمّني القديم، من أيّ البلاد أنا؟

- من مكانٍ بعيد، بعيد جداً.

- وكيف وصلتُ إلى هنا؟

أكملت تقشير البطاطس، وأكملت:

- القدر.. قدرك أن تتزوجي هنا.

- وهل قدري أن أكمل حياتي هنا معذّبة في أرضٍ لستُ أملكها وأناس لا أعرفهم، غريبة عن لغتهم وعاداتهم.

- لا تسألي القدر عن شيء مبهم، فقط أكملي حياتك كما رسمها لكِ.

- ولكن ألا أستطيع الصراخ؟

- لن يسمعك أحد.

- ولا تغيير قدري؟

- لن يساعدك إنسان.

- والهروب

- لن يكون حلاً سهلاً، لن تقدري على ذلك.

- وهل أنا في سجن؟

- الحياة كلّها سجن كبير، الموتى هم الأحرار.

- وهل ظهر لك الشخص الذي يكنّ لي حبّاً؟

- لا ... مجرّد خيال عاشق.

- الخيال ذاته الذي يراودني، في كلّ مرّة أشتمّ فيها أوراق شجرة البيروفي.

- ولكن القدر غيّر من النهاية، فلا تفكّري بإنسان وأنت مع إنسانٍ آخر.

- ساعديني لفعل شيء ما، عليّ التغيير من حالتي هذه، لا أحبّ الضعف الذي أنا فيه، لا أستطيع البقاء كما أنا فترة ربّما تغدو أطول إن استكنتُ وجُبنتُ.

- ماذا ستفعلين؟

- أذهب وأبحث بنفسي.

- كمن يبحث عن إبرةٍ في كومة من القش، لن يكون الأمر سهلاً يا عزيزتي، فلتصبري.. اذهبي إلى الخارجِ ومتّعي ناظريكِ بالجنّة الخضراء ريثما أنتهي من إعداد الطعام.

أومأت برأسها، وخرجتْ تتمشّى على الأرضيّة المبلّطة كأنّ صاحب المزرعة يولي اهتماماً بهذه البقعة فحسب فجعل منها جنّة غناء وارفة الظلال.

جلستْ على مقعد خشبي تستمع إلى تغريد البلابل، حتى لمحت من يحدّق بها بإمعان فيرسل بريقه نحوها، حوّلت ناظريها عنه خجلاً، كانت تقضم أظافرها، فاقتربَ منها مالك وبادرها بسؤالٍ تقليدي:

- ماذا تفعلين هنا؟

نظرت إليهِ بلهفة، وقالت:

- لقد أصبح سكني هنا.

- مع جنّار؟

أومأت برأسها.

- لماذا؟ ما حصل؟

- لا شيء.. فقط مللتُ الوحدة.

- ولم تجدي سوى جنّار لتجالسيها.

- وهل هي امرأةٌ سيّئة؟

- بل امرأة منبوذة، متّهمة بأعزِّ ما لديها.

- ما تقصد؟

- أنتِ تزيدين الأمر سوءاً.

- هل هناك حلول أخرى؟

- على الأقل في ذلك الكوخ لا أحد يعرفك.

- كل من في المزرعة يعرفونني، ويتحدّثون عني.

- ولكن هناك من لا تعرفكِ، وإن عرفت عنكِ شيئاً فلن يحدث خير.

- أخفتني بكلامك.

- لم أقصد ذلك، ولكني لا أريد أن تضيعي كما ضاعت فتاتان قبلك.

- وكأنّ كلماتك اليوم مبهمة وغير واضحة، ألا يمكنكَ التفسير؟

- ستفهمين كلّ شيء في وقته، ولكن حذارِ من شخصٍ يدّعي الطيبة ومن كلّ امرأة تحادثكِ باسم الصداقة.

فتحت جنّار الباب ونادته حين لمحته، سرعان ما تغيّرت لغتهما وهي واقفة تراقبهما. سألته عن أسبابِ غيابه، فأوضح لها ذهابه المتكرر إلى أم حسام ليرعى شؤونها.

- هل من أسرارٍ بينكما، سأدخل لتتحدّثا براحتكما.

قالت ذلك مرام بغضبٍ مكتوم حين وجدتهما لا يعيرانها أيّ اهتمام، أمسكتها جنّار من يدها، وأوضحت لها ما كانت تحدّثه، ودعتهما إلى الطعام.

تناول الجميع الطعام في صمت والكلّ يفكّر في الآخر، مالك يفكّر بها لا يريد توريطها بمشكلات الكبار، يكفيها ما لقتهُ إلى الآن، يريد مساعدتها ولا يستطيع، ليته يتزوّجها

لكنه يخاف البدء بخطوةٍ ليس مستعدّاً لها، وهي تفكّر بما حكاه الآن عن جنّار وحديثه الغامض، وجنّار تفكّر بالاثنين معاً، لو كانت هذه الصغيرة من نصيب مالك أوليس أجمل من نصيبها هذا؟

ودّعهم مالك، وغادر إلى بيته، فلمح هافال في الطريق، سأله هذا الأخير:

- أينَ كنت؟

- عند جنّار.

- وهل رأيتها؟

- أو هي غير مرئيّة فلا أراها؟

- إذن لا تقترب من ديارها.

- وهل أصبحت الدار حكرا عليك؟

- منذ متى تعاندني؟

- منذ أن.....

عمّ الصمت...

- ليس لديكَ أجوبة جريئة؟

- ماذا بينك وبين رنيم؟

- لا شيء إلا الخير. ثم ليس لأحد أن يحقق معي ولاسيما أنت.

اقتربَ منه، وقال:

- كل واحد منا يعرف نقاط ضعف الآخر فلا تجترئ عليّ، ولا تنس أنني أستطيع فعل أيّ شيء ما دامتْ الأرض أرضي.

- أأنت فعلتها؟ نعم فعلتها وانتهى الأمر، لستُ بهذا الغباء يا عمّاه ولستُ طفلاً صغيراً لتضحك عليّ بقطعة حلوى.

- إذن يا كتلة الذكاء كما استنتجت حصل، أرني ما أنتَ فاعل؟

- وهل هي موافقة؟

- وهل كانت بمكانٍ يؤهّلها للقبول والرفض؟

- لا يجوز لكَ أن تستغلّ ضعفها.

- في شرعي كلّ شيء جائز لأنني الأقوى.

- ألا تخشى أن يكون مصيرها كسابقتها.

- إذا ابتعدتَ عن الموضوع فلن يعرف أحد بما حصل. لا أحد يعلم سوى جنّار.

- من شهد على زواجكما فلا ريب أنه أخبر الجميع.

- وهل تراني بهذا الغباء، استقدمتهما من حلب.

- أنتَ داهية.

أطلقَ هافال ضحكةً عالية ومشى، لكنّه استدار فجأة، ونظر إليه:

- إياك أن تخبر أحداً.

عاد مالك إلى الكوخ القديم يتلمّس بابه المغلق وأغمضَ عينيه، ناحَ على عتبة الكوخ الذي ما دخله يوماً، يبكي خذلانه وخيبته، ها قد خسر الأخرى وبغبائه ضيّعها، عبرت العبرات خدّيهِ وانهمرت كسيلٍ من الودقِ غسل وجنتيه، صرخَ بقهرِ رجلٍ يائس والأرض تحت قدميه مادت واضطربت متألّمة لألمه، لم يشعر بهذا الجرح إلا حين ماتت رنيم وها قد عاد الجرح إلى فؤاده يؤلمه على الصورة نفسها، كيف خسرها هكذا وهو يهيّئ نفسه ليكون لها نعم الزوج والرفيق والحبيب، ويعوّض غياب تلك بحضور هذه، لعله يتوب عن معصيته.

كان يكذّب أفعالها وإيماءاتها، كلّ شيء كان واضحاً من البداية، ولكنّه أصرّ أن لا شيء من أفكاره سيحدث، إنّها مجرّد أحاسيس كاذبة، لكنّها كانت صادقة وحقيقية فقتلت فيه روح الإنسان وأحيت روح الشيطان. نزل إلى الأرضِ يبكي والسماء تبكي على رأسه، والتحمت العبرات بحزنٍ غشي مقلتيه ودمّره، كان مطر إبريل رحيماً به حنوناً وعطوفا، ولم يكن قاسياً.

كثيرة هي المرات التي جرحه عمّه فيها ولم يرأف بحاله، وتراءت له صور رنيم بكلّ حالاتها المفرحة والمحزنة، ليست رنيم محبوبته الأولى بل فاتنته الجديدة، بكت كثيراً أمامه كأنّها كانت تشكو له عمّه، كان يسدّ أذنيه عن سماع شكواها وبلواها.

ظلّ جالساً على الأرضِ يحصي انتكاساته فيعجزه العد، سيخلّصها من الشرّ المحدق بها، سيهرب بها ويجبره على الطلاق، لا.. لن يضيّعها، وسيصنع معها أعواماً من ذكريات لن تمحوها الأيام، لن تكون رنيم أخرى ولن تكون كارين، ستبقى كما أرادها ياسمين أبيض فوّاحاً.

كم بارعُ عمه في اقتناص الفرص وكم خائب هو في اقتناصها، في كلّ فرصة يسرقها عمّه منه يضيّع عليه أملاً ويجلب له خيبة كبيرة كحجم دموع السماء السائلة والمنهمرة على رأسه.

يا الله هل هناك أقسى ألماً من هذا؟ أن يكون الظلم البيّن من أقرب الأقربين إليه، ظلّ ساعات يبكي ضياعها أمام عتبة الكوخ حتّى نهضَ متثاقلاً بدمع العيون يمشي الهوينا، إلى داره ذهب وعلى سريره ارتمى يبكي خشونة الحياة وهموم الدنيا، كان ينتظر أن ينسى تلك المرأة والحياة معها ليشرع مع أخرى في حياة جديدة، ولكنّ القدر كان له رأي آخر، فقد غدت من نصيب غيره ولن تكون له يوماً، تكاثف الدمع وأغشى بصره، ثم أغمضهما، ونام أخيراً دون أن يحلم بزوجته، بل بأخرى لن تعيش معه أبداً، وليس من حقّه التفكير بها.

عرف هافال غريمه من الأحاديث المشتعلة والدائرة في المزرعة، استطاع تقصّي الأمر والبحث عن مفتعل الإشاعات وباث السموم، فعرفه ولم يكن غريباً بل كان يعرفه عن قرب.

اقتاده في ليلة إبريل الباردة إلى الحظيرة القديمة، وهناك صفعه صفعة مدوية أسقطت روني أرضاً، تحسس مكان الصفعة ولم يعرف السبب، ركع هافال بجواره وأمسكه من شعر رأسه، كان طويلاً بعض الشيء، وقال بصوتٍ هادرٍ غاضبٍ:

- الحقيقة ولا شيء غيرها، هيّا تكلّم فأفلتكَ من عقابي.

أومأ برأسه بخوفٍ ليس يدّعيه.

- أأنتَ من ذهبت إلى الكوخ ذاك قبل ليلتين من الآن؟

نظر إلى الأرضِ يعتذر عن فعلته الخرقاء.

- وعدٌ عليّ ألّا أعيدها، فقد كنتُ في حالةِ سكرٍ لم أتبيّن أفعالي، أرجوك سامحني وسامح هفوتي، أدرك خطئي لكنّك أرحمُ من حكمَ هذه المزرعة، فاعذر زلتي وارحم نزوتي.

أسكتهُ بصفعة أخرى فتطاير الدم من شفتيهِ، بصق في وجهه ثمّ عصفَ في وجهه:

- لا ماءَ لك هنا ترتوي منه، لا طعام لك يُسكت جوعك، ولم يعد لكَ مكان يؤويك.

هرعَ إليه يقبّل قدميه.

- أرجوك يا سيّدي لا مكانَ لي أرحل إليه، ثم لدي أطفال صغار لا طاقة لهم بالجوعِ والعطش، عقارب إبريل اللاسعة ستفتكُ بهم، ولا قدرة لهم على البرد والمطر، سأفعل ما تأمرني به ولكن اغفر لي ذنبي.

ركلهُ بقدمه، فأبعده عنه قائلاً:

- لا يؤتمن من حاول هتكَ عرض امرأة تعيشُ في أرضي، أيّ امرأة هنا أنا حاميها وسأكون كالسيف على من يحاول الاقتراب منها، كيف أثق بك بعد فعلتكَ هذه؟ ارحل الليلة ولا تكثر الشكوى، لا أرغب أن تشرق الشمس وأنت في دياري، لن أرحم من يخطئ أخطاءً صغيرة، فكيف لو كان الخطأ جسيماً؟

غادره ورحل إلى أعماله وترك هذا الأخير يبكي غباءه وندمه، تسرّعه وتهوّره، عاد إلى البيتِ باكياً ووجهه معفّر بالتراب والدم، عاد يجرّ ثوب الخطيئة خلفه كأنّها تشي بما

فعله تلك الليلة، ركضت إليه رقيّة تسأله السبب في ولوجه هكذا، راعها مّا حلّ به واضطربت وقبل أن تشرع في سؤاله فاجأها وصدمها بطلبه:

- وضّبي أغراضنا لنرحل من هنا.

قالها وسقط على الأريكة متعباً ومرهقاً.

- لماذا؟ وأين نذهب؟

- لقد صدر القرار، فلا يمكننا تغييره.

صاحت.. ولولت.. شدّت شعرها.. ناحت وبكت.. صرخت في وجهه:

- ما الذي حصل؟ قرارٌ كهذا لا يصدر دون سبب.

ظلّ مطرق الرأس، اقتربت وجلست بجواره.

- روني أخبرني الحقيقة، أرجوك لأعرف ماذا أفعل؟

نظر إليها محدّقاً في صفحة وجهها، ماذا عساه يخبرها؟ أنه حاول انتهاك عرض فتاة غريبة عن الديار، سيواجه عقاباً واحداً ولكن إن أخبرها فستغادره إلى الأبد ولن يفلت من عقابها، سألها بعد صمت قصير:

- ماذا ستفعلين؟

- اذهب إلى السيدة واركع تحت قدميها، فيُلغى القرار في دقائق، فالكل يعرف علاقتهما الوديّة ولا يرفض لها طلباً.

- هو عنيد في هذا الأمر، فلن يتراجع بسهولة ويسر. قال الليلة أي الليلة. لا يريد أن تشرق الشمس بحضوري هنا.

- اصبر إلى غد.. أخبره بأيّ حجةٍ ودعني أفكّر بمقابلة السيّدة، الآن سأزيلُ عنك بقع الدماء وأطهّر جرحك.

كانت تعمل على تطهير جرحه، وهي تثرثر:

- لو تخبرني بما جدّ معك، ماذا أخطأت بحقّ السماء. لينقلب عليك السيّد ويطردنا في هذه الليلة الباردة وهو يعرف أن أطفالنا صغار ولا قدرة لهم على برد إبريل وقسوته. هو رحيمٌ بنا ولم يكن يوماً قاسياً.

- هل أنهيتِ خطبتك الواعظة؟ تبّاً لك ما إن تبدئي الكلام حتى تنسي الصمت.

مدد قدميه على الأريكةِ، وأغمض عينيه.

- ألن تنام في الداخل؟

- لا.. فقط دثّريني بغطاء سميك، لأنني أشعرُ ببردٍ ينخر عظامي.

وهناك في بيتِ هافال جلست ميديا تمشّط شعرها أمام المرآة فأتاها وجلس على السرير صامتاً يتأمّل ملامحها الضعيفة وبشرتها الصفراء.

- لم تعد تتغيّب عن البيت.
- ألا يروقك ذلك؟
- يروقني، ولكن هل أنهيتَ أعمالك؟
- ليس جميعها.
- ومتى ستنهيها؟
- حين تأتي الليلة الخامسة.

حدّقت في وجهه بنظرةٍ غامضة دون أن يتحرّك لها جفن، مرّت دقائق شعرت فيها أنّه يسخر من منطقها، ثمّ أكملت تسريح شعرها صامتة.

- ما بالك صامتة هكذا؟ أليس هذا الجواب الذي تتوقين إلى سماعه؟

لم تردّ عليه واستدارت إلى المرآة تفكّر في حياتها معه، وفي حياته ما بعد موتها، سيتزوّج بأخرى جميلة وصغيرة تعيد إليه ريعان شبابه وتقسو على صغارها، سينساها ما

إن يقترنَ بأخرى، وحينها لن يهتمّ لصراخ أطفاله الجائعين. لذلك لن تمنحه فرصة الاختيار، ستختار واحدة تكونُ لها خادمة وبعد موتها ستبقى خادمة.

- إذا أنهيتِ تمشيط شعرك أطفئي النور؟

انتشلتها كلماته من شرودها فأومأت برأسها، أطفأت النور ونامت جواره، عانقته خائفة أن يتسرّب من بين أناملها كالزئبق فلا تستطيع العثور عليه، لو لم يكن لديها صغار لتمنّت موته معها، سالت دموعها كغيثٍ دون انقطاع، مسحتها وأسكتت نحيبها لئلا يتأفف من دمعها الغزير، فهو يضجر من أدمع النساء ويهرب منها إلى البعيد.

أمّا هو فكان شخيره يصلها هادئاً مطمئن البال كطفلٍ لم يرتكب الأخطاء، عانقته أكثر لتجدد ملكيّتها له، فلم يشعر بعناقها ولم يلتحم بجسدها، بل ظلّ ساكناً يرسل إليها إشارات أنه نائم فلا توقظه.

خائفةٌ جداً، خائفة من اليوم الذي يُبعد موتها ويقرّب فراقهما، لا تريد مفارقته بسبب أخرى، لذلك ستعثر على واحدة تجهّزها له عروساً في حال فارقت الحياة.

نامت أخيراً، وطال الليل كثيراً، وكأن الليالي اجتمعت في ليلة غدت الأكثر جحيمية على الجميع. كانت ليلة قاسية على أسرة روني المنكوبة وعلى ميديا إذ استيقظت

مرّات عدّة تتأكّد بأنه لم يغادرها بعد، وعلى مالك وحبّه السراب الضائع منه، على مرام وصراع ذكرياتها، وعلى جنّار وحنينها إلى كارين.

أشرقت الشمس بعد ليلة آثمة محمّلة بوزر الضعفاء، أشرقت المزرعة بنور خالقها ودأب الكل على عمله، خرج هافال يأمر فيطاع، يتفقّد الرعيّة ويتأكّد من أن الأمور تسير على خير ما يرام.

ظلّت ميديا جالسة مع صغارها تحكي قصصاً كثيرة وتستمع إلى قصص صغارها، إلا أن طرق الباب وفتحت الخادمة، دخلت رقيّة تبكي وتنتحب، وهرعت إلى سيدتها تقبل يديها وتتوسل إليها، بكت وولولت، كلّ ذلك تحت أنظار الخادمة روسيل وميديا والأطفال، صرفت ميديا روسيل والأطفال وثمّ قالت:

- ما الأمر؟ اهدئي واحكي لي.

- أرجوكِ يا سيّدتي، ساعديني ولا تعرضي عنّي، فليس بمقدور أحدٍ مدّ العون إلي سواك، وصل بي الهمّ وأسرتي إلى الحضيض ولي أطفال صغار.

- ما الحكاية؟

- السيد ولي نعمتنا طرد زوجي البارحة من المزرعة، وأمرنا بالخروج قبل شروق الشمس.

- ولكن سيّدكِ لا يفعل هذا عن عبثٍ، من المرجّح أنّ هناك من أغضبه.

- لا وايم الله يا سيّدتي، نحن أسرة تسعى إلى رزقها بالحلال، لم نأت لنستجلب الضرر ونعتدي على الزرع.

- هناك ما هو مخفي عنك لم يخبركِ به زوجك، أنا أعرفُ الناس بهافال، لن يقدم على فعلٍ كهذا إلا إن كان الخطأ جسيماً ولا يغتفر.

- والعمل يا سيّدتي، سنفعل ما يأمرنا به إلّا الطرد والإبعاد.

- حسناً سأحادثه بأمركما، ولكن إن لم يستجب فلن أتدخّل في الأمر ثانية.

- أرجوكِ يا سيّدتي، علّقت عليكِ جل آمالي فلا تخذليني.

- على بركة الله.

غادرتها بدموع العيون، وهي تتمتم بكلماتٍ مؤسفة عن واقعها، تدعو الله أن يترأّف بهم ويرحمهم.

وفي مكانٍ آخر من المزرعة كان زوجها يرتجي الأمر ذاته من مالك، قال له هذا الأخير ببرود دون أن ينظر إليهِ، إذ كان مشغولاً بتثبّيت الوتد في الأرض:

- وما الذي حمله على فعل ذلك؟

- لا أعرف يا سيّدي.

- لن يطردكَ دون سبب، لم يفعلها مع أي شخصٍ قبلك ولن يفعلها معك.

- أنا شخصٌ بسيطٌ يا سيّدي.

- إذا أردتَ مني الوقوف أمامه والتكلّم بشأنك، فعليك إخباري بالحقيقة كاملة كي لا تحرجني معه، ويكون الأمر كبيراً.

قال ذلك بعدما أن أنهى تثبيت الوتد، وضع يديه على خصره منتظراً من الآخر التحدّث، بينما أطرق الأخير برأسه وهمس بخجلٍ:

- أذنبتُ ذنباً ليس بهيّن.

- وما ذنبك؟

- دخلتُ الكوخ القديم، مسكن العجوز سابقاً، وحاولتُ.

صمت قليلاً بينما مالك يحدّق فيه بعيونٍ خالية من التعبير.

- ماذا حاولتَ؟

- صدّقني يا سيدي، ضربتني على رأسي وهربت، فلم أفعل ما يعيب.

- هل حاولتَ؟

لم يستطع إكمالها، أمسكهُ من تلابيب قميصه، ولكمهُ على وجهه لكمتين أوقعته أرضاً، جلس عليه وصرخ:

- لماذا لم يقتلك؟ لمَ تركك وقد علم بالأمر؟

- أرجوكَ يا سيدي، ها قد اعترفتُ بإثمي؟

- بعد ماذا؟ بعد أن علم بالأمر وفصلكَ من العمل.

ثمّ وقف، وابتعد عنه قائلاً بغضب:

- ارحل من أمامي، ولا تدعني أراكَ كي لا أقتلك.

ومشى مسرعاً يحثّ الخطا باحثاً عن عمّه، فتّش في كلّ مكان وبحث خلف كلّ أجمّة، حتى وجده في حظيرة الخيل يداعبها، اقترب منه، نظر إليه ببرود وقال:

- وماذا تريد الآن؟

- لمَ لمْ تخبرني بحقيقة روني مع رنيم، ونقلها إلى مسكن جنّار؟

حدّق في وجهه ثواني، وعاد يداعب الخيل قائلاً:

- أظنّ أن لا علاقة لك بهذا الموضوع.

- أتدّعي محبّتها ولا يمكنك حمايتها؟

- هي من فتحت الباب له في ساعة متأخرة من الليل، الخطأ يقع عليها، إذ كنتُ قد أوصيتها ألا تفتح الباب لأيّ طارقٍ يطرقه.

صفّق مالك بكلتا يديه، ثمّ قال:

- أحسنتَ يا عمّاه، دائماً يسري على لسانك الجواب ذاته، أنتَ مطهّر من أيّ جناية وغيرك من يرتكب الجنايات، فلا إثم عليك وعليهم تقع الآثام.

ترك الخيل واقترب من مالك، وضع يده على قلبه وقال:

- إن كان هذا القلب يحمل ذرّة مشاعرٍ لها فاقتلهُ قبل أن يقتلك، ولا تنس أنّ من تغضب لها هي زوجتي، ولن تكون لكَ يوماً بكتابٍ شرعي.

غادره إلى حظيرة أخرى، بينما أطرق مالك رأسه، وخرج يبحث عن حلمٍ أضاعه وعن أملٍ سرق، يبحث عن حياة تكون على مقاسه فلا يفتّش في حياة الآخرين عن وهم يعيشه.

جلس تحت فيء شجرة البيروفي يفكّر بما حدث في التو، عاجز عن التقدّم فلن يخاطر الآن، لا يستطيع التقدّم خطوة واحدة إلى الأمام وهافال واقفٌ له بالمرصاد، عجز هافال عن حمايتها أمام روني فكيف سيحميها من ميديا، أتكون رنيم نسخةً عن كارين؟

عادَ هافال إلى البيت، استقبلتهُ ميديا بترحابٍ عظيم كأنّه بطل الحكايات جميعها، قبّلته قبلة العشاق وعانقته عناق الغرام، تحدّثت وإياه بولهٍ ودله حتّى ظنها فقدت عقلها، فقد مرّ زمن على أحاديث الغرام، وها هي تعيد الكرّة معه من جديد. وفي الليل تغيّرت هرموناتها، وسألته فجأة سؤالاً ضايقه كثيراً، فهبّ واقفاً.

- إيّاكِ والتدخل في عملي.

- لا أتدخل في عمل المزرعة، ولكنني وعدتها بأن أسألك السبب وأتوسّط لهما كي ترحمهما من غضبك ونقمتك.

- دعيها تسأل زوجها عن السبب.

- أخبرني أنتَ؟

- لا داعي لذلك، لا ترهقي بالك بأمور لا تخصك.

- هل يخصّ الأمر امرأة ما؟

تطلّع إليها بغضب، ثم قال:

- ويحكِ يا امرأة على هذه الليلة، إذ بدأتها بحبٍ وأنهيتها بنكد.

وقفت، وأشاحت بوجهها، وقالت:

- لأنك لا تغضب إلا من أجل امرأة.

- ومن هذه المرأة التي تستحق غضبي؟

- أخبرني أنت.

حدّق بها دقائق ثمّ قال:

- أعيد وأكرر، أمورٌ لا تخصّك، وليرحل من المزرعة كلّ من يخالف أمري، لا تتوسّطي لأحد عاقبته على وزرٍ ارتكبه.

وفي الليل تحت غدق إبريل كانوا يهرولون، والودقُ مستمرٌ في الانهمار على الرؤوس. كلّ من في المزرعة يعرف رحيلهم، ولكن لم يجرؤ أحد على وداعهم أو حتّى مواساتهم، سمعوا صرير الأبواب وصرير النوافذ، لمحوا جيرانهم خلف الشبابيك يتطلّعون إليهم بعيون يائسة.

الكلّ يتساءل في سرّه عن سبب طرد هذه الأسرة لكن لم يستطع أحد أن يقف بوجه البركان، ويدافع عمن كانوا لهم جيراناً وأهلاً وأسرة.

مضى شهران على وجودها في المزرعة ولم يتغيّر شيء فالحال بقيت على ما هي، رحل إبريل ببرودته ليأتيها مايو بدفئه، ظلّت تستذكر آخر حديث بينها وبين مالك قبل أن يقاطعها مقاطعة لا تعرف سببها، ظلّت على حالها واجمة وفيما تساعد جنّار في تنقية العدس، انتبهت هذه الأخيرة إلى شرودها، فلمحت ملامحها البائسة، تأمّلتها قليلاً ثمّ سألتها:

- ما بكِ؟! طال شرودك كثيراً.

انتبهت إليها، ونظرت إلى العدس تعبث به، ثمّ قالت:

- لديّ سؤال لكِ ومحرجة من طرحه.

- اسألي ولا تخافي.

- هو سؤال شخصي بعض الشيء. في آخرِ لقاءٍ مع مالك أخبرني بفقدان أعزّ ما ملكتِ. وهو خائفٌ أن أحذو حذوك، لذلك قررتُ سؤالك إيّاه كي لا أغوص في وحل المزرعة أكثر.

تنهّدت بأسى، وقالت:

- وهذا ما أخشاه، أن تكوني صورة أخرى لفتاة كانت تعيش هنا.

أنّت بألمٍ، ونظرت إلى صورة الفتاة العشرينية الضاحكة على الجدار، التفتت خلفها مرام فلمحت الفتاة الضاحكة، وقالت:

- لم أسألكِ عنها يوماً.

- إنها كارين.. ابنتي ومهجتي.

مسحت دمعتها اليتيمة، وبدأت الحكاية:

- كانت لي كلّ الحياة، وكنتُ لها كلّ الأحلام، لم نحلم أحلاماً كبيرة فكان الحلم بسيطاً أن يتركنا العالم وشأننا، كنتُ وإيّاها نحارب الفقر بالضحكات حيناً وبالبسمات حيناً آخر. صبرنا معاً على شظف العيش وكانت حياتنا حياة شقاء وحرمان، كان بنا خصاصة ومع ذلك لم نسأل الناس إلحافا، مضت الأيّام بنا ولا أحد عرف بحكايتنا، حتّى كبرت كارين وكبر قلبي معها فتربّعت بداخله، كبرت كارين وكبر الهمّ والغم معها إذ كانت جوهرة نادرة، فالكلّ كان يتحدّث عن بياض بشرتها وعينيها السوداوين وطولها الفارع، أخلاقها الدمثة، طباعها الرقيقة، كلّ من عرفها هام بها وأحبّها.

- وأين هي؟ لا تقولي إنّها ماتت.

- وكأنّها ماتت.

- كيف؟

- ماتت حين كبرتِ وصارت في العشرين من عمرها، كانت تضجّ أنوثة وجمالاً، بدأت تضجر من عيشتنا هذه، تصرخُ في وجهي بأنّها ترغب بحياة بحبوحة مليئة بالثراء، تريد أن تكتفي من الدنيا بمالٍ وفير لا أن تكتفي منها الدنيا فتكمل حياتها بالحرمان والاحتياج، صارت تغيبُ ساعات عن المنزل، أيام أسابيع ونحن في شجارٍ دائم، لا يعجبها العجب، حتى عرفتُ بالصدفة أنّها على علاقة بمالك المكان.

سقطت دموعها المنكسرة، وتأمّلت اللوحة مرّة أخرى:

- آهٍ آه يا كارين، لو أنّها استمعت إلي لما حدث ما حدث، في تلك الليلة التي وصلني بها خبر السوء تشاجرنا، خاصمتها علّها تستعيد عقلها الضائع منها، جادلتها وكثر جدالنا، هي تدافع وأنا أعترض، نازعتها في الأمر فخاصمتني وهربت من البيتِ، أياماً لم يهنأ لي بال وأنا دائمة البحث عنها، توسّلتُ إليها أن تعود بعد أن عرفتُ مكانها وعادت على مضض، لم تغيّر قناعتها، كانت شديدة

العناد ولا تفعل سوى ما يروقُ لها، بدأت بجلبِ هداياه إلى البيت فرحة مسرورة، وتفاخرُ بها كلّ الأوقات وتردد كلمات الغزل في كلّ الساعات.

أشرقت الفتاة الصغيرة ولكنها أشرقت في أرضٍ ليست لها، أرضٌ مظلمة كئيبة لا تأبه بالشروق، ظلّت شهوراً دون أن أفلح في تغيير مسار هذا الحب اللعين، حلّفتها بخالق الكون أن تعود إلى رشدها فتنساه، لا قدرة لنا على الوقوفِ في وجه السيل، وكان السيل أقوى منّا.

صمتت تمسح أنفها بكمّ فستانها، أسرعت مرام وجلبت لها منديلاً ورقياً، وانتظرتها حتى انتهت من نحيبها.

- لم تسمع كلامي ولم تفهم وجهة نظري، السيد لا ينظر إلى فُتات الطعام وفي بيتهِ وجبة دسمة، فمهما كانت فلن يراها سوى عاملة عنده، ولن تصبح سيّدة المنزل.

هدأ البيت إلا من غراب ينعب على حافة النافذة من الخارج، وصوت أنفاس جنّار كان يصلها حزيناً.

- وماذا حدثَ يا خالتي؟

- عرفت السيّدة بأمرهما.

- زوجة صاحب المزرعة؟

- أجل، عرفت بالأمر وأرسلت في طلبها، هددتها بالابتعاد عن زوجها، فإن لم تستجب فستجعل سيرتها على كلّ لسان، ستمزّق عرضها وبعده وجهها ومن ثم ستطردنا من المكان، الكلّ يعرف شراستها والجميع يتجنبها، فمن نحن لنقف بطريقها؟ ما نحنُ إلّا حجرٍ صغير في طريق بركان.

صمتت ثمّ أكملت:

- هذا الغراب ينعبُ بسوء.

- إنّها أساطير الأوّلين، لا تكترثي لنعيبه.

- نعيبه لا يبشّر بخير، إنّه ينادي لشرٍّ سيقع في المكان.

- الغربان يا خالة كثيرة ها هنا، وليس من المنطق أن نعيب أحدهم معناه أن هنالك شرّاً سيطال المكان.

- ولكن قلبي لا يبشّرني بخير.

- دعي الغراب ينعب، وأكملي ما حصل.

- تواصلتُ مع ابن عمّ لها يكبرها بخمسة عشر عاماً قضاها متزوجاً وامرأتهُ لا تنجب، لم أخبرهُ الحقيقة كي لا يجرحها أو يؤلمها في الكلام. أخبرتهُ بخوفي عليها من كارثة تحلّ بها بسبب جمالها، وأنا امرأة عجوز لا طاقة لي بحمايتها. فابن عمّها يعيش في العراق وأتى إلينا بعد يومين، احتالَ عليها أن تذهبَ للإقامة لديه، رحّبت بالفكرة ووجدتها فرصةً لتريح أعصابها من مخاوف حلّت بها بعد تهديدات السيّدة.

ودّعتها بدموعٍ غشيت بصري، كانت لحظة الوداع مؤلمة كأنّ روحي انتزعت من جسدي، شعرتُ بخلايا فؤادي تتمزّق كأنّك تنزعينَ الشوكَ منها، شعرتُ بسهم الوداع أصابَ قلبي فمزّق أحشاءه، عانقتني وبكينا معاً على عتبة هذا المنزل، انهمرت دموعنا وأنا أسألها أن تسامحني فيما تسألني الرضى عنها.

رفعت رأسها إلى السماء، ودموعها شاهدة على ألمها.

- أشهد الله أنني رضيتُ عنها رضى لا سخط بعده، فارحمها يا الله في كلّ خطوة تخطوها بعيدة عن الفؤاد.

عانقتها لتمنحها حبّاً غير مشروط، حبّ ابنة لأمّها، عانقتها وربتت على كتفها فبدأ نشيج جنّار يعلو، ثم انهارت في نوبة بكاءٍ حاد.

- اعذريني لأنني دفعتك إلى ذكرى مؤلمة.

- لم أنسها يوماً، ظننتني أنقذتها فإذ بي أجدني دفعتها إلى الهاوية، كشخص أنقذ غريقاً من الماء ثمّ أقذفه بنيران اللهب لتدفئته، قذفتها إلى نيرانٍ ما زالت تستعر بها إلى الآن، لم تسامحني على ما فعلتُ إطلاقاً.

وهناك وصلَ إلى مسامع هوزان ما تناقله الناس هنا، فتزوّجها بحجّة العرضِ والشرف وما إلى ذلك، مرّت على هذه الذكرى خمس سنوات، لديها الآن طفلان ولم تعد إلى هنا مرّة واحدة، كانت تتصل برقيّة وتحكي لها أخبارها، ورقيّة تأتيني بأحاديث لا أعرف مدى صحّتها، تأتيني أخبارها كغريبة عنها، حالي كحال الجميع، لن تغفرَ لي فهي تعتقد أنني قذفتها إلى اللهب، وكان باستطاعتي إنقاذها بالبقاء هنا، ظنّت أنني خدعتها وأنا لا أعرف من أوصل أخبارها إلى ابن عمّها ليستغلّها فتصبح زوجته، لم أكن أعلم شيئاً، وددتُ فقط حمايتها من أحاديث القرية، فالكلّ سيروي قصّتها بفضول مبالغ به، لن ترحمها الألسن ولن ترحمها ميديا.

- وماذا فعل السيّد حين علم بالأمر؟

- صمتَ ومشى خطواتٍ صعبة كأنّه عاشقٌ مغرم، مشى بألم يمزّق نياط الفؤاد كأنّه يمشي على قلبه وكأنّه يسير حافي القدمين على زجاج مكسور، كما قالت لي كارين إنني فرّقتُ بين عاشقين، كان لديها أمل كبير لكن لم يكن هناك سوى وهم الأمل.

- رأسكِ مليء بضجيج ذكرياتٍ إن أبقيتها فستفتك بكِ، تخلّصي منها.

- وهل الأمر بهذه السهولة؟

- لا أعرف.. لستُ مكانكِ لأخبركِ ما يتوجّب عليك فعله.

- أغبطك لأنّكِ دون ذاكرة، إن استعدتها يوماً وكان بها ذكرياتٍ قاسية فستندمين على استعادتها.

- الألم الأكبر يا خالة أن تعيشي في فراغ، ذهنٌ مشوّش، ذاكرة مرتبكة، أتمناها وفي الوقت ذاته أخشاها.

- اتركي الأمر للقدر يمرّ كما يراه.

ابتسمت مرام، ثمّ قالت:

- خالتي ما رأيك أن نزيح الأحزان جانباً، ولتقرئي كفّي.

ابتسمت جنار، وقالت:

- ما أشدّ طيّبة قلبك، هاتي يدك.

مدّت يدها، أمسكتها وداعبت خطوط كفّها، تنهّدت وزفرت.

- هل هناك ما يؤلم؟

- ذاكرتكِ فيها أشياء رائعة، نقية، لا تشوبها شائبة.

- أخبريني عن أملٍ أحيا به.

- هناك في الماضي البعيد، وفي مكان ليس بقريب أسرة تعيش على أمل لقياكِ، هناك أملٌ في ثنايا خطوط كفّك.

- هل سيكون العثور عليّ سهلاً؟

- طبعاً.. هناك من يبحث عنكِ وأشخاصٌ كثر بانتظارك.

- حتى أنتِ يا خالة تعبثين بذاكرتي، لا تضيفي إليها ما ليس فيها.

- من فعلها؟

- مالك وقبله هافال.

- أنا لستُ مثلهما يا رنيم.

- إن عادت إليكِ كارين يوماً فهل ستبقينها في أمانك؟

- كارين حين غادرت بيت جنّار كانت تنظر إلى البيت نظرة وداع أخيرة.

- إذن لماذا تحمّلك الأمر؟

- لأننا في حياتنا التي نحياها دائماً نسعى إلى تحميل أحدهم ما نمرّ به من ضغوطات ومشكلات.

- ستعود يوماً إلى حضنك، فالطير مهما طال غيابه يعود دوماً إلى عشّه الأوّل، أخبريها حينها بأنّك ما نسيتها يوماً، فلا تخفي عنها ألماً ولا تدمّري حياتك بمشاعر لا تصلها.

- لماذا تخبرينني بهذا الآن؟

- سأغادر ذات يوم إلى دياري، ففي كلّ مرّة أمنح نفسي وعوداً بالمغادرة من هنا أعودُ وأتذكّر بأنني في سجن كبير ولا قدرة لي بمغادرة المكان.
- سيحلّها القدر يوماً ما، ثقي بعطائه فحسب.

ركضت إليها وعانقتها، عناق أم لابنتها، وكارين في صورتها الجدارية تضحك لهما، وفي النهاية انسكبت الدموع من المحاجر.

كانت العاملة تمشّط شعر أم حسام وتغنّي لها حين دخل مالك، ألقى التحيّة على العاملة وقبّل رأس الأخرى، كانت العاملة دائمة الاهتمام بالمرأة بسبب عطايا مالك التي لا تنتهي، لذلك كانت تتشاجر مع أيّ واحدة تقترب من سرير أم حسام، لا تريد أن تخسر ما يمنحها إياه ابن الجود والعطاء، رحّبت به أجمل ترحيب وقالت:

- أشعر وكأنّك ابنها الحقيقي، في حين لا نرى ولديها.

- الدنيا تأخذنا بلهوها.

- ولكن أهناك ما هو أهمّ من الأم، لم يزرها أحد منهما كأنّهما خارج حدود الوطن.

- لا شأنَ لي بهما، ما يهمّني أن تبقى بأحسن حال.

- ولكن يا سيّدي إن رأتهما فستغدو أكثر بشاشة ونضارة، وربّما تتكلم.

- لا نعرف ما يحصل لهما، اتركينا وحدنا رجاء.

- عذراً على ثرثرتي يا سيّد الأكارم، ولكن حزنتُ لحالها ولحالكَ أيضاً، فأنتَ بالطبع لا ينقصكَ هم جديد.

نظر إليها بغضبٍ فأخفضت بصرها، مدّ يده إلى جيبه، وسحب نقوداً منحهم إياها.

- شكراً لك يا سيدي، فأنا لا أعمل سوى ما يحتمه علي ضميري وواجبي، هي جزء من عملي وأنتَ تحرجني دائماً بعطاياك الكثيرة.

- لا داعي للشكر، خذيها وانصرفي.

أخذتها شاكرة وهي تتمتم بالدعاء والبركة له وبالشفاء العاجل لها. جلس إلى جوارها على طرف السرير، حدّق فيها دقيقتين ثم أخفض بصره وظلّت تحدّق فيه، مدّت يدها ولامست وجنتيه، مسحت شعره كأنّها ترغب بتعويضه عن ولديها اللذين غادراها ذات ليلة بعد موت رنيم مباشرة واختفيا فجأة فلم يزرها أحد منهما بعد تلك المأساة.

شبكَ أصابعه، وكأنه مرتبك من حديثٍ يشوّش عقله، ثمّ همس بصوتٍ حزينٍ متألّم:

- تتسلل إليّ كلّ يومٍ ذكرى قديمة، تخبرني بأنني مازلتُ عالقاً ولم أتجاوز بعد.

ثمّ صرخ بألم:

- وماذا يفيدني تذكار الماضي فهي تثقب قلبي وتذبحه، فألف لعنة ولعنة على شعور جعلني هشّاً كورقة في مهبّ الريح.

نظر إليها ثمّ قال:

- سامحيني يا خالتي، ولكن أدركتُ أن القلب قد احتلّته أخرى لن تكون لي، في الوقت الذي شعرتُ فيه بغرامي سُرقت مني بسهولة ويسر، لم تكن سوى جرح عميق يضاف إلى جراحي، قاسية هي الحياة حين منحتني شعوراً مؤلماً، لن يشعر به سواي، فيا ليتني أستطيع النظر إليها مرّة أخرى دون أن أتذكّر بأنّها غدت خيبة. فعلها عمّي معي مرّة أخرى وفي كلّ مرّة أهربُ ويظفر هو، كيف السبيل إلى محاكمته وقضاة الدنيا لا يعدّونه مجرماً؟ كيف السبيل إلى مقاضاته وهو بارع في التنصّل من التهم الموجّهة إليه.

تأمّلت جبال عفرين في عينيه البنيّتين، كانتا صامدتين لا تذرفان الدمع، بل تضجّان أملا.

- هل تدركين أنني حين أتأمّلها أشعر بالحرف ينطق من جبال عينيها لغته، فيكمل ثمانية وعشرين حرفاً جميعها تحوم حول جسدها، من أجلها أتقنتُ النسيان ولكن فشلتُ في أوّل صخور للذكرى.

نامت كعادتها وهي تصغي إليه، غطّاها ثم قبّلها من رأسها وتنهد وهو يتأمّل غيوم الربيع الداكنة، الجو كئيب لا يدعو إلى التفاؤل، مشى متثاقلاً إلى سيارته وقادها إلى المزرعة، لم يذهب إلى بيته، فللشوق رأي آخر قاده إلى محبوبة لن تكون له يوماً، وصل إلى البيت الخشبي.

كانت في المطبخ تعدّ القهوة وتتطلّع إلى الخارج عبر النافذة، شاردة في ذكرياتها القديمة والحديثة، فالماضي تشعر به يتداخل مع الحاضر، لمحت شخصاً ما بالخارج، أطفأت البوتغاز بعد انتهائها من إعداد القهوة، وهرعت إلى النافذة وفتحتها.

كان واقفاً دون حراك مستنداً إلى شجرة الكرز كتمثال من البرونز، اقتربَ منها بعد أن رآها تفتح النافذة، لم ينبس بحرف، وانتظر منها المبادرة، فسألته سؤالاً تقليدياً بعد أن طال نظرها إلى السماء الرماديّة:

- هذه الغيوم محمّلة بالمطر.

- يبدو لي أنّها غيوم عابرة.

- لا.. انظر إنها رمادية.. ستمطر هذه الليلة.

نظر إلى الأرض يتأمّل الحجارة، ثم قال:

- ما رأيك أن نتمشّى قليلاً

- أعددتُ القهوة، ويسعدني أن نحتسيها معاً.

- إذن هاتيها وتعالي.

أومأت برأسها، أغلقت النافذة وخرجت ومعها صينية القهوة وجلسا على المقعد الخشبي، ناولته فنجاله، وشبكت أصابعها، عبثت بخاتم في خنصرها.

- أراكِ مرتبكة.. كأنّكِ أوّل مرّة تجالسينني.

ظلّت تنظر إلى أصابعها المتشابكة، ثمّ قالت:

- حينما أجلسُ معك تحضرني صورة مشوشة وأنا أقضم أظافري، أمنع نفسي من الصراخ وابتلع آهاتي بألم.

نظر إليها مستفهماً، بادرته النظرات وأكملت:

- لمَ تحاصرني ذكرياتي فقط حين أكون معك؟

ارتشف رشفة من فنجال قهوته، وتطلّع إلى الأفق البعيد.

- السماء تنقشع، هذا يعني أن فرضيّتك باطلة.

تأمّلت السماء معه. وقالت:

- ولكن السماء ممتلئة برماد الغيوم، ألا تشعر ببرودة الطقس؟

- هذا لا يعني أنها ستمطر.

- وإن أمطرت؟

حدّقت العيون ببعضها برهة، وأكملت:

- إن أمطرت وخسرتَ الرهان، هل ستصارحني؟

- أصارحك بماذا؟

- بذكرياتي التي تعاودني حين نكون معاً.

- أنا لا أراهن على شيء خاسر، ثم لا ذكريات قديمة بيننا.

صمتا معاً ثمّ، قال:

- أين جنّار؟

- نائمة.. حدّثتني عن كارين فأشفقتُ عليها من آلامٍ احتملتها مرغمة.

- جميعنا نحتمل الآلام مرغمين.

- ولكن هناك من لا يطيق صبراً عليها.

- هل أخبرتكِ من هو؟

- أجل صاحب هذا المكان، أتصدّق أني إلى الآن لم أره؟!

تأمّل جبال عينيها الشامختين، وقال:

- ما أشدّ براءتك يا رنيم.

ارتشفت رشفة من فنجالها بارتباك لاحظه، ثم قالت:

- لمَ قاطعتني هذه المدّة الطويلة؟

- كنتُ غارقاً في خيبتي.

- أي الديار مقصدك؟

- أمّ حسام.

- خذني ذات نهارٍ إليها.

- هل أنتِ جادة في ذلك؟

أومأت برأسها علامة الموافقة، فقال:

- إذن غداً آتي إليكِ وأصحبك.

عاد الصمتُ يلفّهما، فالكلام كثير، ومن الصعب إخراجه والتفوّه به، والمشاعر تعزف الألم على قلبيهما: سألها:

- أأنتِ سعيدة هنا؟

- أجل، نسيتُ وحدتي وذكرياتي القديمة، فجنّار تعاملني وكأنما خرجتُ من رحمها.

- امرأة نبيلة، لكنّها منعدمة الحظ.

- لقد وجدت في الابتعاد عن الجميع راحة بال، ظلّت الذكريات تقضّ مواجعها.

- ألم أقل لكِ من قبل إنّ بعض الذكريات متعبة، وتبقى العمر بأكمله تؤلمنا، لذلك خلق الله نعمة النسيان، فلو تذكّر كلّ إنسانٍ شقاءه لعاش عمره إمّا متعوساً وإما مجنوناً.

- ومع ذلك نسعى إليها بكلّ طاقتنا، فأنت مثلاً تعيشُ على ذكرياتك الجميلة مع زوجتك ولو كانت هناك ذكريات قاسية لما جلبتَ الحلوة وأهملتَ المرة، كلّنا بحاجة إلى الذكريات لنعيش في أوقات الشقاء ونسعد.

- ليت جميع ذكرياتنا جميلة.

نظرا معاً إلى السماء مراقبين غيوم الربيع الرمادية قبل أن يقف ويودّعها، وحين مشى بضع خطوات نادته، فالتفتَ إليها:

- مالك لا تقاطعني.

- لا أستطيع.

- لماذا؟

- غداً سأعرجُ عليكِ لنذهب إلى دار المسنين، ولكن لا أستطيع منحك وعداً بالمجيء إليك دوماً.

- لماذا؟

- إلى اللقاء ولا تسألي عن السبب، فالأسباب لا طاقة لي بسردها.

وغادرها وهي تفكّر بألمه، وكما وصفت جنار صاحب المكان في موقفٍ كهذا، (كأنّه يمشي على قلبه) حملت الصينية ودخلت بها إلى البيت.

- مع من كنت جالسة؟

هبّت من مكانها واضعة يدها على قلبها.

- أفزعتني يا خالتي.

- لمحتكِ من النافذة جالسة مع أحدهم، لكني لم أتبيّن من هو.

وضعت صينية القهوة على الطاولة، وجلست على الكرسي قائلة:

- إنّه مالك.

- ولماذا تجالسينه؟

- أهو ممنوع علينا؟

- يا ابنتي.. لا يجوز ذلك فأنتِ امرأة رجلٍ آخر.

- وأين هو؟

- وهل يهمّ ذلك؟ إن رآك فلن يكون بشرى بخير.

- إن كان يهمّه الأمر فلم تركني هنا وغاب، كأنّه ارتاح من حمل أثقالي.

- عدا عن ذلك، الناس لن ترحمك، ستلوك الألسن سيرتك وسيبرؤونه لأنه رجل وستكونين وحدك ضحيّة أحاديثهم الدسمة.

- أتخشين الناس إلى هذا الحد يا خالتي؟

- نحن نتقي الشبهات فحسب، ثم أنتِ غريبة عن هنا فحينها سيكون جرمكِ كبيراً ولا يغتفر.

- لم أفعل ما يغضب الإله.

- بعض الأشياء لا تغضب خالق الأكوان بل تغضب عباده، افهمي ذلك ولا تجادليني كسابقتك.

اقتربت منها، وربتت على كتفها قائلة:

- أعتذر إليكِ يا خالتي، أعدك ألا يجمعنا مكاناً لا تكونين فيه.

- رضي الله عنك يا صغيرتي.

- اسمها كارين.

- آه... نعم.

- ابنتك.. قولي اسمها بفخر، فلها اسم جميل يجب عليكِ الاعتزاز به.

صعدت إلى غرفتها، وارتمت على سريرها تبكي نوبة الصداع ذاتها، المسمار الصدئ كعادته يدقّ أعلى جمجمتها، هذه المرة راودتها ذكرى مختلفة عن أنثى تشبهها تقضم أظافرها وتحاول الصراخ، راودتها حين جاء مالك وظلّت تحوم في ذهنها، استطاعت الصمود كي لا تنهار أمامه وأمام جنّار، وحين فرغت لوحدتها ارتمت على سريرها تبكي ألمها وتنتحب ذكرياتها الشحيحة، ربّما تكون فعلاً كما وصفها مالك شديدة الألم لذلك وهبها القدر نسياناً دائماً لكن إلى متى ستصبر على هذه المواجع؟

وعند شجرة البيروفي، جلس مالك أمام الحرفين

يصلي صلاة غير مفروضة عليه، يدعو بخشوع ويستذكر ليالي الأنس مع محبوبته.

"هرعتْ إليه وعانقته قائلة (حلمتُ بك ليلة البارحة) (وبماذا حلمتِ يا كلّ عمري؟) (تفتّحت ورود الربيع من أجلك في رياض عمري، ولكنّكَ كنتَ في حلمي بعيد المنال كبعد أحلامي عن تحقيقها، ثمّ جاءت الأمطار فغسلت عبراتي المنسكبة، عندئذ خبّأتُ وجهي في ياقتك كي تبقى العمر بأكمله ولا تغيب) (وما الحزن في هذا؟) (ألا ترى أنّه إشارة من القدر إلى فراق يطول) (مجرّد أضغاث أحلام، فلا فرقة لنا ولا ابتعاد)".

عاد إلى واقعه متأمّلاً غروب الشمس، وهمس لنفسه:

- غابت شمس أيامي بغيابك، فها هي سنوات عمري تنقضي وأنتِ يا نور عينيّ ستظلّين بعيدة بعد القمر عن الأرض.

انتهت الليلة وظلّت في البال ذكرى، لم تذرف السماء دمعة واحدة، واتجهت الغيوم بعيداً، وخاب ظنّ مرام وربح مالك الرهان، فهل يربح رهانه الأخير معها؟

اجتمعت النسوة يحتسين القهوة أمام بيت شاهيناز، يسألنها عن حال كارين فهي من تتواصل مع رقيّة، والأخيرة ترسل أخبارها إليهنّ.

- حالها لا يبشّر بخير.

- لماذا؟

- هي غارقة في وحلٍ من الأحزان، زوجها مخلصٌ لزوجته الأولى، وما كانت سوى رحمٍ لإنجاب طفليه.

صاحت واحدة منهن:

- مسكينة كارين، ما إن حاولت أن تسعد بحالها حتّى عالجها القدر بهذا الحظ السيء.

- مسكينة هي جنّار، تظنّها سعيدة.

- هذه حال أي امرأة تخرج عن إطار العادات والتقاليد، ولو صبرت على حالها لكانت تزوّجت من خيرة شبابنا، لكنّها نظرت إلى الأعلى فكسرت رقبتها.

تأمّلت شاهيناز النسوة، وقالت:

- لم نعد نفهم ما يحصل هنا، حتّى روني ورقيّة لم نعرف لمَ تمّ طردهما.

صاحت روسيل:

- روني هذا لا أطيقه فهو ماكرٌ محتال، رأيته في مرّات عدّة يتفحّص أجساد النساء القادمات من حقل الشوفان.

ردّت عليها أخرى:

- أوافقكِ الرأي، لن يطرد إلا إن كان ذنبه عظيماً.

حدّقت روسيل في وجه شاهيناز، وقالت:

- هل ستخبرين جنّار عما حصل لكارين، ويحصل.

- طبعاً لا، ستموتُ كمداً وحسرة إن عرفت بأمرها، ولا واحدة منكنّ تنقل لها أيّ حديثٍ دار هنا، فهي لن تحتمل الصدمة.

- مازالت تجلد نفسها وتحمّل نفسها مسؤولية إبعادها.

صاحت إحداهنّ:

- تلك الغريبة تقطن في بيتها.

نظر الجميع إلى بعضهن، في حين بددت شاهيناز الصمت بسؤالها:

- ولمَ تركت الكوخ؟

- لا علم لي، ولكن في الوقت الذي طردت فيه أسرة روني غُيّر مسكنها.

- أهناك علاقة بين الأمرين؟

- لا أحد يعلم السبب.

صرخت روسيل قبل أن تهمّ بالمغادرة:

- غداً نعرف جميع الأمور الغامضة.

تركتهم روسيل وعادت إلى منزل السيد، فتحت الباب بهدوء، فوجدت صديقتها سفانة جالسةً في بهو القصر تتناول عشاءها، جلست بجوارها وبدأت بتناول الطعام معها.

- لماذا تتناولين عشاءك هنا؟

- كنتُ أنتظرك، لمَ التأخير؟

- نادتنا شاهيناز لاحتساء القهوة أمام دارها.

- إذا علمت السيّدة فستغضب لتأخّرك المقصود.

- لقد طلبت منّي الاحتكاك بأهل القرية، أنسيتِ ذلك؟

- ولكن إلى هذا الوقت المتأخّر.

وضعت روسيل الخبز جانباً، ثم همست:

- اسمعي.. لديّ أخبارٌ جديدة.

- ما هي؟ أتحفيني بها.

- رنيم الغريبة عن الديار، تركت الكوخ وباتت تقطنُ في مسكن جنّار.

فغرت فاها دهشة، وسألت:

- وهل تعلمين السبب؟

- السبب غامض، لا أحد على علم بما حصل.

صاحَ صوت نسائي خلفهما:

- ومن تلك الغريبة؟

نظرتا إليها فزعتين لأنها كانت تتنصّت على حديثهما، فتلعثمت روسيل قائلة بارتباك:

- إنها... إنها امرأة غريبة عن المزرعة.

تقدّمت ميديا بعباءتها الخضراء المزركشة، وجلست أمامهما واضعة ساقاً على أخرى.

- أخبراني عنها.

قصّت عليها روسيل حكايتها التي يعلمها جميع العاملين في المزرعة، شردت وتساءلت في سرّها (لمَ أخفى الأمر عنها؟ وهل الأمر بهذه الأهميّة).

نهضت غاضبة وأمرتهما بالإخلاد إلى النوم، وأن يكفّا عن الثرثرة فلا يثيرا أي حديث بشأن هذه الغريبة حتّى تتبين من أمرها.

صعدت خطوات إلى غرفتها، تأمّلت زوجها النائم، بدلت ملابسها واستلقت بجواره هامسة:

- متى ستأتيني ردودك على أسئلتي الكثيرة، التي انتظرها بفارغ الصبر؟ إلى متى ستبقى بهذا الغموض؟

استلقت على ظهرها ويداها أسفل رأسها، تتأمل السقف بألم، وأردفت:

- لم أستطع إلى الآن حلّ أحجيتك يا عزيزي، لغزٌ مبهم أنت ولا طاقة لي بحلّه، سأبقى إلى الأبد أميّة ما دمتُ عاجزة عن قراءتك.

لم يصلها سوى شخيره فأغمضت عينيها كي لا تمطر، ففاضت بالدمع الغزير.

وفي الصباح الباكر ظلّت تتأمله يرتدي ثيابه كأنّها تريد أن تحفظ ملامحه في حال طال غيابه، نظر إليها وسألها:

- ألن تغادري سريرك؟

- لا طاقة لي إذ أشعرُ بتعبٍ وإرهاق.

- هل اتصل بالطبيب؟ أهناك ألم؟

تطلّعت إلى إشراقة وجهه، وهمست:

- بعض الآلام لا تُرى وهي الأصعب في الشفاء.

- ستكون إذن آلاماً نفسية وعصبية، وبالتالي يلزمها علاج.

اقترب منها، وهمس في أذنها:

- لكلّ شيء علاج، وحتى آلام الروح لها دواء.

نظرت إليه بألم يسكن عينيها، كانت عيناه ترنوان إليها، ولكن في الثانية الأخيرة أشاح بوجهه عنها وأكمل ارتداء ملابسه، قبّلها من وجنتيها وغادر بيته.

ظلّت في سريرها تفكّر في خطتها لجلب الغريبة إلى هنا دون أن يعرف هافال بالأمر فلا يفسده، ظلّت على حالها واجمة تفكّر وتفكّر، وحين طال التفكير نهضت إلى أبنائها تشبع منهم قبل أن يباغتها الموت.

تأمّل ملامحها وجمالها في فستانها القرمزي القصير ثم قال:

- جميلةٌ أنتِ اليوم.

- أحقاً تراني كذلك يا مالك؟!

- بل أكثر من ذلك.

- شكراً لكلامك اللطيف.

كان حديثاً قصيراً، ولكنه مفعم بالسعادة لكليهما، طرق مالك الباب طرقتين ودخل فيما تسير خلفه، اقتربا من السرير، حيّاها وقبّل رأسها ولثم يديها. ثمّ قال لها بصوتٍ عالٍ كي تسمعه:

- أقدّم لك رنيم.

نظرت إليها برهة من الزمن، إذ توقّف الزمن عند الجميع ليُخلّد هذا اليوم في أذهان الثلاثة، ترقرقت العبرات في عينيها، تطلّعت إلى جبال عينيها، شعرها الأسود القصير المتموّج، جسدها المتناسق بثوبها القصير، كأنّها أميرة هاربة من حكايات الأطفال.

مدّت يدها تلتمسُ فيها العزاء وتعانق ظلّ ابنتها الراحلة، اقتربت مرام وعانقتها، ظلّت على هذه الحال تربتُ على ظهرها دقائق امتدّت إلى دهر من الزمن، ابتعدت عنها مرام، فتلمّست خدها كأنّها ترى رنيم أمامها.

ظلّ الثلاثة صامتين إلا من نفسٍ هابط وصاعد يخصّ أم حسام المتألمة، عادت وعانقتها وبكت وهي تقول:

- رنيم ابنتي، كأنّك هي بشحمها ولحمها، كأنني أراها ماثلة أمامي. آخٍ آخ يا طفلتي.

حدّق مالك في الاثنتين، لقد تكلّمت أخيراً، نطقت بسهولة كأن الكلمات كان تجري على لسانها ولم تنقطع يوماً، عانقها حين ابتعدت عنها مرات والتحمت دموع الثلاثة فانسكبت ألماً وقهراً. قال مالك:

- أشكركَ يا الله، أخيراً تحدّثتِ يا خالتي وأسمعتني صوتك الشادي.

- أعتذر منك يا ولدي، فقد أربكتك معي.

- لا سامحني الله على خذلاني لكِ.

- أنتَ والله لم تخذلني، بل كنتَ الابن البار لي.

نظر إلى مرام، وقال:

- أشكركِ يا رنيم لأنك أتيتِ معي إلى هنا.

ثم استدار إلى أم حسام قائلاً:

- حدّثيني عن آلامك يا خالتي، انفضي عن كاهليكِ الأحزان.

تأمّلتهُ، وتأمّلت مرام الساكنة في حضنها، قبّلتها من رأسها ثم قالت:

- وهل يضرّ الشاة السلخ بعد ذبحها، لم أعد أشعر بأدنى شعور، أتدرك معنى أن تكون مخدّراً فلا طاقة لك بفعل شيء، هكذا أشعر، رأسي فارغ إلا من ابتسامتها وضحكتها وعبثها، يداي مقيّدتان لأنّهما لم يعانقاها مذ فترة، لا طاقة لي بتحريك قدماي لأنهما لن تتحرّكا إليها، وحين أستمع كل الأصوات تأتيني بصوتها، حين انظر أراها تسكن العيون جميعها. لم تكن ابنتي فقط بل كانت حياتي، وهل يعيش المرء دون حياته؟ كانت وطني وكنتُ حضنها الدافئ.

صمتت قليلاً حتّى ظنّنا الوجع أخرسها مجدداً، عادت تحكي عن ولديها:

- صدمتي بموت طفلتي أفقدتني لذّة الجلوس مع الآخرين، فما بالك حين عرفت أنني فقدتُ ولديّ أيضاً، صدمتُ بغيابهما عن حياتي وكأن لا وجود لهما، لم أعرف عنهما شيئاً منذ حادثة رنيم.

نظرت إلى مالك، وسألته:

- هل بحثتَ عنهما؟ إنهما باران بي، ولا يعقل أن يتركاني دون سبب واضح، أخبرني أنك فتّشت عنهما جيداً.

- بحثتُ عنهما كثيراً، ولكن لم أعثر لهما على عنوان.

- قلبي يخبرني بسوءٍ قد حصل لهما.

اعتدلت مرام في جلستها، ونظرت إلى مالك، ثمّ إليها، وقالت:

- هوّني الأمر عليك يا خالتي، سيعودان ويسوّغان غيابهما.

- كيف أهوّن على نفسي الألم، وقد أضحى صاحب القلب، وكلّ الجروح أهله وإخوته.

ظلّت تتحدّث وتتحدّث، وكأنّما ألف عام مرّت بها وهي صامتة، كانت تشعر بألم القطن الذي ينتزع منه الأشواك، هكذا كان شعورها وهي تروي ألمها، أنها تنزع سهام الوصب من قلبها ليمتلئ بجروح الحياة التي لن تبرأ مهما طال الزمان.

طالت الزيارة حتّى طردتهما العاملة، ودّعاها على أمل لقاء قريب وخرجا إلى عفرين مسرورين بعودتها إلى الحياة، ورغم أنها عادت مجروحة الفؤاد، مكلومة الروح ولكن أوّل الغيث قطرة.

أوصلها إلى بيت جنار، وكانت هذه الأخيرة تنتظرها عند مدخل الكوخ جالسة على صخرة صغيرة، وما إن رأتها حتّى هرعت إليها.

- أين كانت مع مالك في هذا الوقت من الليل؟
- عند أم حسام، سأخبرك يا خالتي ما حدث.
- ألم تعاهديني ألّا تواعديه سراً؟
- نعم، ولكن اتفقنا أن يأخذني إليها قبل أن أعاهدك، سأخبرك بما حصل.

أمسكتها بيدها وسحبتها إلى البيت قائلة لها:

- وفّري ما تريدين إخباري به لمن ينتظرك في الداخل.

سحبت يدها، ووقفت متسائلة:

- ومن ينتظرني؟

- ادخلي لتعرفي.

دخلت البيت مرتبكة، فوجدت هافال واقفاً ينتظرها، وكان قد رأى ما رآه من النافذة، اقتربَ منها في حين ظلّت واقفة تحدّق به، وانهالت على وجنتها صفعة آثمة، وضعت يدها مكان الصفعة وصرخت، هرعت إليهما جنّار قائلة:

- ليس هكذا تسوّى الأمور يا سيّدي.

- اتركينا وحدنا.

- ولكن.

صاح بغضب:

- قلتُ دعينا وحدنا.

تركتهما وغادرت إلى غرفتها، اقترب من مرام أكثر حتّى كاد أن يلاصقها وعيناها على الأرض مطرقة، سحبها من يدها وأجلسها على الأريكة ومن ثم جلس بجوارها، شبكت يديها في حضنها دون أن تنظر إليه وإنما كانت تنظر إلى يديها، بينما كان يحدّق خارج النافذة عبر القضبان يتأمل السحب الربيعية، ثم نظر إليها بتمعّن، وسألها:

- أين كنتما؟
- عند أم حسام.
- ولماذا أخذك إليها؟
- أنا من طلبت ذلك، لأتعرّف إليها، وقد جعلتها تنطق بعد أن مرّت على الحادثة سنة كاملة.

فغر فاه دهشاً مما قالته:

- وكيف نطقت؟
- كان أمراً عفويّاً، متى رأتني تذكّرت ابنتها الراحلة، لم تكن تراني بل تراها. كحال مالك حين يكلّمني.

- اخرسي، ولا تأتي بذكره على لسانك وإلا قطعته.

وقفَ، ومشى في أرجاء الصالة ويداه خلف ظهره، ثم نظر إليها:

- أوهذا ثوب تخرجين به مع شابٍ غريب؟!!

- أنت من ابتعته لي.

- لا تكوني حمقاء، لم أبتعه لتخرجي به مع ذاك الغبي.

اقتربَ منها، وأمسك بشعرها، صاحت مرّة أخرى.

- هذا آخر أمر لي، حذار أن تخرجي خارج هذا البيت، إيّاكِ أن يجمعكِ به مكان واحد، لن أكرر الأمر يا رنيم وإلا فسترين ما لا يروقك، مازلتُ صابراً على أفعالك الحمقاء، فلا تدعيني أتحوّل إلى إنسان لا تعرفينه.

وتركها، مشى إلى عتبة الباب وهمّ بفتحه، إلا أنه استدارَ، وأشار إليها بسبّابته:

- هذا آخر تحذير، أتمنى أن تفهمي ذلك.

صفّق الباب خلفه، فسقط قلبها من مكمنه، هرعت إليها جنّار حين سمعت إغلاق الباب، حدّقت بها، ثم جلست بجوارها قائلة مستنكرة أفعالها:

- ألم أحذّرك من مغبّة أفعالك؟

ابتسمت مرام بألم، وقالت:

- لقد أنجزتُ اليوم إنجازاً رائعاً، فما تضيرني صفعته هذه؟
- وما كان إنجازك يا أذكى أهل عصرك؟
- تكلّمت أم حسام بسببي.
- وكيف ذلك؟

روت لها ما حصل هناك بتفاصيل لم تمل منها جنّار، بل كانت دهشة مما حصل ثم قالت:

- هذا لا يسوّغ خروجك من البيت مع مالك بثوبك القصير هذا.

تأملتها ثم أخفضت رأسها، وقالت:

- لك حق.. لم أفكّر في عواقب الأمور.

صمتت قليلاً، ثم قالت:

- اسمعي يا خالتي إنّها تمطر.

- سيكون مطراً مفيداً للزرع، مطر الربيع يحيي الإنسان.

- أشعر أنّ طقس مايو يمثّلني.

- وكيف ذلك.

- متذبذب مثلي، أيامه حارة وباردة، ماطرة وجافّة، كأيّامي هنا. وكحال الليالي التي أسهدُ بها.

صمتا معاً، والكون صمت لوحدتهما إلّا من بعض القطرات تطرق النافذة في حنينٍ إلى أيامٍ دافئة. مدّت يدها مرام قائلة:

- اقرئي كفّي يا خالتي.

- أهذا وقته الآن؟ إلى الآن وألم معدتي لم ينجلِ بسبب غضبه منك، فيما تفكّرين بأمور حمقاء.

- وماذا أفعل؟ الذنب لا يقع على عاتقي وحدي.

- الذنب لا يقع إلا عليكِ، مشكلتكِ أنّك إلى الآن تستهينين بهافال ولا تعرفين من يكون.

- دعينا منه، وخذي كفي واقرئيه، ماذا تقول لي الأيام القادمة؟

أمسكت بكفّها وداعبت خطوط يدها، ظلّت تتأمل الخريطة المرسومة بباطن يدها وقالت:

- هناك حقائق ستُكتشف قريباً، ستؤلمك ولن تجدي إلى الراحة سبيلاً، ستغدين أكثر بؤساً مما أتت هذه الأيّام، وأكثر تعاسة مما أنتِ عليه الآن.

حدّقتا ببعض ثم قالت:

- إن تكشّفت هذه الحقائق فالكل سيتآمر عليكِ والكل سيلومك ويعاتبك، فاهربي حينها.

- إلى أين أهرب؟

- إلى أيّ مكان لا تصلك فيه النيران المستعرة. فأمورك هنا ستتشابك قريباً.

- أول مرة أراكِ تحدّثيني عن المستقبل.

- كنتِ في كلّ مرّة ترغبين في سرد الماضي.

- اصدقيني القول، هل كنتِ تعبثين بذاكرتي كذلك؟ أم كانت الأمور واضحة كالشمس.

- أخبرتكِ قبلاً، أنا لا أعبث بذاكرتك.

- إن تشابكت الأمور وتعقّدت فهل ستقفين بجانبي؟

- أتمنّى ذلك، ولكن من يقف في وجه الطوفان.

- أفزعتني يا خالتي، فكلامك الليلة مبهم ومليء بطلاسم أعجز عن حلّها.

- اذهبي الآن ونامي، وغداً تفكّرين كما تشائين.

قبّلتها وغادرت إلى سريرها، راودتها أفكار عديدة عن قسوة هافال وحنان مالك، وكانت المقارنة بينهما منعدمة.

الآن فيما هي مع مالك لم تعد تنتابها أيّ ذكريات تؤلم رأسها، بقيت فقط بضعة أسئلة تحوم في رأسها تبحث عن إجابات.

وفي الصباح الباكر جاءتهم ضيفة غير مرحّب بها.

طرقت ميديا الباب طرقاتٍ متتالية، وانتظرت حتى فُتح، شهقت جنّار حين رأتها وصاحت:

- سيّدتي.

أزاحتها بيدها، ودخلت دون استئذان متأمّلة أثاث البيت المتواضع، ثمّ سألتها بعنجهيّة:

- أين هي؟

- من تقصدين يا سيّدتي؟

- ضيفتك.

حدّقت جنّار بها، ثمّ اقتربت منها، وقالت:

- وماذا تريدين منها؟ إنها مسكينة لا حول لها ولا قوّة.

- لا شأن لكِ بما أريد، ناديها فأنا راغبة في التعرّف إلى من يتحدّث عنها الجميع.

- ولكن يا سيّدتي.

- مازلتِ تكثرين الكلام، وأنا لا أحبّ كثرته، نادها على الفور.

- حسنٌ كما ترغبين.

غادرت جنّار الصالة بينما ظلّت ميديا واقفة تتأمّل المكان بازدراء. دخلت جنار غرفة مرام وأيقظتها بسرعة، أفاقت وهي نعسة، قالت لها:

- السيدة الكبيرة في الأسفل، ترغب في التحدّث إليكِ.

هبّت واقفة، وسألتها بفزع:

- وماذا تريد مني؟

- لا أعرف، ولكن قدومها لا ينذر بخير.

- حسنٌ، سأبدل ملابسي وأتبعك.

- إياكِ والتأخير.

أومأت برأسها علامة القبول، بدّلت ثيابها، صففت شعرها القصير، همست لنفسها (كوني واثقة من نفسك يا رنيم، لا تريدُ بكِ السوءِ فأنتِ لم تقتربي من رجلها، لا تريدك

أنتِ يا رنيم، لا تريدك أنت) ظلّت ترددها مرّات عدّة، وهناك في الأسفل كانت جنار تتأمّل السيدة والأخرى تتأمل أثاث الصالة. جاءت رنيم رافعة رأسها بثقة كأنها أميرة الحكاية، وقالت بأدبٍ واضح:

- مرحباً بكِ يا سيّدتي.

حدّقت بها، وتأمّلتها من أعلى إلى الأسفل، ومن ثم قالت:

- لنتكلم في الخارج.

أومأت برأسها وتبعتها، وقفت جنّار تحت شجرة الكرز، وبادرتها بالأسئلة:

- منذ متى وأنتِ في ديارنا؟

- قرابة ثلاثة أشهر يا سيّدتي.

- ولمَ انتقلت من ذاك الكوخ؟

- بسبب بعده عن البيوت، فأنا غريبة عن هذا المكان.

- هل حدثَ شيء ما؟

- لا .. لم يحدث أي شيء.

- وهل رآك زوجي – صاحب الأرض التي بها تمكثين؟

- لا يا سيّدتي، لم نتقابل قط.

- وكيف تعيشين هنا دون إذن منه؟

أطرقت رنيم برأسها دون إجابة، طال الصمت ولم تعثر على جوابٍ محدد، فقالت ميديا:

- لا أهل لكِ ولا سكن ولا أصدقاء، سأوفّر لكِ ذلك بشرطٍ واحد. سأجعل لك أسرة.

- ما هو سيّدتي؟

- قبل البدء بالكلام، لا أريد أن يصل ما بيننا إلى أيّ كائن ولاسيما جنّار.

- لكِ ما تطلبين.

- أنا امرأة لن أعيشَ طويلاً ولديّ من الأبناء أربعة، جميعهم يحتاجون الرعاية والاهتمام، وأخشى إن دنا أجلي أن يستجلب زوجي امرأة أخرى قاسية لا تعرف الرحمة، تقسو على صغاري وتحتلّ أرضي فتقتلع أزهار العمر من محرابي.

- وما وظيفتي يا سيّدتي؟

- أن تتزوّجي سيّدك.

شهقت مرام وتراجعت إلى الخلف بضع خطوات، همّت بالركض ولكن خافت من تداعيات الأمور، خبّأت كفيها ببعضهما ففيهما البارحة عرفت أن الأمور ستتشابك، وها قد بدأت بالانعقاد.

- ماذا؟

اقتربت منها، وقالت:

- ولمَ لا؟ سيكون لك ما ترغبين من الحلي والثياب، وستكونين السيّدة الأولى في المزرعة.

- ولكن هبي يا سيّدتي أنني امرأة متزوّجة.

ضحكت ميديا، وقالت:

- إن كان لكِ زوج أو أسرة فلن يتأخّر أحد عن العثور عليكِ، ثلاثة أشهرٍ أنتِ هنا، أين هم؟ هل عثر عليكِ أحدهم؟ أشكّ أنّ هناك أسرة كانت تعتني بكِ.

ظلّت الأخرى صامتة تستمع إلى هذا الهذيان، ثم أردفت ميديا:

- ليّ شرط صغير.

نظرت إليها تحثّها على سرده.

- وظيفتك الاعتناء بالصغار وبزوجي، ولكن لن تكون علاقة جسديّة بينكما.

- وهل سيوافق على هذا الشرط؟ لا أعتقد أنّ رجلاً يعجبه ذلك.

- أنتِ ستجعلينه يوافق، بذكائك حين يرى حنانكِ على الصغار سيسكت.

- وما أدراكِ أنني امرأة غير قاسية.

ابتسمت ميديا وقالت:

- لأنّكِ امرأة مكسورة، وأيّ امرأة كذلك فلن تفكّر بقسوة أبداً.

تأمّلت مرام باب البيت الخشبي كأنما ملّت من حديث السيّدة، أكملت ميديا:

- هذه أوّل مرة تجادلني امرأة هنا.

حدّقت إليها مرام بعينيها كسنّور بري، وأجابت:

- أنا لا أجادل.. أتعرّف إلى مجريات الأمور فحسب.

- سأتركك تفكّرين، ولكن إيّاكِ والتحدّث إلى أحد بهذا الشأن.

ظلت تفكّر دقائق بعد رحيلها، وبعدها دخلت المنزل، هرعت إليها جنّار تستطلع الأخبار.

- ماذا تريد؟

- إنّها مجنونة، أقسم بالله إنها كذلك.

- وماذا في جعبتها؟

روت لها ما طلبت منها سيّدة المكان، وطلبت منها عدم إيصال هذا الكلام إلى أحد.

- الأمور لا تبشّر بخير، إذا وضعتكِ في دماغها فلن تخلصي من المشاكل.

- وما يتوجّب عليّ فعله؟

- كما تحدّثنا البارحة، إن تعقّدت الأمور واشتبكت أكثر فاهربي وانجي بنفسك.

مرّت الأيام ولم يحدث شيء جديد، الكلّ غارقٌ في أفكاره، وقفت مرام وحدها أمام النافذة تحدّق في اللاشيء، وتفكّر في طريقة تخرجها من الأزمة، إن وضعتها السيّدة في رأسها فستتسبب بطرد هافال من هنا، ولاسيما إن علمت أن هناك علاقة زوجية بينهما، تأففت بضجر كأنّها تعبر طريقاً لا يخصّها، بعد تعبٍ وألم ومشقة يضيع كلّ شيء في لمح البصر ولا علاقة لها بهذا كلّه سوى حظّها السيء الذي جلبها إلى هنا، فكّرت في الجميع، فالكلّ في همّه غارق، وهمّها لا أحد يراه، لا أحد يلحظ حزنها، وكأنّها لا تعرف الألم، فهي دائماً من تواسي ولا أحد يواسيها.

أدامت النظر إلى أشجار الكرز، فأبصرت هافال قادماً من بعيد، دققت في ملامحه، أوّل مرّة تشعر ببعده عنها كبعد السماء عن الأرض، خيبتها به كخيبة طفلٍ صنع طائرة ورقية، فغدرت به الريح ولم تأتِ، شاخ قلبها من الألم، ولم يصل إليه.

كان الباب مفتوحاً حين دخل، اقتربَ منها، ووقف خلفها، سألها:

- كيف أنتِ؟

لم تنظر إليه.

- بخيرٍ.. هكذا تقول الحكاية.

- أيّ حكاية؟

- التي ترغب بسماعها.

- أفصحي؟

استدارت إليه قائلة:

- إن كنتَ شهريار فأنا شهرزادك، سأقصّ عليكَ كل ليلة حكاية جديدة، ولكنّ صبري قليل، لذلك ستمنحكَ حكايتي شهراً واحداً فحسب.

- وبعدها؟

أعرضت عنه.

- تسرّحني بإحسان.

نظر إليها بطرف عينيه، وفكر قليلاً ثم زفر، وألقى شتيمة صغيرة، أعرضت عنها وتجاهلتها. اقتربَ منها، أمسك بكتفيها، فأدارها إليه.

- دخولك إلى المزرعة كان بإرادتك، ولكن الخروج منها سيكون بإرادتي.

نفضت يديه عنها، وصرخت في وجهه:

- لا.. لم يكن دخولي إلى هنا بقصدٍ مني، زواجي منك كان ذنباً كبيراً ويجب التفكير عنه، مكوثي في ذاك الكوخ كان خنوعاً مني، جلوسي هنا دون سبب يذكر هو غباء مني. لذلك أريد إصلاح الأمر الآن.

- وترغبين بالهروب.. بعد أن حميتك من الذئاب البشرية، وفرّتُ لكِ المسكن وابتعتُ لك أجمل الثياب، ماذا تريدين أكثر من ذلك؟ لمَ تنكرين الفضل؟

- سأمنحك عرفاني وشكري، وقد وهبتك جسدي من قبل، فأرجو منكَ أن تطلق سراحي.

- لن أفعلها ما دامَ فيّ نفسٌ يخرج.

صاحت مرّة أخرى:

- سأخبر صاحب الأرض عنك.

ضحك كثيراً حتى بانت نواجذه، وسحبها من يدها إلى غرفتها، وسألها:

- أين جنّار؟

- خرجت إلى النهر لتجلب بعض النعناع.

ضمّها إليه، وإلى قلبه المحروم منها، ثم همس في أذنها:

- لكم اشتقتُ إليكِ، لا تقابليني بهذا الجفاء ثانية.
- مشاعرك هذه كيف تستطيع السيطرة عليها؟ لا أستطيع تلمّسها ولا الإمساك بها.
- أنا متعبٌ يا رنيم، كليلٌ كأرضٍ مستوية تمشي الكائنات عليها كأنّها تمشي على الفؤاد، أشعرُ بوهنٍ ينخر عظامي كشجرة عاشت عمرها تحلم بالاستلقاء، وحين استلقت كان استلقاءها الأخير.

أول مرة تشعر بالألم الغارق فيه، لذا عانقته أكثر بصمت أراحه كثيراً، ثم أردف:

- أنتِ السرّ الوحيد الذي يضنيني، لستُ أدري إن كنتُ أأبالغ أم لا، ولكن بوجودك أشعر بسعادة وارتياح ثمّ بألم وشقاء، أخشى إغماض عينيّ فأتخيّل حياة لستِ فيها، أرجوك يا رنيم لا ترحلي فأنا بحاجتك، أرغب في البقاء معكِ عمراً لا ينقضي.

في تلك الليلة تعانقا، ورسما الحب معاً، فشعرت به يدغدغ فؤادها، ويرسل إشارات هناء إلى روحها، دعت الله ألا تنتهي الليلة، ففيها أول مرّة يعترف بمشاعره وبضعفه، كيفَ

تهرب منه وكل الدروب تؤدي إلى قلبه، غرقت في بحرِ مشاعرها وأبقتهُ نائماً على صدرها حتى بزغ الفجر.

وقف يتأمّل إشراقة وجهها الوضّاء، وأدامَ النظر إلى وجهها، ظلّت العيون تحدّق في العيون حتّى عانقها عناقاً حاراً دافئاً، وانهمرت دمعة واحدة من عينيه، مسحها قبل أن تلمحها، وضمّها إلى صدره حتى كاد يكسر أضلاعها، كان يرغب أن يخبّئها في قلبه، ثم طوّقها بيديه الاثنتين وقبّلها من رأسها قبلة امتنان، ثم غادرها ببطء كأنّه راحل إلى مثواه الأخير كأنّ هذا العناق الأخير.

خرج دون إلقاء التحيّة على جنّار، وقفت في الخارج تتأمّل مشيته كأنه يمشي على قلبه، هكذا حدّثت نفسها بأنّه عاشق، هذه المرّة الثانية فهل سينجح حبّه؟ ظلّت واقفة تستذكر سعادة كارين بهذا العشق، ورنيم تعدّه هماً تصعب إزالته.

دخلت المطبخ تعدّ الطعام، وما إن فرغت من إعداده حتى انتبهت إلى أن مرام لم تأتِ بعد، صعدت إليها وطرقت الباب فجاوبها الفراغ، طرقته مرّات عدّة دون سماع صوتٍ لصغيرتها، فتحته ببطء ودخلت، وجدتها جالسة على الأرض ممسكة برأسها تنتحب نحيباً صامتاً، هرعت إليها وأمسكت بها.

- رنيم ما الذي حصل؟

- ذكرياتي تثقل عليّ يا خالتي، مازالت تطرق رأسي بمسمار صدئ.

صرخت، وبكت، وعبرت العبرات خديها، فانسكبت.

- ماذا فعلتُ لأجني كلّ هذا الألم؟ ماذا زرعتُ لأحصد هذا العذاب؟ من قال إنّ روحي جدار لا ينهدّ، وإن رأسي متين لا يتألّم؟

تأوّهت بقلب متألّم، ساعدتها جنّار على النهوض، وأجلستها على السرير، وجلست بجوارها.

- حدّثيني بما رأيتِ، انفضي عن كاهليكِ الهمّ يا ابنتي.

حدّقت بها كأنّها تحدق في فراغٍ ثم همست بعيون جاحظة ممتلئة الدموع.

- نوافذ كثيرة لا تطلّ على شيء، أعداد هائلة من الصحفيين يصوّرون أحداثاً مباشرة، تصطفّ أشجار البيروفي على طول الرصيف تغطي الأتربة جذوعها، أشخاصٌ دون أسماء، نبض قلبٍ يدقّ بسرعة، ساعة جدارية تركض مسرعة وأغنيات غير مفهومة.

نظرت إلى جنّار، ثم أمسكت بيدها.

- كلّ منّا يمرّ بلحظاتٍ يحتاج فيها إلى الرحيل من مكان يخنقه إلى مكانٍ يريّحه، هل تدركين معنى ألا تجدي مكاناً تذهبين إليه؟

غطّت وجهها وبكت، عانقتها جنّار، ومسحت عبراتها قائلة:

- كلّ مرّ سيمرّ، لن يدوم الحال على هذا يا صغيرتي.

- هل تقرئين كفّي؟ أريد استعادة جزء من روحي بابتكار ذكريات ليست ملكي، أريد أن أكون كالبقيّة أضيفُ إليها ما ليس فيها، لعلّها تأتيني دفعة واحدة، لا كدفعات فتصيب عقلي بالشلل.

- لن أقرأه كي لا تصابي بعقدة الخيبة، ولا تعبثي بذاكرتك، دعيها كما هي.

- لا شيء يؤذي فؤادي يا خالتي أكثر من كوني عالقة في مكانٍ لا أنتمي إليه، متعبة جداً رغم محاولاتي المستمرّة للضحك أمامكم، ولكن بالقلب حرقة ولوعة كحرقة طفل أبكم علقت النيران بثيابه لكن النيران في قلبي أنا، قلبي هذا (وأشارت إلى قلبها) كأنه خاوٍ، فلا يشعر بوجعي أحد.

عانقتها عناقاً حاراً ثم قالت:

- أعرف هذا الشعور مع أنني لم ألمسه قبلك، أنا وصلتُ إلى مرحلة الصراخ ثمّ تخطيّتها، الآن بهتت جميع الأشياء بنظري، أصبحتُ من فرط الحزنِ جليداً، انكسرتُ ولم يسمع صوتي أحد، بكيتُ ولم يلمح دموعي أحد، وفي النهاية اخترتُ الصمت رغم حاجتي إلى الصراخ، وجعٌ هادئ ولكنّه يحرق الروح.

لقد غلب قلبهما الأسى، بكتا ولم تعد دموعهما تعني أكثر من كونهما متعبتين، أرهقهما الألم الذي هدّهما، وأرهقتهما الآلام التي لم تأتِ بعد.

- ماذا تريد من رنيم يا مالك؟

استند إلى الجدار واضعاً يديه خلفَ ظهر.

- أتيتُ لاصطحابها إلى أم حسام.

- إنّها مرهقة.. لا تودّ الذهاب إلى أي مكان.

- هل حصل شيء ما؟

- لا.. ولكن

صمتت جنّار، وظلّت واجمة قد سدت الباب بجسدها كي لا تفسح المجال له للرؤية داخل البيت. حدّقَ بها ثمّ ارتسمت ابتسامة على شفتيه.

- حسنٌ كما ترغب وترغبين.

غادرها فغاب عن ناظريها، دخلت وأغلقت الباب خلفها. وقفَ خلف الأجمة يفكّر في طريقة للقياها دون أن يسيء إليها، ظلّ على هذه الحالة فترة من الزمن ولم يصلهُ

سوى الصمت، لم يعثر على قرار يساعده، ركبَ سيّارته وقادها إلى أمّ حسام، دخل عليها وجلس بجوارها مبتسماً، تطلّعت إليه فلم تجد معه أحداً، فسألته:

- أين هي؟ لمَ لمْ تجلبها معك؟

- إنها متعبة.

- هل عرّجتَ عليها قبل مجيئك إلي؟

- طبعاً يا خالتي، ولكن لم تستطع القدوم معي.

- حسناً.. أرجو الاطمئنان على أخبارها.

- مالك يا ابني.

- نعم يا أمّاه.

- ما أعذبها من فمك، اعتني بها وكن لها كما كنتَ لغيرها.

- أرجو ذلك من كلّ قلبي، لكن القدر لعب لعبته قبل أن أنتبه لمن لعب خلفي، فربح وخسرتُ.

- ما قصدك؟ أكانت لغيرك؟

- ولم تزل لغيري.

طأطأت رأسها، وتمتمت بالاستغفار، ثم قالت:

- أعتذر منكَ لتفوّهي بأمور لا يجوز لي البوح بها، ولكن اصدقني القول هل فُتنتَ بها؟

- فُتنتُ بها ولها حتّى ضلّ قلبي وما هدي إلا إليها، أثارت في نفسي زوبعة من المشاعر، أخذت قلبي وأوقعت في فؤادي الشوق والحنين، جعلتها قُبلة أرتادها ولكنها كانت قبلة لغيري فصلاتي في محرابها باطلة.

- وصبرتَ على المواجع، واحتملت كلّ هذا الوجع.

- إن لم اصطبر عليها فعلى من اصطبر.

- عزائي لكَ أنها ليست ملكك.

- سأنتزعها كما أنتزع فؤادي من مكمنه، وحينها ستكون لي بقلبها وروحها.

- لا تضرّها، فيضرّك الخالق.

ابتسم، وقبّلها من جبينها، وغادرها يفكّر بخطّة ينتقم لراحلته، دون أن يعرف أحد بما ينوي عمله، وصل إلى المزرعة وترك سيارته عند بيته، وغادر مشياً إليها، وجدها تتحدّث مع زوجة عمه، اقترب منها ووقف خلف الجدار يستمع إليهما، فما الذي جلبَ تلك إلى منزلِ هذه المسكينة.

- ألم تفكّري بعد؟

- فكرتُ به.

- إذن ستنفّذين ما طلبته منكِ.

حدّقت مرام بها ملياً، ثمّ قالت:

- ولمَ أنتِ واثقة من جوابي أنّه سيكون لصالحك؟

- لأنه لا خيارات متاحة لديكِ.

- لي خيارٌ واحد، الخروج من هنا.

- بهذه البساطة.

- وماذا ستفعلين إن رفضتُ طلبك؟

- لا تجرّبيني، بمقدوري فعل الكثير.

تمهّلت قليلاً، وفكرت في أن تداهنها، ريثما تستطيع الهرب من هنا، فلا مكان ترحل إليه الآن، وهي لن تفعل لها أي شيء طالما هي تحتاجها.

- طال صمتك كثيراً.

انتزعتها من شرودها.

- دعيني أفكّر يا سيّدتي، فالأمر ليس بهذه السهولة، إنه لأمر كبير وليس بهيّن، دعيني أرتّب أفكاري وسيكون لكلتينا جواب يريحنا.

ابتسمت ميديا.

- ذكيّة ولبقة أيضاً، ولكن إن فكّرت في اللعب فسيكون هذا آخر يوم في عمرك.

- لا أستطيع اللعب في أرضك يا سيدتي، فالمكان يأتمر بأمرك، ولا طاقة لي بفتح جبهة لا أستطيع مواجهتها.

- أحسنتِ.. يومان ويصلني الجواب الأخير.

- حسنٌ، لكِ ذلك يا سيدتي.

تأمّلتها كثيراً، ثمّ غادرت بخطوات بطيئة لتختفي كما جاءت، أمسكت قلبها وهو يدقّ بعنف، كانت فزعة من الوقوف أمام التيّار، استطاعت الانهيار بعد هذا الصمود الوهمي، وامتلأت العيون بالدموع، ناداها. شهقت فزعة واستدارت إلى الخلف.

- أفزعتني يا مالك، ماذا تفعل عندك؟

اقترب منها، وسألها:

- ماذا تريد منك؟

حدقت بعينيها، ثم قالت بجفاء:

- هذا أمر لا يخصّك، ولا تتجسس عليّ مرّة أخرى.

استدارت قافلة إلى البيت، أمسك يدها.

- انتظري.. ماذا صنعتُ لأجني منكِ هذا الجفاء.

نظرت إليه، وإلى يده الممسكة بها، فأفلتها.

- استمعتُ إلى حديثكما.

ظلّت صامتة تتأمّل حجارة الطريق.

- عليكِ الهرب من هنا.

- إلى أين؟

- إليّ.. اهربي إليّ.

نظرت إليه؟

- وهل ينفع ذلك؟

- صدقيني سأخلصك من كلّ هذا الخراب.

- بأي صفة؟

- سنتزوّج.

تطلّعت إليه مستفهمة حائرة من جرأته، وكان يقابلها النظرات بنظرات أشدّ حدة، يريد منها الاعتراف بزواجها من عمّه، طالت النظرات بينهما، وبعدها قالت:

- لمَ الكلّ مندفع إلى الزواج مني.

ثمّ ابتسمت.

- هل أنا صفقة القرن؟ أم وريثةٌ أحد الأثرياء؟

اقتربت منه، وسألته:

- هل أحببتني يا مالك؟

- أتعرفين أنه مذ أسكنكِ الله هنا وددتُ لو أن كل الدروب إليكِ لا تنتهي، أحببتك فلا أنكر ذلك إذ بثُ أراكِ في وجوه الجميع، أتيتِ إلى قلبي فكنتِ العوض الجميل، كنتِ أكثر من العوض.

ابتسمت ابتسامة طفيفة ظهرت في عينيها، لكنها لم تظهر في تعابير وجهها، ومع ذلك أضاءت الوجهين ومن ثمّ قالت:

- لا تحبّني، لن أكون لك يوماً، ولا تعد إلى هنا مرّة ثانية.

- وماذا ستفعلين معها؟

- أتصنعُ القبول ريثما تنتهي المسألة؟

- وإن تعقّدت.

- ستأتي حينها وتخلّصني.

وبكت دون صوت، انهمرت الدموع فحسب، قاوم رغبة مفاجئة في ضمّها وأخذها بين ذراعيه، يريد تقبيلها وطمأنتها أنها ستغدو آمنة معه، ولكن في النهاية ضبط نفسه وضمّ قبضة يده، ثمّ قال:

- أشعر أنني المسؤول عنكِ ويجب عليّ الاعتناء بكِ، أرغب بشدّة في ذلك.

- شكراً لمنحي شعوراً كهذا.

نظرت إلى السحب البيضاء، ثمّ إليه.

- أستمطر الليلة؟

- لا أعتقد، فالجو دافئ.

- لا نستطيع أن نتنبأ عن الطقس في شهر مايو.

غادرها وتركها خلفه، صفقت الباب وأسندت ظهرها إليه، اعتراها صداع شديد عند مغادرته، دخلت الغرفة وجلست على طرف سريرها، ضغطت بأصابعها على صدغيها تحاول تسكين الألم، انتابها الوجع عينه وسرعان ما ازداد سوءاً، إذ ترددت في ذهنها خيالات كثيرة، أصوات لرجال يصرخون ويغنّون، وفجأة يأتيها شاب دون ملامح ويضمّها إليه، كان له جسد مالك نفسه، ضغطت أكثر على صدغيها، ما يبقيها هنا

إلى الآن؟ لمَ لا تبادر بالخروج من الباب؟ كوّرت راحتيها وجاهدت ألا تبكي، كانت تردد في سرها (أنتِ أقوى من أيّ ألم) (أنتِ أقوى يا رنيم) ويناديها صوت بعيد كثيراً كأنّه صدى (ابحثي عن اسمك، أنتِ لستِ رنيم) وهنا بكت وانتحبت وناحت وناجت الخيالات أن يتركوها فلا يؤذوها.

دخلت جنّار، فرأتها على هذه الحالة، هرعت إليها، وسألتها:

- ما بكِ يا صغيرتي؟

نظرت إليها، والدموع أغشت بصرها.

- أيعقلُ أن يكون مالك جزءاً من ذاكرتي؟
- مستحيل.
- لمَ إذن كلّما رأيته أتذكّر ذكرى شبيهة به؟

حدّقت بجنار برهة من الزمن، ثمّ نهضت مسرعةً واتجهت إلى الباب، نادتها جنّار:

- إلى أين تذهبين؟
- لن أتأخر، سأعود حالاً.

خرجت من البيت مسرعة بعد أن مسحت دموعها بكمّ ثوبها، ركضت جنّار خلفها، لكنّها كانت سريعة في العدو فلم تستطع اللحاق بها، ركضت مسرعة وتعثّرت بحجارة الطريق، وقفت مرّات عدة وسال اللعاب من فمها، تكاثف الدمع وانهمر، لم تشعر بحرقته.

وصلت منهكة، أمسكت رأسها بكلتا يديها واقتربت منه، كان تحت شجرة البيروفي يمزّق أوراقها كعادته، تطلّع إليها وتأمل شحوب بشرتها، عبرات عينيها عبرت إلى قلبه فأوجعته:

- ما أتى بكِ إلى هنا في هذا الوقت؟
- ما الذي تعرفه عني؟

واقتربت منه مردفة:

- اصدقني القول يا مالك.
- لا أعرف عنكِ شيئاً يا رنيم.
- ماذا تريد إذن؟

- لا شيء.. إلى حين.

- ومتى ستحين حاجتك إليّ؟

نظر إليها واقترب أكثر، شعرت باضطراب حيال صمته، خفق قلبها بشدة وارتجف جسدها، ثم قال برقّته المعهودة:

- لن أؤذيكِ يا رنيم، أنا أحبك فحسب.

- إن كنتَ تحبّني فدعني لقدري.

- لا.. قدركِ لن يكون هنا.

أمسك يدها، فنزعتها منه.

- لا تضف إلى ذاكرتي أشياءً تؤلمني، ممتنة لك إن ابتعدتَ عن دربي، فأنا وأنت لن يجمعنا طريق يوماً، ودربي لن يفضي إلى دربك.

هربت منه تتعثّر في حجارة الطريق، تخاف الظلام وتخشى عتمة الليالي، فصمّت أذنيها، وركضت بكلّ ما أوتيت من قوّة، وصلت إلى البيت فحاولت جنّار استبقاءها والاطمئنان عليها لكنّها دخلت غرفتها وأقفلت بابها، ارتمت على سريرها وبكت آلام

قلبها وحنينها لشخصٍ مجهولٍ لا تعرفه، بكت رقّة مالك وسر وجوده في أرض ذكرياتها، بكت قسوة هافال وابتعاده عنها، بكت وحدتها ومشكلتها القادمة مع ميديا.

جلست ميديا مقابل هافال، منذ غيابه الليلة الخامسة وهو يتحاشى النظر إليها فيما تتمادى في النظر، تريد منه الاعتراف دون أن يُجرح كبرياؤها، طال صمته وهو يتأمّل الظلام من خلف النافذة، تأففت في ضجر وصعدت إلى غرفتها، استلقت على سريرها واستندت إلى ظهر السرير، كتّفت يديها شاردة في سقف غرفتها، لحق بها بعد عدّة دقائق، وقف يتأمّلها ثم جلس بجوارها قائلاً:

- قولي شيئاً.

بادلته النظرات، ثم أعادت نظرها إلى السقف قائلة:

- ليس هنالك ما يقال.

أطرق رأسه بخجل طفلٍ صغير فعل شيئاً غير مرغوب به.

- أنا آسف.

- ما برحتَ تقول لي هذا.

- لا أعرف كيف أبدّد ليالي السهر مع أصدقائي.

- لا أعرف مقصدك.

- أنت تعرفين أنني أحب السهر مع الأصدقاء.

- ألم يكن حبّي كافياً؟

مد يده فأبت الإمساك بها.

- أنا أموت يا هافال.

- أنتِ تتحسنين كثيراً مع العلاج، لا تكوني دائمة الشكوى، حاولي النوم فأنا بجانبكِ الآن، ولن أتركك.

- إلى متى؟

- سأبقى معكِ طوال العمر.

- أريد التحدّث عن الأمر.

- أيّ أمر؟

- سبب غيابك تلك الليلة.

- أخبرتكِ بمن كنت معه.

تلمّست خدّه، وقالت:

- أنت تعرف أنّك لم تكن مع أصدقائك.

- إذن كنتُ أعمل، تصبحين على خير.

أدار لها ظهره وتظاهر بالنوم كي لا تقلقه بشكواها، فكّرت كثيراً بالأمر لذا يجب عليها التصرّف قبل فوات الأوان، يجب عليها أن تسوّي الأمر مع رنيم بأقصى سرعة، فيجب ألا تتمهّل أبداً، ستخبره عنها كي تسرّع من الأمر، ولكن في الصباح كان له رأي آخر، لم ينتظرها وخرج باكراً قبل الشروق كي لا تزعجه بشكواها المستمرّة. زفرت، شتمت، ألقت مسبّة كبيرة، لعنته في سرّها، ارتدت ثيابها وخرجت إلى رنيم.

طرقت الباب طرقاتً عالية، أدهشت رنيم التي وقفت في الباب تتطلّع إليها، سحبتها من يدها إلى الخارج، قالت رنيم:

- سيدّتي كنتِ هنا البارحة.

قاطعتها بصوتٍ أخرسها.

- أنا صاحبة المكان آتي إلى هنا كما أشاء وأرغب، وليس كما تشاء حشرة وضيعة مثلك.

- أنا لست حشرة يا سيدتي.

- اخرسي.. ما الذي أخّركِ عن ردّ الجواب.

- التفكير يا سيّدتي، هذه حياة لن تكون قصيرة.

- إذن جهّزي نفسك لتكوني عروسة قريباً.

- ولمَ العجلة؟

- أنا من أحدد ذلك؟

- لا تفرضي عليّ يا سيّدتي أمراً أكرهه.

- سأجبركِ إجباراً وأسحبكِ قسراً، ستعيشين في قصري وبعد موتي ستكونين سيّدته ولك ما تريدين.

كانت تحكي وهي تلهث من التعب، أمسكت مرام بيدها وقالت:

- سيّدتي.. أأنتِ على ما يرام.

- وافقي يا رنيم، وسأعيشُ عمراً جديداً، سيكون لكِ من الحلي الكثير وغرفة كبيرة تخصّكِ وحدك، قصرٌ به ترتعين وأطفال معهم تمرحين.

ظلّت مرام صامتة متأمّلة حصى الطريق، فكّرت في حلٍّ يخرجها من ورطتها هذه، ولكن عقلها لم يسعفها بجديد، ثم قالت:

- حسنٌ كما ترغبين.

- هل توافقين.

- بشرطٍ صغير، دعي زوجك يأتي إلى هنا طالباً يدي من خالتي جنّار.

- بمَ تهذين؟ أيأتي سيد إلى هنا؟

- يا سيدتي إن عثر عليّ الأهل والخلّان وعرفوا بزواجي من السيّد فسيلومونني لأنني تزوجتُ دون مباركتهم كأن بي عيباً أو عاهة، لا أطلب الشيء الكثير.

- حسنٌ، لكِ ما تريدين، ولكن إيّاك أن تسرفي في الطلبات.

أومأت برأسها.. فتركتها ميديا، وغادرت إلى قصرها مخلّفة امرأة تضجّ بضجيج الماضي والحاضر.

كانت جنّار تسترق السمع خلف الباب، حين دخلت مرام فأفزعتها.

- كيف توافقينها على أمرٍ كهذا؟

- سأخبرُ زوجها بكلّ شيء.

- ماذا تقولين.

ارتمت على الكرسي، وقالت:

- لقد تعبتُ يا خالتي، أريدُ من الحياة أن تريحني قليلاً، أشعرُ أنني قاربٌ صغير تتلاطمه الأمواج، كلّما وصل إلى الشاطئ قذفته موجة إلى البعيد، فعاد يتخبّط من جديد، فلا الرحلة انتهت ولا الأمواج هدأت.

- أهذا هو الحلّ بنظرك؟

- لا حلّ غيره في الوقت الحالي، فأنا الضعيفة وهم الأقوياء، يحقّ للقوي ما لا يحقّ لغيره، لا حقوق للضعفاء في هذا المكان.

قامت ودخلت إلى غرفتها تعبثُ بخاتمها تتأمل حياتها ها هنا، إذ كرهت أنها البطلة في أرضٍ ليست أرضها، بطلةٌ لدى أناس لا تعرفهم وأشخاص لم يسبق لها أن احتكّت معهم، مسحت دمعتها وقررت أن تصبح الأقوى كي تحصل على حريّتها المسلوبة وأملها الضائع وذاكرتها المفقودة، عبثت بخاتمها من جديد، أيعقل أن له قصّة في ماضيها؟ إلى أيّ حكاية ينتمي؟ وهل حكايته مؤلمة؟

انتفض هافال على طلب ميديا.

- ما هذا الهراء الذي تطالبين به؟

- اعرفْ من الفتاة التي اخترتها لكَ أولاً.

- هذا أمرٌ مرفوض ولا نقاش فيه.

- ولكن أرغب بذلك وبشدّة.

أمسك بكتفيها، وهزّها بعنف.

- هل قصّرتُ في حقّك؟ هل رأيتِ الحبّ وقد نضبَ من عيني؟ لم ترغبين بزواجي من أخرى وفي بيتي امرأة أعشقها؟

- افهمني يا هافال، لا أريدك معها في علاقة جادة، زوجة بعقدٍ من ورق تعتني بالصغار فحسب، أخشى أن تأتي فيما بعد أخرى قاسية ظالمة.

- لن تكون هناك أخرى أبداً، ثم من قال إن اختيارك لهذه الفتاة ليس سيئاً.

- لأنها وحيدة، لا أهل لها ولا أقارب ولا بيت، ترضى بالقليل ولا تطلب الكثير.

- لن أظلم امرأة معي وقلبي مع أخرى، لن أجتلب امرأة كهذه لا سند لها ولا معيل فأظلمها.

- أنت أقسط من حكم هذه الأرض، الكل يتحدّث عن عدلك وإحسانك، فلن تجور على أنثى ضعيفة.

ابتعد عنها قائلاً:

- لا أريد يا ميديا. رفقاً بي.. ارحميني.

اقتربت منه ووضعت رأسها على صدره.

- ارحم مرضي، دعني أرحل مطمئنة البال، أجلبها إلى قصري لأعلّمها ما يحبه الصغار، لعلّها تعتاد على القصر فيعتادون عليها.

- أغلقي الموضوع.

- لن أغلقه، وسأزوّجك إياها، ستكون لك عروسة قبل رحيلي عن هذه الدنيا.

- بلهاء وفي عقلكِ لوثة، أقسم بالله إنكِ لمجنونة، فإن رأيتني أجالسها فستأنين ألماً وتذرفين بدل الدمعة دموعاً، ستسقطين حينها ولن تنهضي ثانية.

- لن يحصل ذلك، لأنه لن يكون تواصل جسدي بينكما.

- ومن هذه الغبية التي ترضى بشرطٍ كهذا؟!

- لقد رضيت ووافقت، ولم يبق سوى موافقتك أنت.

تطلّع إليها من أعلى إلى أسفل، نظر بجانب عينيه وغادرها صامتاً. ابتسمت لأنها أنجزت جزءاً من المهمّة، وما عليها سوى إقناعه.

أغلقت مرام الباب، وجلست على الكرسي مقابل الطاولة، تناولت ملعقتها وأكملت طعامها، كان الفضول يأكل جنار، فبددت الصمت وسألتها:

- ما قالت لكِ؟

- الكلام ذاته، لا شيء جديد.

- هل أنتِ جادة بما تفعلين؟

- أجل يا خالتي.

- أشعر ببركان خامد سيثور في وجهك.

- سأكون من يوقد النار تحته يا خالتي.

- لستِ في مثل قوّتهم، كأنّكِ تجابهين التيّار. فإن تعقّدت الأمور واشتبكت فما تفعلين؟

- أجلس بهدوءٍ، وأحلّ عقدها.

- وما أسرع الحلول؟

- أقصّ الخيوط.

- ولكنكِ ستخسرينها.

- وما حاجتي إليها، ما يهمّني أن أريح عقلي يا خالتي، ذاكرتي تتعبني، أشعر بثقبها يكبر مع الأيام، وتضيق عند مجالسة مالك، فتستحضر لي أشخاصاً لا وجود لهم.

- ستخسرين اللعبة، اللعب مع الكبار يفقدكِ اللذة والمرح.

- وماذا تفعل إن مالت اللعبة لصالحي؟

- وزوجك .. ما مكانه من حكايتكِ هذه؟

- هو كلّ الحكاية، لكنها حكاية لا تروى لأحد، هو الغصّة الكبرى في حلقي، هو ألمي حين يغيب وراحتي حين يعود.

صمتت حين طرق الباب عدّة طرقات، نهضت مرام لتفتحه ففوجئت بوجود مالك مع أم حسام. ركضت إليها لتعانقها، وقالت:

- أعتذر منك لعدم العودة.

- تأخرتِ في المجيء، وها أنا أتيتُ إليكِ.

- أهلاً يا خالتي أهلاً.

ابتسمَ مالك، وقال:

- ألن تسمحي بالدخول، فترحبي بنا في الداخل.

- أعتذر منكما، تفضّلا.

وأفسحت المجال لهما، وهناك في الداخل عانقت أمّ حسام جنّار بحرارة، وظلّت واقفة بجوار مالك، بينما الأخيرتان تتعانقان وتتهامسان بمودّة، قالت مرام:

- أتعرفان بعضهما؟

- كانتا نعم الصديقتين.

- أقبل معرفتك برنيم أم بعدها؟!

- رنيم كانت صديقة كارين المقرّبة.

ظلّت تتأمّلهما بعد أن جلستا، ثمّ قالت:

- يبدو أنّ صحّتها أصبحت جيّدة.

- أجل.. لذلك جلبتها إلى هنا فتعيش ما بقي من عمر بجانب جنّار. صمتَ قليلاً، ثمّ سألها:

- هل حصل شيء جديد؟

نظرت إليه، وحدّقت في جبال عينيه الشاهقة.

- سأقابل السيّد – صاحب المكان– الإقطاعي البغيض.

- وما حملكِ على ذلك؟

- لأوقف اللعبة.

- ستكونين الخاسرة.

- لمَ الكلّ يراهن على خسارتي؟

- لأنّكِ لا تعرفين صلابة من تقاومينهم.

- لا يهم، الميت لا يشعر إن مُثّل بجثّته، وأنا ميّتة مذ أتيتُ إلى هنا.

- رنيم.

- نعم.

وتأمّلت حزن عينيه.

- اهربي من هذا المكان، عليكِ الفرار من هنا، أنقذي نفسك وغادري، ارحلي ولا تعودي أبداً.

- هل الأمر سيء إلى هذه الدرجة؟

- الأمر أسوأ مما تظنّين.

صفق الباب خلفه وغادرها، وبينما هي شاردة واجمة، صاحت جنّار:

- تعالي يا رنيم وشاركينا الحديث.

ابتسمت لها وانضمّت إليهما محاولة أن تنسى الوجه الذي أطلّ في ذاكرتها يمد يده بأوراق شجرة البيروفي، كان وجهاً دون ملامح، ظلّت المرأتان تتحدثان عن ألمهما، كان الجرح واحداً (كارين ورنيم) كانتا شمساً مضيئة، واختفيا في ليلة قمرية غائمة اختبأت خلفها النجوم.

- ألا تريد معرفة الفتاة التي اخترتها لك؟

تطلّع إلى حزنِ عينيها وإلى شحوب وجهها.

- اذهبي واستريحي، يبدو عليكِ التعب.

- لا أستريح والله إلا وقد نفذّتَ طلبي.

- أنهي هذا الموضوع.

- دون أن تعرفها؟

- لا أريد المعرفة، ولا يهمّني الأمر.

تريّثت قليلاً قبل أن ترمي جميع أوراقها، وتفجّر صاعقتها.

- إنها رنيم.

حدّق بها دهشاً وفغر فاه، ثمّ قال:

- من رنيم؟

- الغريبة التي تقطن مسكن جنّار.

- وكيف استدللتِ عليها؟

- لا يهم ذلك، ما يهم أنّها مناسبة لكَ في كل حالاتك وحالاتها.

- دعيني أفكّر بالأمر.

نظرت إليه، واطمأنت إلى أنّ قلبها لم يخبرها إلا بالصحيح، هيهات أن يخطئ قلب الأنثى، حدّقت العيون ببعضها، هي تريدُ سبر أغواره لترى من تتربع على عرش قلبه هي أم تلك، وهو يريدُ الغوص إلى أعماقها ليعرف إن كانت قد عرفت شيئاً عن زواجهما، ووقف الزمن حائراً بينهما، أيكمل طريقه إلى النهاية ويكشف المستور؟ أم يقف ويصفّق لهما؟ تدرك أن ما يختزنه قلبه أكبر من الوجع الذي يختزنه فؤادها، وهو يخشى أن الأمر قد تسرّب إليها وانتهى، صارت ترهبه النهاية الموحلة.

أطرق برأسه ثم استدار، وبدّل ثيابه بصمتٍ عرفت ما وراءه، وكان صمته مليئاً بالكلام الذي لا يقال، ثمّ أدار وجهه إليها قائلاً:

- وما كان ردّها؟

- وافقت ولم تعترض.

ثمّ اقتربت منه بدلال ربتت على كتفه برفق.

- أهناك من تقوى على اعتراضي؟

أبعد يديها عن كتفه قائلاً.

- هل هددتها كما فعلتِ....

وسكتَ، وسكتت الريح العاصفة خارج القصر.

- أكملها.. كما فعلت مع كارين، يا عزيزي كنتُ أحمي بيتي وعائلتي، سأبقى أحميه العمر بأكمله إلى أن يتوفّاني الموت.

- وهل انتهت حمايتك لقصرك العظيم فتقبلي بأخرى تنافسكِ على مكانتك؟

- ستكون جارية فحسب، لا تطمح إلى أكثر من ذلك يا هافال، لن تكون ذكريات بينكما.

تأمّلها وأكمل تبديل بنطاله وهو يفكّر (صنعنا العديد من الذكريات، وهناك المزيد من ذكريات سنرسمها معاً، لكِ ما تريدين يا ميديا ولي ما أريد، ستكون الصفقة رابحة لكلينا، لكِ كبرياؤك ولي الحبّ الذي به أحيا).

وفكّر بمرام كثيراً كيف توافق وهي على عهدته؟ كيف ترضى بعرضٍ كهذا، سيتحرّى الأمر معها، يعرف كيف يصل إلى أجوبته التي يريدها.

الكلّ يفكّر بنفسه، ولا أحد يفكّر بتلك الغريبة الوحيدة، الكل يريد الخروج من اللعبة وقد ربحها ولا أحد يحبّذ الخسارة، وحدها من تتلاطم بها الأمواج، لا أرض ترسو عليها ولا قارب نجاة يسعفها، انتظرت أن يحطّم مخاوفها فكان أوّل ما حطّمه قلبها، أحزن الاثنتين ولم يستطع إرضاءهما، بل مازال يسارع للفوز بالربح الوفير دون أن يفكّر بالأخرى، هل هي مغرمة به حقاً؟

عانقتهُ ميديا في سريرها كأنها تريد أن تنشر عبقَ أنوثتها حتى لا تطاله يد أنثى غيرها، كم تودّ أن تكتب عنه أنه ملكٌ شرعيّ لها، ولكن كان لكلّ امرأة يراها وحيدة. كانت له كل النساء ولم يكن لها سوى ظلّ رجل.

وفي الصباح سألته بعد أن احتسيا القهوة:

- أأجهزها لك؟

نظر إليها ببرود، ثمّ سألها:

- من هي؟

- عروستك.

- افعلي ما يحلو لك.

- لمَ غيّرتَ رأيك بهذه السرعة؟

- لأنّكِ من أراد ذلك، أرجوك يا ميديا لستُ بحالة تؤهّلني لنقاشٍ عقيم هذا الصباح.

- لك ما تريد يا عزيزي.

ارتدى ثيابه وغادر إلى عمله، بينما ارتدت ثيابها وغادرت إلى مرام فطرقت بابها طرقات سريعة، فتحت جنّار الباب.

- نادي رنيم.

أومأت برأسها صامتة.

- أيا رنيم تعالي إلى هنا، فسيّدة الدار ترغب في رؤيتك.

جاءتها تمشي على استحياء.

- نعم سيّدتي.

- تعالي إلى الخارج.

تمشّيا في الخارج، وتحت شجرة الكرز عقد الاتفاق بينما، في هذه الليلة سيحصل كلّ شيء وسيتغيّر تاريخ الجميع.

- حسنٌ يا سيّدتي، كما تأمرين.

- أحبّ الفتاة المطيعة، كنتِ عنيدة في السابق.

- وحفظتُ درسي جيّداً، ورغبتُ بأن أكون تلميذة نجيبة.

- ونعم التلميذة.

ابتسمت مرام ابتسامة متكلّفة، وميديا تودعها على أمل اللقاء في المساء مع سيّد المكان.

دخلت البيت واستراحت على الكرسي، كان أربعة يحدقون بها، بددت الصمت جنّار.

- أوافقتِ على طلبها؟

- وهل يحقّ لي الرفض؟

صاحت بها:

- وأنتِ متزوّجة من غيره، استيقظي يا مرام قبل فوات الأوان، لا أحد سيخسر الرهان غيرك.

قالت أم حسام:

- أخبرتني جنّار كلّ شيء. لا يحقّ لكِ قبول ذلك وأنت على عصمة رجل آخر يا ابنتي.
- أنا أعي ما أفعل، طبعاً لن أتزوّجه وأنا متزوّجة. ولكن....
- ولكن ماذا؟ هل يعلم مالك بأمر زواجك؟
- لا يعلم.
- إذن اطلبي منه أن يجد حلّاً سريعاً لمشكلتك، إن كنتِ لا ترغبين بمساعدة زوجك.

وفي هذه الأثناء طرق الباب، فتحت جنّار الباب فألفت مالكاً أمامه، دعته إلى الدخول. نظر إلى الوجوه الواجمة وحدّق في مرام وهي تقضم أظافرها.

- ما بال الوجوم يسكن الوجوه؟

نظرت أم حسام إلى مرام، وقالت:

- أخبريه يا رنيم بما انتويتِ أن تفعليه.

بادلتها النظر، وقالت:

- لا علاقة لمالك بالأمر يا خالتي.

- سيساعدك لأنّه...

أسكتتها جنّار إذ خشيت أن تخبرها بقرابته من مالك المكان، فيتكشّف الأمر الغامض، وقالت:

- رنيم ترغب في الزواج من صاحب الأرض، طبعاً ميديا هددتها، وإلا لما رضيت بعد أن كانت رافضة.

نظر إلى مرام، واقترب منها قائلاً:

- أعرف كلّ شيء يا رنيم، أعرفك أنك امرأة متزوّجة وأعرف من يكون رجلك، أعرف كلّ ما تخبّئين في قلبك، ولكن هذا القلب إن بقي يحاول الصمود هنا فسينكسر ولن يرممه أحد.

جلس على ركبتيه أمام كرسيها، وأردف:

- اهربي يا رنيم إلى أيّ مكان غير هذا المكان، إلى أرض بعيدة عن هنا كل البعد، سأتكفلّ بكلّ شيء، سأدفع لكِ ما ترغبين بشرط ألا تعودي، حياتك هنا معركة خاسرة ولن تقوي على الوقوف أمام الحمم البركانيّة.

هبّت رنيم واقفة، واقتربت من النافذة، وقالت بهدوء:

- الأمر بسيط، ما بالكم قد صنعتم من الحبّة قبّة، حين يأتي سيّد الأرض أخبره بقصّتي، أنني امرأة على عصمة رجل آخر، وحينها سيساعدني، وهافال لن يرفض مساعدته.

صاحت أم حسام:

- هافال.

جلست جنار بجوارها، وصرخت بمالك:

- خذ رنيم إلى الخارج، لعلّها تفكّر بحلّ آخر ينقذها من هذا البئر، انصاعت رنيم إلى طلبها، وخرجت برفقة مالك.

صاحت جنار بأم حسام:

- لا تخبريها بحقّ الله عن هافال، فهي لا تعرف شيئاً.

- هل هافال زوجها، كيف حصل ذلك؟!

- سأخبرك الأمر بالتفصيل، ودعينا نخرج من هذه الحرب الدائرة بينهم دون أن يمسّنا أذى.

وحين قصّت عليها بالتفصيل ما حدث لمرام، لم تكن قد أخبرتها به، تنهّدت أم حسام، وقالت:

- مسكينة رنيم.. لم تنعم بالراحة هنا، ولن تنعم بها مادام خبرها قد وصل إلى السيّدة، لن تبقيها سعيدة أبداً.

وفي الخارج قطف مالك وردة وقدّمها لها، شكرته بعد أن أخذتها منه، فابتسم لها، وقال:

- لمَ أشعر بأنّك تحاولين الهرب مني دائماً؟

- ربّما عرفتَ الجواب، ها قد عرفت ما أعرفه، وأكثر من ذلك.

- عرفتُ ذلك مصادفةً منذ فترة وجيزة.

- ولماذا لم تخبرني؟

- لا يحقّ لي الإتيان بأيّ أمر. كنتُ غارقاً في حبّك حتى الثمالة، ولمّا استيقظت وجدتكِ امرأة لأقرب الأقربين إلي.

- أخبرني ألا أخبر أحداً.

- وهل أنتِ سعيدة مع رجلٍ يضاهيك عمراً، وعلى ذلك لا يزورك إلا لماما.

- قدري، ورضيتُ به.

رفس حجراً أمامه. وقال لها وهو ينظر إلى حجارة الطريق:

- هذا خنوع وليس رضى، بإمكاننا الوقوف والصراخ والهرب.

نظر إليها، ثمّ أكمل:

- بإمكانكِ تغيير قدرك في اللحظة التي تقررين بها.

وغادرها دون وداع، صاحت به:

- أيا مالك أخبرني عن ذكرياتٍ تنتابني حين تكون بجواري.

استدارَ إليها، وابتسم متألماً قائلاً:

- ربما قدري أحنّ عليّ من قدرك، لم تجمعنا ذكريات في الماضي، ولكن آمل أن تجمعنا ذكريات في المستقبل.

- هل كنتُ جزءاً منها؟

- سأكون الجزء الأكبر الذي لا يُنسى.

غادرها مخلّفاً وراءها حقيقة من الذكريات القاسية، اشتمّت الوردة وانهالت عليها ذكرى واحدة مكررة، شجرة كبيرة ذات عناقيد ورديّة ويد تقدّم لها أوراقها، شجرة البيروفي الضخمة ذاتها، وهذه المرة الشخص ذو الملامح المجهولة جلس تحت ظلّ الشجرة يمزّق أوراقها، ولم يكن لها دور في هذه الذكرى، كان الدور الأكبر للمسمار الصدئ وهو يدقّ في أعلى جمجمتها يحاول فتح بئر للذكريات، ولكن الذكريات كانت عميقة جداً فلم يصلها المسمار مهما حاول واجتهد.

دخلت إلى البيتِ شاحبة الوجه ممسكة رأسها بكلتا يديها، سألتها أم حسام عن ألمها، تأمّلت الوجوه بعينين غشيتهما الدموع وارتمت في حضن أم حسام، تبكي قسوة الحنين

إلى شخصٍ لا تعرفه، عاد قلبها يدقّ له، يؤلمها وينخزها كأنّها تنزع الشوك من القطن، نظرت إلى أم حسام، وقالت:

- قلبي هنا يدقّ لشخص لا أذكره، شخص أشعر به كأنما كان كلّ حياتي، ذكرياتي تدلّني عليه ولكنه غامض الملامح.

تأمّلتها جنّار، وسرقتها من حضن أم حسام لتحتضنها، وتربت على كتفها، تدعو لها بالنجاة من هذا المأزق.

وفي المساء جاءها الضيوف المنتظرون، الكلّ يتأمّل الساعة بترقّب وخشية، والجميع خائف من المواجهة الحاسمة إلا هي، ما كانت تعرف ما يجري خلف الكواليس، جميع من في البيت يعرفون الحكاية إلا بطلتها، كان كل شيء لديها مستتراً، وإلى هذه اللحظة كانت لا تعرف شيئاً عنه.

ارتدت ثوبها الأحمر الطويل، وكان شعرها قد أصبح أكثر طولاً من السابق إذ وصل إلى حدود كتفيها، نزلت الدرج كأميرة الحكايات بكبرياء وثقة، وقفت أسفل الدرج وحدّقت في ذاك الجالس جانب زوجته، وهي ممسكة بيده خائفة عليه من الهرب، شعرت جنّار بهشاشتها وضعفها، قالت بقلبها (يا رب سلّم)، ليس من المفروض أن تراها ميديا على

هذه الحالة، لكن مرام كانت في وادٍ آخر، جمدت في مكانها تشعر أنها قد وئدت ودفنت مشاعرها في التراب، في هذه اللحظة رأته يمشي على قلبها مرّات عدة وهو يستهزأ بالجرح الذي أحدثته مشيته في قلبها، سرقَ منها حلمها في الوصول إلى بر الأمان، فحبسها هنا دون أن يحقّ لها إبداء الرأي، اقتربت منها جنّار، وقالت:

- ما بكِ يا رنيم؟! ألقي التحيّة على ضيفينا الأعزّاء.

انتبهت من شرودها قائلة:

- هما ليسا ضيفين بل أهل الأرض ونحن الضيوف.

واقتربت منهما، صافحته قائلة بأدب أظهرته:

- عمتَ مساءً يا سيّد الأكرمين.

ثمّ صافحت ميديا وجلست قبالتهم. تحاشت النظر إلى غدر عينيه، تحاشى النظر إلى عتاب عينيها، تولّت ميديا الحديث بقلبٍ منفطر وهي تشيّع جنازتها، كأنّها ستموت الآن، والله الموت أرحم بها من هذه الجلسة الطويلة التي أبت أن تنتهي، بقلبٍ منكسر أملت على الجميع أوامرها والجميع لا يسمعونها بل شاردون في مصيبة ستنهال عليهم، الجميع يفكّر بما سيحدث لاحقاً، وما سيحدث بعد هذه الساعة.

الكلّ يعترف أنه بعد هذه اللحظة القلوب ستتغير والعقول ستتضج والألم سيغدو عميقاً، لن يعود أي واحد في هذه الجلسة إلى ما كان عليه، وانتهت على حزن كما بدأت بخيبة، انتهت على كسر قلبين وانتزاع ذكريات ميّتة، وعلى آمال وهميّة وجراحات لا تندمل.

ارتمت أم حسام على سريرها تبكي صغيرتها رنيم وذكرياتها الضائعة معها، بقيت جنّار جالسة في الصالة تحدّق بصورة كارين وتبكي، وتلعن ميديا ألف لعنة وهافال ألفي لعنة، وهناك في الأعلى ارتمت مرام تبكي وتنتحب وتشهق، وتستغيث خالقها أن ينجّيها من محنة هي فيها، كانت بحاجة إلى مالك الصديق فتحدّثه عن خيبتها وعن خذلانه، عن ضعفها وهشاشتها وألمها ووحدتها، كانت بحاجة فعلاً إلى مالك فهو الوحيد من يملك ذكرياتها كأنّها معتصرة بين يديه ويبيعها الواحدة تلو الأخرى.

لم تنم الليلة، ظلّت تتقلّب كأنها تتقلّب على جمر والنار في القلب مشتعلة، بينما هافال وميديا ظللتهما سكينة من الصمت، لا هو قادر على أن يشرح لها الأمر ولا هي قادرة على الاعتراف بما في قلبها، مازالت ترفض الاعتراف بأن هناك علاقة ما بينهما، مازالت تكذّب أحاسيسها وأنها مجرد أحاسيس أنثى غيّورة.

في هذه الليلة ابتعدت وما اقتربت، فالألم في قلبها قد كبر بعد هذه الزيارة وتشعر بأنها ستفارق الحياة، ولكن هافال فارقها قبل أن تفارقه، فارقها حين شعرت بأن هناك شيئاً مستتراً ما بينهما، ولكنها دائماً ما تكذّب أحاسيسها وتفنّدها.

يطلّ عليها وجه مرام المتفاجئ، وتعود وتكذِّب الصورة والمشهد برمّته، ظلت طوال الليل شاردة تأنّ بصمتٍ موجع، أدار لها ظهره وسهر الليل بطوله يفكر بطريقة يشرح لرنيم أسبابه وهل تغفر له؟ فكّر في كلّ الحلول ولم يفكّر لحلٍ لأنثى نائمة بجواره تبكي بصمت دون دموع.

كانت هذه الليلة الأطول بين ما سبقها من ليالي، وفي منتصف يونيو ودّع الجميع الراحة ليستقبلوا الألم على مراحل، والدموع تعتصر الأفئدة.

نهضت مرام متخشّبة الظهر تشكو كعادتها من صداعها، خرجت إلى الخارج تتأمل عصافير الصباح، جلست تحت ظلّ شجرة الكرز مكتّفة اليدين، شاردة بألمها، لم تطق أن تحادث أحداً فانسحبت خلسة إلى الخارج. ظلّت على حالها ساعات قليلة ثمّ لمحت ظلّاً واقفاً يراقبها، رفعت رأسها فوجدته، ليس بحاله القديمة بل بالحالة الجديدة التي عرفته بها.

- أهلاً يا سيّد القصر.

- رنيم.. أنا آسف.

- وماذا يفعل اعتذارك بقلبي، هل سيعيد إليّ خوفي من كوخك المظلم، حلمي أن أبيت ليلة واحدة في قصرك العظيم، أخبرتك كثيراً بأنني أحسد سعادتهم فكنتَ تخبرني بعكس ذلك، لماذا؟ لماذا خبّأت الأمر عني وكأنني عارٌ عليك؟ هل أنا خطيئة لتداريني عن الجميع؟ أخفيتَ الأمر عنّي كأنني جرمٌ كبير تخشى أن يعاقبك الناس عليه؟ لماذا فعلت ذلك؟ لماذا يا هافال؟

صرخ في وجهها:

- لكي أحميكِ منها فلا تصل إليكِ، لأحافظ عليكِ.

- وهل حافظتَ عليّ حين اقتحم ذاك الرجل كوخي.

- طردتُ عائلته كرماً لكِ.

- أأصفقُ لك الآن على هذا الإنجاز العظيم؟

- أنا أحبّك يا رنيم.

- أنت لا تحب سوى ذاتك.

وقفت وحاولت الاستدارة، ولكنه أدارها إليه، وضمّها إلى قلبه.

- سرّحني بإحسان يا هافال.

- لا طاقة بي لفعل ذلك، لا أريد لقلبي العذاب.

- إذن دعني أرحل.

- أنتِ لي وستبقين العمر كلّه لي، وإن عادت ذاكرتك، وإن عرفت عائلتك، لن أدعكِ ترحلين.

- إذن دعني أرحل أنا.

كان الصوت بمثابة صاعقة لكليهما، استدار إلى الواقفة خلفهما مستندةً إلى جذع الشجرة.

- ميديا.. منذ متى وأنتِ هنا؟

- ألا يمكنك الانتظار إلى أن يتوفّاني الموت؟ كان موتي وشيكاً فلمَ تستعجل النهاية؟ بإمكانك حينها فعل أشياء لا أرغب برؤيتها، كنتُ أعرف من البداية

وكنتُ أفتّدُ أحاسيسي وأقول ما هي إلا غيرة أنثى، كانت الرؤية واضحة منذ فترة وقلبي أبى التصديق، لذلك رغبتُ بزواجكما وأنا أضغط على قلبي. الآن يمكنكما الاستمرار وأعتذر عن المقاطعة.

اقتربت من رنيم، وقالت لها:

- اعتني بأولادي وبأبيهم، عشتُ عمري أهديه الحب وعاش عمره يهديني الوجع، حتى أحدثَ في جسدي أمراضاً فتاكة.

انهارت حصونها أمامها، وهافال واقفُ يتأمل ضعفها، ثمّ خارت قواها، وسقطت على الأرض دون حراك، صرخ وارتمى فوقها، حملها هارباً بها إلى قصره تحت أنظار مرام الساكنة، ظلت تراقب الوضع ثم دلفت إلى البيت.

جلست بجوار جنّار تخبرها بما حصل خارجاً، لطمت وجهها جنّار وصاحت:

- يا ويلتاه، إن كان الأمر صحيحاً، فلن تنجي من شراستها.

هنا تدخّلت أم حسام.

- اهربي يا ابنتي، اهربي إلى بيتي، سيساعدكِ مالك بالوصول إليه.

- وماذا سيقول هافال عني يا خالتي، هربتُ مع ابن أخيه، لن يفهما إلا هكذا.

- إذن ما أنتِ فاعلة؟

- ننتظر ونرى.

- سيطول انتظارك على عتبة ألمك، ها قد خسرتِ ولم تربحي.

حدّقت في جنّار، ثم مدت كفّها، وقالت:

- اقرئيه لنرى ما يخبرنا به المستقبل ؟

تدخّلت أم حسام مرة أخرى، وقالت:

- لا تصدّقي ما يقول لك الكف، صدقي قلبك وإحساسك، إن نجوتِ فاشكري الإله واهربي من هنا بأسرع ما يمكنكِ، سأخبركِ شيئاً.. حين كانت رنيم صغيرة ابتاع لها والدها حذاء رياضياً فسألته عن السبب، فأجابها لتتعلم الركض ولا تقف حائرة في مكان يؤلمها، حين كبرت وفهمت الحياة سألته إن كان الحذاء ضيقاً فما يتوجّب عليها فعله، أجابها أن تخلعه وتركض دون أن تهتم بقدمها النازفة، ستشفى حين تصل إلى برّ الأمان، ولكن إن بقيت في مكانها رافضة خلع حذائها فستصل الندوب إلى القلب والروح، لن تستطيع قوّة في العالم شفاء شيء

لا يراه أحد، الآلام التي تسكن الروح هي الأصعب في الشفاء. اهربي بمقدار الخيبة التي زرعها في قلبك.

اقترب مالك من مرام الجالسة تحت فيء شجرة البيروفي ممسكةً بعصا صغيرة ترسم على التراب خطوطاً متشابكة، تأملها لحظاتٍ قليلة دون أن تنتبه لوجوده، وبعدها قال بصوتٍ خفيض:

- حسبتك راحلة من هذا المكان.

نظرت إليه، ثم أخفضت رأسها وعادت ترسم، ورأسها متدلٍّ على قدميها.

- لم أقرر بعد.

- إلى متى؟

- إلى حين.

- رنيم.. ما هكذا تسوّى الأمور.

- وكيف تسوّى الأمور ؟ بالهرب؟

- عمي سيكون الآن أشدّ قسوة مما هو عليه، لن يحتمل ألم ميديا، سيفعل المستحيل لأجلها.

- كلّكم كنتم تعلمون من يكون، حتى جنّار والكل اجتمعوا على أن الصمت أسلم من البوح بالحقيقة، لذلك كلكم تعلمون ما أنتم فاعلون، أما أنا فمشتتة الفكر، مشلولة الإرادة.

- لم نستطع إخبارك فلقد أمر الجميع أن يلزموا الصمت، دعينا نهرب من هنا قبل أن يلمحنا أحد، لن يعرف بذلك حتى يُحدث الله أمراً.

- وما غرضكَ من ذلك؟

- لأكفّر عن ذنبٍ قديم.

- وهل أنا هذا الذنب؟

- لا... لستِ أنتِ.. دعينا نرحل الآن.

صمتت، وحين طال صمتها، تأفف وضجر.

- هيا يا رنيم.

- موافقة.. ولكن لا تقترب مني أكثر، فأنا مازلتُ إلى الآن امرأة عمّك.

- وهل نسيتُ ذلك يوماً؟ الندبة مازالت في القلب محفورة.

سارت معه إلى البيت، أحضرت ثيابها، وأخبرت جنّار بحقيقة ذهابها مع مالك، فشجّعتها هي وأم حسام على الهرب.

أمسكت أم حسام بقميص مالك، وقالت:

- انتبه إليها كأنّها كنزٌ ثمين.

ونظرت إلى مرام قائلة:

- انتبهي لذاتك يا ابنتي، ليرعك الإله في جميع الأوقات.

غادرت وإياه المزرعة، وظلّت طوال الطريق صامتة تعبث بالخاتم في أصبعها، تأمّلت الدروب وألفتها متشابهة لا اختلاف فيها، لم تنظر نظرة واحدة إلى مالك، هذه المرة الثانية التي تخرج من المزرعة ولكنها تختلف عن سابقتها، هنا هي خائفة وحزينة

ومخذولة من جميع الجهات إذ ذبُل فؤادها دون أن يبادر أحدٌ إلى سقايته، الكلّ كان يدور حول نفسه ليقدّمها هدية له، في حين كانت تفكّر بالجميع.

إلى متى ستظلّ خائفة من ذكرياتها ومن حاضرها، من مستقبلها، غيّرها الحزن وبدت تشبه تمثالاً من ذهب، لكنّه لا يعرف الشعور.

خرجت أخيراً من هناك لتلقى أمراً أكثر قسوة، وربّما كان أكثر هناءً، كان مالك يرقبها بين الفينة والأخرى، يتأمل شرودها وقلبه ينبض فرحاً، الآن باستطاعته الصلاة في رحاب الحبّ والتوبة عن أوزاره الثقيلة.

وصلا البيت، صعدا الدرج المظلم، مشت خلفه مطرقة الرأس كأنها مجبرة على القدوم معه، خائفة مما سيحلّ بها لاحقاً. أدار مالك المفتاح بالقفل، ففتح الباب، وهمس:

- ادخلي.

دخلت ودخل خلفها، أشعل الأنوار، فأضاءت المكان، ولمحت أثاث شقّته المتواضع، كانت الصالة واسعة، فيها أربعة من الأرائك الخشبية وطاولة صغيرة، قال لها:

- في البيت غرفتان، واحدة لكِ والأخرى لي.

استدارت إليه، بينما جلس على الأريكة يستريح.

- أستبيت هنا في البيت معي؟

- وأين أبيتُ وهذا بيتي؟

اقتربت من الباب قائلة:

- سأخرج من هنا.

ركض إليها، أمسك معصمها وسحبها إلى الداخل، أقفل الباب، وقال:

- افهمي يا رنيم.. لن أمسّك بسوء.

صرخت في وجهه:

- كيف تريد مني العيش معك في بيت واحد؟

- هذا بيتي ولا مكان آخر لي، ثم أنا لا آتي إلى هنا إلا بعد انقضاء النهار وعند حلول المساء، لكِ البيت طوال النهار، وفي الليل تدخلين غرفتك.

- والناس ماذا ستقول؟ وهافال سيظنّ الظنون السيّئة.

- لا أحد سيعلم بالأمر سوانا.

- وجنّار وأم حسام.

- لقد كذبتُ عليهما فأخبرتهما أنّكِ ستبيتين الليالي في فندقٍ صغير.

- أراني قد تسرّعتُ في القدوم إلى هنا.

- لا تقولي ذلك، صدّقيني هذا المكان هو الأكثر أمناً لكِ.

أرشدها إلى غرفتها، دخلتها وأقفلت بابها، أضاءت النور تتأمّل سوداوية إذ كانت الغرفة سوداء كئيبة، كلّ ما فيها أسود، الستائر، السرير، الخزانة، الطاولة، لا حياة، أزاحت الستارة ونظرت من النافذة، فرأت مرجاً أخضر يمتدّ مسافات بعيدة، فيحتلّ كل الأرض، لا بيوت تجاور بيت مالك، طرق بابها ففزعت، اقتربت من الباب وصاحت:

- ماذا تريد؟

- تعالي لتأكلي، فقد أعددتُ بعض الطعام لكلينا، أظنّكِ تتضوّرينَ جوعاً.

- حسناً.

سرعان ما بدّلت ثيابها، وجلست قبالته صامتة، ثمّ قالت بعد انتهائهما من الطعام:

- لا أحد يسكن بالقرب منك، أليس كذلك؟

- أجل.. فأنا مولعٌ بالهدوءِ، ولا أحبّ أن يشاركني أي شخص وحدتي.

- لذلك جلبتني إلى هنا.

- جلبتكِ لحمايتك لا لنيّة سيّئة.

- لم أطلب منكَ هذا.

- ذنبي الذي يقتلني كلّ ليلة هو من طلب إحضارك إلى هنا.

- ما فتئت تقول لي هذا الكلام، فما هو ذنبك؟

صمتَ ولم يجبها، قطع الصمت رنين هاتفه، تركها وذهب ليعرف هويّة المتصل، كان عاملاً من عمال المزرعة، فكّر في سرّه "أيعقل أن هناك من رآهما وهما يهربان؟" أيّ عقاب سيلحق بهما. نظر إلى رنيم ثمّ إلى الهاتف، انقطع الاتصال فصاحت به:

- أهو هافال؟

- لا .. إنه عامل من العمال.

- ولمَ لم تجيب، أأنتَ خائف؟

أقبلت إليه ودنت منه، فعاد الرنين يصل أذنيهما، هو خائفٌ نعم ولا ينكر خوفه، الآن أدركَ أنه ليس إلا جباناً نذلاً وليس بمقدوره الانتقام، قلبه يرتعش ويداه ترتجفان، لعابه يسيل من فمه، وهي تنتظر منه الرد لتعرف ما يحصل هناك، ثم قالت:

- إذا لم تكن لديكَ البسالة والشجاعة لم جسرتَ على فعل كهذا؟ إذا كنت ذو رهبة فالأفضل منكَ ألا تقدم على فعلٍ أكبر منك.

- سكوتاً يا رنيم.

- ستظلّ تعيش الخوف إن لم تجب على هذا الاتصال، إن كنت تخاف من الآتي فأجب وانهي الخوف يا مالك، فهذه المرّة الثالثة التي يتّصل بها، هناك طبعاً حاجة ملحّة استدعت اتصاله عدّة مرات.

حمل الهاتف بيد مرتجفة، فتحه ووضعه على أذنه دون أن يبادر بالحديث، ولكن الآخر كان أسرع مبادرة، فتحدّث كثيراً وحكى وواساه وعزّاه، وفي نهاية المكالمة قال له (البقاء لله)، وضع الهاتف جانباً، ونظر إلى مرام بحزنٍ اصطبغ على شفتيه، قالت له:

- ما هناك؟! خبّرني ما أُخبرتَ به.

- توفيت ميديا.

صاحت:

- ماذا؟

- لم تمت بالسرطان كما كان مؤكّداً، بل ماتت بذبحة صدريّة.

- أنا السبب، فما كان عليّ قبول عرضها، والموافقة عليه.

حمل مفاتيحه قائلاً لها:

- سأغادر الآن.. فهناكَ من بحاجتي.

تركها وحدها في ظلمة الليل، تتأمّل أثاث الشقّة المتّشح بالسواد، تطلّعت من نوافذ الشقة جميعها، وتأكّدت أنها منبوذة ووحيدة

أقفل باب الشقّة حين غادرها، ولم تصل إلى إجابة محددة عن هذا السؤال الذي ظلّ يراودها الليل بطوله.

عادت إلى غرفتها وعادت الوجوه تطاردها، وجوهٌ لا ملامح لها، وأشجار البيروفي المصطفّة على الجانبين رقصت حولها ، كتب على الشجرة حرفيهما (M+R) ومشى

معها ممسكاً بيدها، عاد قلبها يخزها وكأنّها تشتاقه، عاودها صداع رأسها، واستأنف المسمار الصدئ الحفر بمهارة في أعلى جمجمتها، ليعثر على ملامح غريبة عنها.

استلقت على السرير من فرط تعبها، تفكر بالقدر، وماذا سيكتب في صفحتها؟ وكيف ستكمل حياتها؟ وهل سيعترف الآن هافال بها زوجة له ويبدأ بالبحث عن أهلها؟ ستكونُ له الآن زوجة رسميّة أمام الجميع، وسيتوّجها أميرة على عرش قلبه، ولكن مادام على هذه الدرجة من الثراء فلم عجز عن العثور على أهلها؟ حامت الأسئلة حولها فأربكت عقلها، مما زاد صداع رأسها، وأخيراً نامت بعد أن تناولت قرصاً من الدواء ليستكين الألم.

وضع هافال رأسه في يديه، وبكى خسارته، في حين جلس مالك بجواره.

- هوّن عليك المواجع يا عمّاه.

- أجئت شامتاً أم معزّياً؟!!

- لا شماتة في الموت يا عماه، جئتك لأكون في المحنة ابناً لكَ.

- أنا من قتلتها، أنا من تسرّعت في إصدار حكم موتها.

- كانت مريضة على وشك الموت، أنت لم تفعل لها شيئاً.

- أنا قتلتها يا مالك، لم تمت بدائها بل ماتت بذبحة صدريّة، أتدري معنى ذلك؟ أنا من ذبحتُ قلبها، كانت آخر كلماتها "الآن باستطاعتك فعل ما كنتَ ترغبه، لستُ معك لأحاسبك).

ثمّ صرخ صرخة وجع.

- يا الله.. يا الله ماذا أفعل ويداي ملوّثتان بخطيئتها؟

- أنتَ تصعّب الأمور عليكَ يا عمّي، كان مقدراً لها الموت، الآن أو غداً. حانت ساعتها فتوفاها الله.

- أسلمت الروح بين يدي، انطفأت وانتقلت إلى الرفيق الأعلى، مازلتُ لا أصدق أنها خبت، توفيت دون أن أعتذر إليها، قلتُ في سرّي ستستيقظ، هي فقط إغماءة بسيطة لكنها طالت.

- رحمها الله، انهض، لديك أطفال صغار، هم بحاجتك أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

- كيف أبتسم لهم وينبوع دموعي لم ينضب، كم وددتُ لو أن روحي زُهقت في أرضٍ ما، لو أنني من توفّاني الخالق، لو أنني رفضتُ طلبها لما ماتت بهذه الوحشيّة، وأنا... أنا مازلتُ حي.

صمت مالك ولم يجبه، كان مستمعاً جيّداً.

- حملتها بين يدي، ناديتها، أيا ميديا يا صديقة العمر الجميل، لكِ ما تطلبين فانهضي، نظرتُ إلى السماء وطلبتُ من الله أن يعيدها إليّ يوماً واحداً فقط لأكفّر عن خطاياي جميعها، أليس لديها متّسع من الحياة حتى ضاقت بها الدنيا.

- فاتسعت لها السماء يا عماه، الله أرحم مني ومنك بها، هي أمته الضعيفة، سيعاملها برحمته وبإحسانه، أدعو لها لعلّها ببركة الدعاء تنجو.

- اذهب يا مالك واتركني وحدي.

- ورنيم ماذا عساي أقول لها؟

- لا طاقة لي برؤيتها، أخبرها أنني سأطلق سراحها كما رغبت، فلتفعل ما تشاء.

- بهذه السهولة.

- لا قدرة لي على رؤيتها مرّة أخرى، سأستذكر في كلّ مرة أراها ما فعلته بهما معاً، هي لم تأثم، أنا الآثم الوحيد في قصتيهما. أرجوك لا قدرة لي على المجادلة.

- حسناً كما تأمر.

هبّ واقفاً.

- سأعود غداً لأطمئنّ عليك.

- مالك.

- نعم عمّاه.

- سأرسل لها ورقة الطلاق، خذها إليها حين تصبح جاهزة ومعها مبلغ من المال تعتاش به، وأخبرها أن تسامحني عن أخطائي بحقّها.
- سأعرّج عليكَ غداً.

مرّت أيام العزاء الثلاثة في حزن لفّ المزرعة كلها، الكلّ يتحدّث أن وفاة سيّدتهم سببه رنيم. صاحت إحداهن:

- إنها ساقطة.
- إنها شيطانة كبرى، غررت بالسيّد فقتلت زوجته.
- أيعقل أن تكون واحدة بهذا الخبث؟
- وأكثر من ذلك، الجميع يتحدّث عن أفعالها الشيطانية.
- إنها امرأة فاسدة فاجرة، فعلت ما لم تجرؤ كارين على فعله.
- لم يسبق لي أن رأيتُ خدّاعة كهذه.
- ماكرة وخبيثة.

ذهبن إلى بيت جنّار يطالبنها برنيم، يردن معاقبتها على أفعالها الشيطانية، كتبن على جدار البيت (أنتِ شيطانة يا رنيم) (ماكرة وداهية) (فاجرة وفاسدة)، فتحت جنّار الباب فسألنها بوقاحة:

- أين تلك التافهة؟
- من هي؟
- العفريتة التي تخبّئينها في بيتك.
- ليست هنا، غادرت منذ أربعة أيّام وخمس ليالٍ.
- أغادرت لتفسد رجلاً آخر؟
- ليست بهذا السوء.
- أيّ سوءٍ تقصدين، طوال لعمري ما رأيتُ امرأة ماجنة كالتي تدافعين عنها،
- طالحة وفاسقة.
- أيعقل أن تكون نفس بشرية بهذا السوء؟

صرخت جنّار:

- أهناك ألفاظٌ نابية أخرى لم تلصقوها بها؟

صرخت شاهيناز:

- اخرسي يا جنّار، واحتفظي بلسانك في فمك، فأنتِ من آويتها.

- ربّما هي من علّمتها الانتقام لابنتها.

أغلقت بابها في وجوههن، وصلّت إلى ربها راكعة أن يزيل عنها أحقادهن، ينوّر بصيرتهنّ فيعرفن الحقيقة.

اعتكف هافال في بيته أسبوعاً كاملاً، ولم يغب مالك عنه، كان يأتيه بكلّ ما يحتاجه، زاد الحمل عليه أضعافاً مضاعفة، فكان يتّجه صباحاً إلى الأرض يملي على العمال أوامره، ثم يذهب إلى جنار، ويطمئنّ عليها وعلى أم حسام يجالسهما قليلاً ويرحل، أعاد طلاء بيت جنار من جديد، مهدداً النسوة إن اقترين من بقعتها الخضراء، يرحل إلى عمه يحادثه كثيراً، ويحكي له عن ضرورة خروجه من مقبرته التي أصرّ أن يدفن نفسه فيها، وبعد ذلك يرحل إلى بيته ويطمئن على مرام ويعود إلى عمه فيبيت عنده.

مضت عشرة أيام، وجاء يومٌ عصيب على مالك، فشهق، وصُدم لحدثٍ غاب عنه، وظهر الآن، حصل ذلك حين تطلّع إلى ورقة طلاق عمه وعقد زواجه، وكان الاسم الحقيقي ظاهراً لا مستتراً، قرأ بتمعّنٍ كلّ حرف فيها، اسمها، مولدها، خانتها، وبعدها همس بصدمة:

- مرام.

ونظر إلى عمّه ينتظر منه أن يسعفه بمسوّغات كثيرة. لكنه قال شيئاً آخر:

- هذا اسمها الحقيقي، تعال معي لأمنحكَ شيئاً تعطيها إياه.

سار وراء عمّه كالمغيّب وهو مصدوم مما رآه، سأله بحيرة:

- أخبرني يا عماه، أكنتَ تعرف اسمها الحقيقي؟ كيف عرفتَ ذلك؟ ومن أتى بها من العاصمة إلى هنا وبيننا مسافات كبيرة؟ أأنتَ من أحضرها إلى هنا؟

- وهل عُدمت بنات حلب لأجلب واحدة من الشام، اتبعني ولا تكثر الكلام، ستعرف الآن كل شيء.

أخذه إلى الحظيرة، وأدار المفتاح بالقفل.

- منذ متى تقفلها؟ لم أرها مقفلة أبداً.

- منذ حادثة مرام.

- لماذا لم تعدها إلى ديارها؟

- كانت غلطة، وسأصلحها الآن.

- بعد الذي حصل.

- لا تحمّلني سعة لا أطيقها.

فتّش في كومة القشّ حتى حمل بين يديه حقيبة نسائية، رماها إلى مالك الذي احتضنها بكلتا يديه.

- هذه لها، عرفتُ فيها كلّ شيء عنها حين فتّشتُ الحظيرة باحثاً عن دليل يوصلني إلى الجناة، فوجدتها ملقاة على الأرض، فحصتُ محتوياتها ورأيتُ بطاقتها المدنية، تحريّتُ عن أمرها وتقصيّت أخبارها.

- وما عرفتَ أخباراً عنها؟

- كلّ شيء مدوّن بدفتر صغير في الحقيبة، عد بها إلى الشام لتجتمع بأسرتها.

- أنتَ استغللت فقدانها لذاكرتها لتسحبها إلى قاعك.

- أأعتذر لها؟ هذا المبلغ سيجعلها تنسى.

حمل مالك الشيك بيده، وتأمّل المبلغ الكبير، وقال:

- أكلّ مشكلة عندك تسوّى بالمال؟

- خلقت الثروة لنسوّي بها مشاكلنا.

- ومشاعرها وذكرياتها وحياتها وشرفها، ألا يعني هذا لك شيئاً؟

- وهل اغتصبتها؟ فعلتُ ذلك بعقدٍ شرعي.

- وهل الاغتصاب عندك فقط كما تتصوّر، أنت اعتديتَ عليها في أوّل لحظة لها هنا حين كذبتَ عليها واستغللتَ ضعفها، حرمتها من العودة إلى الديار بإشاعة أخبار ملفّقة وبثّ الرعب في قلبها، فعلتَ أشياء كثيرة يا عمّاه أكبر من أن يتصوّرها العقل البشري.

غادره بصمت وبدموع في القلب قد اتكأت على أحزانه، لم يسأله عنها أبداً. كلّ شيء انقضى بلمح البصر، هكذا بسهولة، بجرّة قلم أخرى تُذبح امرأة وتسلخ مشاعرها، وكأنّها لا مرئيّة، بجرّة قلم تنتهي الحال من حبيبة الروح إلى غريبة عن الروح، ولكن هل كانت فعلاً حبيبة؟

وضع مالك يديه في رأسه، وجلس أمام الكوخ:

- يا رب كيف أحتملُ كلّ هذه القسوة؟ وكيف تحتملها هي؟

حمل الحقيبة، وأخفاها في جيب سيارته أسفل المقعد لئلا يعثر عليها أحد، سار على مهل في شوارع عفرين كلّها، ونَفَسه يعلو ويهبط، شعر أنّه يختنق ولاسيما حين استذكر محبوبته إذ قال له ذات نهار صيفي:

- "المال يفعل المستحيل

- ولكن لا يمنح الحب ولا الصداقة، هي أشياءٌ لا تُشترى.
- الكل سيمنحك الحب إن كنت من أصحاب الأموال، وسيكون لديك العديد من الأصحاب.
- سيتبخّر الجميع إن فُقد المال.
- لا يهم، المهم إخلاصهم والمال بين يديك.
- هل تحبّين المال يا رنيم؟
- أو هناك من لا يحبّه؟
- أكثر مني.
- لا تقارن الأمر كي لا أحار بينكما، أخترتك لأنني أحببتك.
- والمال ملك يديّ.
- ربّما.. ربّما لو كنتَ مفلساً ما أحببتك.
- أنت صادقة وجريئة.

ابتسمت، وقالت:

- تقصد أنني وقحة.

- لا يا حبيبتي.. خيرٌ لكِ أن تصدقي من أن تكذبي عليّ وتنافقي."

أعادته الذكرى إلى أرض الواقع، فغادر مسرح الألم واتجه إلى سيارته، وصل البيت ودلف إليه صامتاً، ركضت إليه وسألته بلهفة طفلة صغيرة تنتظر والدها:

- أسألكَ عني؟ هل قال شيئاً ما؟ هل اشتاق إلى رؤياي؟ خذني إليه يا مالك لعلّني أواسيه على ما فقد وأكون بجواره، فلا يعقل أن يمرّ بمحنة وأنا جالسة هنا وحدي دون سبب واضح.

- اتركيه وهمومه يا رنيم.

- لن أتركه، فهو لم يتركني حين كنتُ بحاجة إلى أحدهم، إذ منحني الطعام والملبس والمأوى.

تطلّع إليها وهمّ بدخول غرفته، صرخت به:

- مالك.. لمَ لا تجيب؟ أخرجني من هنا، لا أطيق حبسي في سجن أسود مظلم.

اقتربت منه، ووقفت أمامه قائلة:

- أريدُ الذهاب الآن، لقد جهزتُ الحقيبة، إن لم تستطع القدوم معي فدلّني على العنوان، وسأذهب وحدي.

كانت تثرثر وهو صامت يتأمل جبال عينيها الشاهقة، غارقاً بما أخبره به عمّه عن ماضيها إذ رأى في الحقيبة صوراً لمن كان حبيبها، كان يشبهه في الجسد ولكن الملامح مختلفة، لذلك كانت تختلط عليها ذكرياتها بواقعه، انتشلته من شروده وهي تقول:

- افتح لي الباب، لم أعد أطيق صبراً.

- أأنتِ على استعداد لسماعِ ما يؤلمك؟

- لن يؤلمني شيء بعد الآن.

- أأنتِ واثقة من ذلك؟

- أفصح عمّا في جعبتك.

- هافال...

- ماذا جرى له؟

- لقد سرّحكِ بإحسان كما طلبتِ منه.

- أنت تكذب.

- لا أفعلها، وليس لي حاجة بقولها.

- هذا ليس إحساناً، إنه لإساءة كبرى وخطيئة لا تغتفر. أهو قالها؟

- هاكِ هاتفي، اتصلي به واسأليه.

أخذت الهاتف منه، واتصلت به، بعد رنّتين جاءها صوته عميقاً بعيداً.

- أجل يا مالك.

- أنا رنيم.

لا أحد يجيب، صمت يخنقها، يرعبها، يمزّق معدتها، يؤلم رأسها، طال الصمت إلا من أنفاس كليهما.

- لمَ فعلتها؟

- ألم يكن هذا طلبك؟

- ولكن لمَ الآن؟

- لا أستطيع.. صدّقيني.. لم أستطع التحمّل.

- وهل ستعتذرُ ككلِ مرّة تغيب فيها؟

- أجل، وأكرر اعتذاري.

صرخت بألم:

- هل مزّقتَ ورقة رسم؟ هل هشّمتَ كأساً؟ هل حطمتَ جداراً لأحدهم؟ هل جرحتَ كلباً؟ أتعتذر بسهولة؟ أنتَ مزقّت قلبي، هشّمت روحي، حطّمت أيامي، جرحت ذاتي، أيجبرُ اعتذارك ما أحدثته من حطام في قلبي؟ أبهذه السهولة ينتهي ما بيننا؟ باعتذار بسيط، اعتذارك هذا تقوله لشخصٍ حطّمتَ زجاج نافذته، لطفل دست على قدمه.

أخذ منها مالك الهاتف، أغلق الاتصال ودخل غرفته فأغلقها بالمفتاح، طرقت الباب فلم يستجب:

- أعطنيه يا مالك، لم أنهِ كلامي بعد، هو أخبرني في آخر مرّة التقينا أنه سيبقى إلى الأبد معي، قال لي أنه سيوصلني إلى برّ الأمان، لماذا قطع الحبل قبل أن أمشي عليه، قطعه لأسقط من علو شاهق.

بكت على باب مالك المغلق كثيراً، ولم يفتحه إذ كان يتألّم لألمها ويتوجّع لوجعها، يؤلمه أن تبكي عمّه كثيراً في وقتٍ لم تكن بين يديه سوى لعبة يلهو بها. هرعت إلى غرفتها تنتحب لخيبتها.

مرّت خمس ليالٍ ومرام معتكفة في غرفتها لا تخرج إلا لماماً، وكلّما حاول مالك التحدّث إليها صدّته، اخترق الألم مسامات قلبها، والمسمار الصدئ مازال يواصل عمله دون هوادة ولم يعثر على ذكرى جديدة، استلقت على سريرها كثيراً، قضمت أظافرها فشوّهتها، عبثت بخاتمها، تفرّجت على المرج الأخضر من خلف النافذة، حفظت رسومات السقف الذهبية، ولم يغيّر الأمر شيئاً، وفي النهاية خرجت من غرفتها تريد أن تريح أعصابها بالحوار معه، فوجدته مستلقياً على الأريكة في الصالة مخبأً وجهه في يديه، جلست قبالته فاعتدل في جلسته قائلاً لها:

- كيف أنتِ الآن؟

- بخيرٍ إن بقي الناس بعيدين عني بعد السماء عن الأرض.

- إنه قدرك.

- القدر بريء من أفعال البشر الشيطانية.

سكتت وسكتَ، تطلعا إلى بعضهما وفي قلبيهما أحاديث شتّى، وفي عقليهما كلام لا يقال حتى همست:

- هل كان التخلّي عنب سهلاً إلى هذا الحد؟
- لن يستطيع يا رنيم، وإن عاد إليكِ فسيظلّ شبح ميديا عالقاً بينكما.
- لستُ بقاتلتها، هو من أقدم على ذلك. لماذا أتى في تلك الليلة، وهو طبعاً يعرف أنني المقصودة في حكايتها؟
- ربّما أتاكِ ليجعلكِ واقعاً أمام الناس.
- لذلك تخلّى عني في النهاية.

عاد الصمت يتأمّلهما، ينتظر منهما تبديده.

- إلى متى سأبقى سجينة لديك؟
- إلى أن يشاء الله، ثمّ لا مكان ترحلين إليه.

ضحكت مرام، وقالت:

- ها أنتَ تلعب على الوتر ذاته.

- أحبك، ولن أدعكِ تهربين مني.

- هل تجبرني على حبّك بسجني هنا؟

- وسأفعل أكثر من ذلك، ما يهمّني هو أنتِ.. أنتِ فقط.

هبّت واقفة

- لا أرغب في خوض المزيد من التجارب، أريد البحث عن عائلتي وذاتي، أريد البحث عن مكانٍ كان انتمائي.

هبّ واقفاً أيضاً، وأمسك من بمعصميها هادراً في وجهها.

- لن تخرجي من هذا البيتِ إطلاقاً، أنتِ لي ولن تكوني لغيري، أنا عثرتُ عليكِ فوقعتُ في غرامك، لا كما فعل هو، افهمي يا رنيم.

- لن أتزوّجك ما حييت.

- سأتزوّجكِ لأكفّر عن ذنبي.

- لستُ ذنبكَ لتكفّر عنه، كفّر عنه في مكان لا أنتمي إليه.. أنا..

ثمّ تمهّلت قليلاً، وسحبت يديها من يديه، سارت في الصالة تفكر بذنبه الذي ذكره ثلاث مرّات، رنيم هي ذنبه الأكبر، وإلا ما سماها باسمها، وما كان ليلهثَ ورائها كلّ هذه المدة، نظرت إليه:

- ماذا فعلتَ لها؟

- من؟

- رنيم.. ماذا فعلت لتحاول التكفير عن ذنبك في؟

جلس على الأريكة، وانحنى إلى الأمام واضعاً رأسه في يديه، أما هي فظلّت واقفة منتظرة جواباً لسؤالها.

- كنتُ مستعدّاً للموتِ من أجلها، كنتُ مستعدّاً للقتل أيضاً؟

اقتربت منه، وجثت على ركبتيها أمامه، وقالت بنبرةِ منخفضة:

- فقتلتها.

لم يصلها سوى الفراغ. أمسكت بكتفيه تهزّهما بعنفٍ، وصرخت:

- مالك أخبرني.. هل قتلت رنيم؟ هل فعلت ذلك؟

بكى ندماً واشتياقاً، ثم نفض يديها عن كتفيه، وزأر في وجهها كأسدٍ ذبيح.

- أجل قتلتها، قتلتها لأنني أحبّها.

- الحبّ والأذيّة لا يجتمعان معاً.

هبّ واقفاً، وصرخ في وجهها:

- ماذا تعرفين عن الحب؟ كانت أحبّ النساء إلى قلبي، فعلتُ لها كل ما أستطيع فعله لجعلها سعيدة، تعانقنا مئات المرّات عند شجرة البيروفي، ونقشنا عليها حرفينا، رسمتُ لها الحبّ بإطارٍ من ذهب، لكنّها تركت حبّي وباتت تبحث عن صانع الإطار، كنتُ مغفّلاً، لم أفهم إيحاءاتها عن المال والحب والفارق بينهما، حتّى رأيتهما متعانقين تحت ظلّ الشجرة التي نجلس تحتها كل نهار، كان يعانقها كأنّها ملكٌ له، ماذا عساي أفعل وأنا أرى أحبّ اثنين إلى قلبي متعانقين (مثلي الأعلى وزوجتي)، ظللتُ واقفاً أشاهد تمثيلهما الرخيص حتى فرغ من عناقها، وقبّلها قبلة أحدثت في قلبي شرخاً كبيراً، تركتهما وغادرت، ثم لم أنم تلك الليلة، كان الليل عدواً شرساً إذ بثّ مشاهد كثيرة لهما، كرهت ضعفي تلك الليلة التي كانت أطول ليلة في حياتي، لحظة اكتشاف الغدر ممن نحب هي

لحظة تقسم الظهر، صدّقيني يا رنيم، لا لحظة أقسى منها. لذلك كنتُ أشجعك على الهرب كي لا تكوني نسخة عن كارين أو رنيم.

عادت، وجلست على الأريكة، وقالت:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- في تلك الليلة هاتفتني أنها ستبيت لدى جنّار تؤنس وحدتها، وفي الليلة الثانية حين جاءت البيت وأوت إليّ، رأيتُ في كلّ ذرّة فيها خيانة قديمة لا جديدة، تشاجرتُ معها فلم أطق صبراً، حاولت الإنكار، جذبتها من شعرها وصفعتها صفعات عديدة، لم يبرد نار قلبي المحترق، دفعتها بيدي فوقعت على حافة السرير، وأسلمت الروح.

صرخت مرام، ووضعت يدها على صدرها، وقالت:

- وكيف نجوتَ من فعلتك هذه؟

- المال يصنع كلّ شيء بأدلة بسيطة، جعلتُ أخويها المتّهمين بحجة ورثة كانوا دائمي الشجار عليها.

- كيف وهي في ديارك؟

- استطعتُ نقلها إلى حديقة بيتهما وأزلتُ البصمات، لم يكن أحد في البيت وأم حسام كانت نائمة لدى جنار. وأخواها كانا يعملان إلى وقتٍ متأخّر من الليل.

- أنت شيطانٌ يا مالك، وكلّ هذه المدة تبكي وتنتحب حتى ظننتُ أنه ليس لعشقك لا مثيل، تعرج على تلك العجوز وتقسم لها بذات اليمين أنك تبحث عن ولديها، ما أنت؟ وفي النهاية تعمل مع عمّك كأنّ ما حصل قد تمّ نُسي.

وقفت واتجهت إلى النافذة، اقترب منها فابتعدت.

- لن أؤذيكِ يا رنيم، لقد ذبحت قلبي، افهمي ذلك، أنا لم أقصد قتلها، كنتُ أريد تنظيفها من قذارة عمي، وحين همتُ بكِ وجدته قد سبقني كعادته، ماذا أفعل وفي كلّ أمرٍ أطلبه أجده قد سبقني إليه أو سرقه مني، وكأنه يستكثر عليّ الفرح.

- إذن ذهبت إلى بيته شامتاً، ولم تكن معزّياً.

- أجل، وسأفرح لنكباته وأغني لمأساته وأحزن لانتصاراته، كنتُ سأخطفكِ منه لأنتقم، لأخبره أنني ربحتُ في نهاية المطاف، لكنه رماكِ إلي دون أن تتسنى لي فرصة الانتقام.

- وهل أنا لعبة ليرميها وتلتقطها ؟ من أخبرك أنني هدية القدر لكليكما؟ أنتما وجهان لعملة واحدة، أنت مريض يا مالك ولا أمان معك،

هربت إلى غرفتها وأغلقتها بالمفتاح، ارتمت على السرير وظلّت ترتجف، كانت تعشق قصة حبّه، لكنها الآن تراه مجرماً، وما حبّه هذا سوى تمثيل رخيص لإيهام الجميع بإخلاصه لمحبوبته. خرجت من الغرفة لتطرح عليه أسئلة لا إجابات لها في ذهنها، اقتربت منه وهو واقف مستنداً إلى حافة النافذة:

- وأم حسام لا تعرف الحكاية.

أجاب دون أن يدير وجهه:

- أخبرتها أن رنيم توفّيت في حادث سيّارة،
- ألم تُستدع إلى التحقيق؟
- قدّمتُ أوراقاً على أنها مصابة بالخرف.
- وعن ولديها ماذا أجبتها؟

- لا تعرف إلى الآن أين هما، أبقيتها لدى جنار شهراً كاملاً بحجة أن ابنيها يعيدان ترميم المنزل. وأعدتُ أنا الترميم.

- لديك العديد من الحلول الشيطانية.

نظر إليها، وأشاح وجهه عنها، وقال:

- حاولتُ الانتقام لكارين ولرنيم ولكِ، حتى ميديا لم تسلم من ظلمه، لكنه دوماً كان الأسبق في خطواته، ولم أصل البتّة.

عاد، ونظر إليها قائلاً:

- رنيم، أنا لن أؤذيكِ أبداً.

ابتعدت عنه.

- ما أنت إلا إنسان قاتل.

وعادت إلى غرفتها تستحضر كلامه القديم عن رنيم، إذ كان يتحدث والدموع تطفر من عينيه، أكان جاداً في دموعه؟ أم كانت دموع توبة؟

اعتكفت في غرفتها لا تقرب طعاماً ولا شراباً، تجلس على سريرها شاردة واجمة في ما حدث لها، وكان يأتيها بالطعام إلى محرابها فترفضه، يريدها أن تعيش لا أن تقتل نفسها، حتى خشي عليها من علّة تفتكُ بها بسبب عنادها، اقترب منها وظلّ واقفاً يتأمّل شحوب وجهها وشرود عينيها ثم قال بصوتٍ هادئ:

- هل تريدين قتل نفسك؟

كانت متقوقعة على ذاتها ورأسها في يديها مختبئ، همست دون أن تنظر إليه.

- أنتظرك لأمنحك هذا الشرف.

- أخبرتكِ أنني لن أمسّكِ بسوء، هذا وعدٌ مني والرجال لا يحنثون بوعودهم.

- وهل أنت رجلٌ؟

نظر إليها شزراً، فاقتربت منه، ووقفت قبالته قائلة:

- ورنيم أحببتها كثيراً فقتلتها، لم تتوقع منك يوماً أن تقدم على قتلها.

- لم يكن ذاك بقصدٍ مني، افهمي ذلك ولا تكرريه ثانية.

- ليس عندي ما أخسره، اقتلني كي لا أبوح بسرّك العظيم.

- وهل تجرئين على البوحِ به؟

نظرت إليه بازدراء، وجرّت نفسها إلى الباب، وقالت:

- اخرجِ من هنا.

- أتيتكِ بالطعام فلا تعاندي ولا تكوني بهذه الحدّة معي.

- تغيّرتَ كثيراً عمّا كنتَ عليه، كأنّك آخر لا أعرفه.

- الألم يغيّر صاحبه.

- هل تشعر بالألم يا مالك؟ هل تملك إحساساً ومشاعر؟

ثمّ صرخت في وجهه:

- إني أختنق منكما، أريد المضي بعيداً، أبعد ما يكون عنكما.

ثمّ اتكأت على حافة النافذة، وأبعدت الستارة متأمّلة الأفق البعيد، وهمست:

- أريد المضي كجندي مهزوم لم يعد لديه رغبة المقاومة، تعبتُ يا مالك، آن لي أن أستريح، لكني لا أريد أن أستريح في أرضكما، أريد الابتعاد فلا تصلني أصواتكما مهما علت وارتفعت.

- إذا حررتكِ.. فهل تعدينني أن تعودي إلي؟

نظرت إليه بحدّة أحرقتهُ، فأكمل:

- إني في حبّك غارق يا رنيم، ألهج بذكرك كلّ حين، أريدكِ حبيبة مدى العمر.

تركها، وغادر، عاد بعد دقائق وبيده حقيبتها، نظر إليها قائلاً:

- أعرف أنك ستغادرين دون العودة إلى هنا، إذ جعلت منكِ هذه الأرض امرأة أخرى، ذبحتكِ وسلختكِ على أعتابها، الآن ستلومين عمي وستلومينني كذلك، ولكن صدقيني لم أعرف بحقيقتك إلا بعد أيام العزاء، كان عمي يعرف كلّ شيء منذ الساعة الأولى لكِ في المزرعة، لذلك أخفاك عن أعين الجميع. هاكِ حقيبتك وفيها كلّ ما يخصّك.

كانت تتحدث، وهي تفتح الحقيبة:

- كنتُ أرغبُ أن أكونَ ضميراً ظاهراً فحسب، لا ضميراً مستتراً، يفاخر بي قومه ولا يخفيني في ظلام الليل.

فتّشت الحقيبة بألم، وتراءت لها صور الحبيب الغامض وكلّ ما يخصّها. همست بألم:

- مرام اسم جميل.

تركها تبكي وصفق الباب خلفه، في تلك الليلة لا هي نامت ولا هو نام، زارها سهادٌ لعين فاستحضر معه الألم والعذاب، وتهجّد الليل بطوله حتى أشرقت الشمس وأتاها يطمئنّ على حزنها.

- كيف أنتِ؟

- لا شيء بخيرٍ سوى حزني الذي يعيشُ في قلبي كأن القلب مسكنه.

- أدركُ يا رنيم بأن الكرى لم يزركِ إطلاقاً، وكذلك الأمر عندي.

قاطعته بصرامة:

- اسمي مرام، أتراكَ حين تناديني باسمها أتناجيها ؟ أم تحادثني أنا؟ أم أنا وإيّاها سواء؟

- طبعاً أحادثكِ أنتِ، الله ألّف بين قلبينا إذ أغرمتُ وأولعتُ بكِ، أبتغي وصالك العمر بأكمله، فلا تقطعي الطريق بيننا.

- وهل هناك طريق ما بيننا، يا مالك ما بيننا أرض وعرة مليئة بالوحلٍ، ليس هناك طريق مستقيم. ومن ثمّ أيضاً أحببتَ رنيم وألف الله بين قلبيكما، تعلّقت بها وبجمالها، أصبحتَ متيّماً، شغفتَ بها حباً وحاصرك العشق من كلّ جانب، ثم أنهيت غرامك بأشدّ الطرق مأساويّة.

صرخ في وجهها:

- ماذا أصنع وقد أعرضت عن حبّي، وعافتني فأذاقتني ألماً وعذاباً؟

خرج إلى الصالة، وجلس يتأمل ما جرى بحزنٍ شقّ قلبه، سيعيدها إلى عائلتها فقد خسرها ولن يستعيدها، خسر قلبها وهيهات أن يمتلكه، لن تكون له أبداً، مهما أبقاها هنا ومهما حاول أن يقترب منها، ستبقى بعيدة تذكّره بالندبة الأولى، لن يكون الأمر سهلاً لكليهما لاسيما هي، فقد رسمت لها عفرين خطوطاً متباينة من الألم، جبال عفرين وسهولها تشهد على جرحهما إيّاها، كل ما أرادته أن تستريح من الطريق الطويل، لكنه كان مليئاً بالأفاعي فلم تسلم من لدغها، لن يستحوذ عليها، فالجسد ربّما سيكون له يوماً، ولكن القلب لن يملكه، لذلك سيطلق سراحها، وهذا ما قالته، وهي واقفة أمامه تطلب منه أن يدعها ترحل إلى أسرة أكرم من الجميع، سألته بهدوء:

- هل تعرف مكاناً لهم؟

- الأمر ليس بهذه الصعوبة، سنسأل ما إن نصل، ولكن لي رجاء لديك.

- ألا أخبر أحداً بأمرك.

أومأ برأسه، صاحت:

- ولي رجاء أيضاً.. أن تنساني.

- لا أستطيع، سترينني زائراً لدى أسرتك كلّما سنحت لي الفرصة. والآن أعدّي نفسك للانطلاق.

الآن سترى أسرتها وستتعرف إليهم من جديد، كان الخوف يكبّل أضلاعها ويشلّ تفكيرها، كانت خائفة ألا يتقبلوها أو لا تستطيع التعايش معهم، ومع ذلك رحبت بالفكرة لأن لا مكان يأويها، ثم تريد الهرب منها بأسرع وقت. هنا ذبحت على مذبح أفراحهم، تقاذفوها فيما بينهم ككرة طائرة، ولم تقع على الأرض إلا بعد خذلانهم وخيباتها التي تراكمت كتراكم الغبار على عتبات بيوتهم.

ظلّت السيارة تسير وقد اعتزلته، حتى وجدت هوادة في ذلك، فلم يلحّ عليها بالكلام ولا بادرها بسؤال، كانت صامتة لا تنطق بحرف، لذلك لم يجرّها إلى أيّ حديث.

تختلف هذه السيّارة عن سابقتها التي قدمت قبل أربعة أشهر، هنا ليست مقيّدة اليدين بل مقيّدة الفكر، الألم يحرق فؤادها ويربك عقلها. أربعة أشهر مرّت دون أن تقاوم، لا ربحت الرهان ولا فازت باللعبة وخسرت كلّ شيء، خرجت من المعركة منهكة تبحث عن أرضٍ لتستريح، تريد الفرار وكلّ الدروب شائكة، تريد الهروب من أفكارها، من ذكرياتها، من نفسها، تريد أن تخلع جلدها وتمشي، أن تنسى ما صادفته هناك. انزلقت الدمعة فكوت وجنتها، أغمضت عينيها وتراءت لها المزرعة بأيامها كأنها شبح جثم على صدرها ليخنقها وتزايد الوجع في معدتها، تأوّهت بأنينٍ خافت، نظر إليها قلقاً من حالها، وبادلته النظرات بنظراتٍ أكثر تشتتاً، ثم أدارت وجهها إلى الأمام، وهمست:

- هل سيرحبون بي؟
- طبعاً.. ألستِ ابنتهم؟
- ولكن لا أعرف أي الآباء هو وأيّ الأمهات هي، وهل لي أخوات يحتملن سماع ما مررتُ به؟ هل لي إخوة ذكور؟ دعنا نتحدّث في كلّ شيء إلا هذا الأمر، فلا طاقة لي بالتفكير به.

وتحدّثا كثيراً، أخبرها عن ندمه، فمنذ الحادثة كوابيسه لا تنقطع، أبلغها بأسفه عمّا حصل لها بسبب جبنه وتخاذله، أعلمها بأمورٍ شتّى عن حبّه الحقيقي لها، تفوّه بأمورٍ يتكلّم بها أول مرة وهي صامتة تستمع وتصغي حتى جاء دورها في الثرثرة فتكلّمت عن مخاوفها ووحدتها في أرضه، تشوقها لهافال فبين يديه كانت تجد الراحة والأمان، حدّثته عن جنار وأم حسام، عن كارين ورنيم. حكت له أنها رضيت عنه ولكن مازال في القلب حاجزٌ يمنعه من الوصول إلى الفؤاد، أنبأته أنها لا تستطيع تقبل الأمر، الآن على الأقل. تحدثا كثيراً وأصاخت السمع، وقد أصغى إليها، وثم شكرته على حسن استماعه، على ما قدّم لها وعلى شعوره بالذنب وعلى صدقه معها.

وصلا إلى حارتها كما العنوان المدوّن في الدفتر الصغير، وسأل مالك عن البيتِ كلّ إنسانٍ صادفه حتّى وصلا إلى بناءٍ قديم تتوسّطه أشجار الكينا العالية، صعدا الدرج المظلم وكانت الشقة في الطابق الثاني، وحين وصلا استعادا أنفاسهما، وطرق مالك الباب طرقة واحدة، بينما ازداد شحوب وجهها وارتجافة جسدها، قالت:

- تعال نهرب.

ابتسم، وقال:

- أنهرب الآن بعد أن قطعنا هذه المسافة الطويلة؟

- أنا خائفة، خائفة جداً.

- أنا معك فلا تبالي بشي.

فُتح الباب وأطل شاب فارع الطول، حدّق في الاثنين، وصرخ بفرح:

- مرام.

وعانقها بشدّة، وكأنه يحاول الالتحام بجسدها، نادى عائلته، ركض الجميع والكل يعانقها عناق اللقاء بعد فراقٍ طويل، بينما ظلّت واقفة كتمثالٍ لا يسمع ولا يرى، حدّق بها الجميع، عادت والدتها وعانقتها تذرف عبرات الفرح، انتبه والدها إلى مالك، فسأله:

- من تكون؟

- لا يعقل يا سيّدي أن نتحدّث هنا.

- تفضّل.. أعتذر منك، فصدمة رؤيتها ألجمت لساني.

دخلوا إلى صالة فسيحة، توسطت مرام أمها وأختها وكانتا غريبتين عليها. همس مالك:

- إنها فاقدة للذاكرة، لن تتعرف إلى أحد.

نظر الجميع إليها فأطرقت رأسها خجلاً، نظر إليه والدها وسأله:

- كيف حصل ذلك؟

قصّ مالك ما حدث مع مرام، وأخفى عليه معرفة هافال بالأمر، ومنحه عقد الزواج ووثيقة الطلاق كي لا يظنّ أحد السوء بها. صرخت والدتها:

- لقد وضعنا إعلانات مع صورها في كل الصحف والمجلّات والتلفاز، ما فتئ ينشر صورتها إلى الآن وحتى في الإذاعة وعلى مواقع التواصل الاجتماعي، لم نترك مشفى أو قسماً للشرطة إلا وسألنا فيها عنها.

تبادلت مرام النظرات مع مالك بحزن، أشفق لها هذا الأخير، فأطرق رأسه بأسف. أدخلتها أختها إلى غرفتها تقصّ عليها حكاياتٍ قديمة لا تذكرها، وهي تستمع مندهشة.

بات مالك ليلته في ديارها، وأوّل مرّة يكون هو الضيف عليها لا العكس.

رحلَ مالك في اليوم التالي قبل أن تشرق شمس الصباح، رحل دون رؤيتها.

جلس أيمن بجوار والده وكان غارقاً في التفكير يدخّن بشراهة، فسأله:

- ماذا ستفعل يا والدي في هذا الأمر؟

نفث دخان سيجارته، وأخذ نفساً عميقاً، ثم قال:

- لتعد إليها الذاكرة أولاً.

- وبعدها.. الناس لن ترحمها، سينهشون عرضنا وسيقولون ما ليس فيها.

- أعرف ذلك.. الأمر لن يكون سهلاً، ما رأيك في مالك؟

- لم أكوّن رؤية واضحة عنه، فلم أجالسه سوى ساعاتٍ قليلة.

- أمّا أنا فقد أعجبني، سنختاره لها عريساً، ولكن لنعمل معاً على إحياء ذاكرتها.

- وهل سيقبل الأمر؟

- أظنه واقعاً في غرامها، فمنذ جلس وعيناه لم تغادراها. وهذا إن دلّ على شيء فهو يدلّ على وقوعه في هيامها.

أصعب ما يصادف الإنسان أن يشعر بالغربة بين أهله. كانت تشعر بوحشة أصعب مما سبق، هنا الأهل والأحباب لكنّها غريبة عنهم، تشعر بهم وهم يحاولون الوصول إلى خلجات نفسها، وفي كل مساء تجلس ومنار وحديث الماضي يجمعهما.

تحدّثت منار عن ماضٍ قديم، حكت لها عن طفولتهما المشتركة وأيام المراهقة والدراسة، روت لها روايات كثيرة كلّها مرام بطلتها، باحت لها بكلّ الأسرار التي جمعتهما يوماً، وكانت أمها تغيب ساعة وتأتيها لتعانقها وتضمها إلى صدرها لعلّها تنسى أيام غيابها، حكت لها عن ليالي الأرق والسهاد التي داهمتها بكثرة، تهجّدت لربّها وصلّت وركعت ودعت أن يردّها إلى الديار سالمة. أجهشت بالبكاء وهي تستمع إلى مرام وما حلّ بها من نكبات، وصمتت مرام والظلال تسبح في خيالها، تعانقُ أطيافاً لا مرئيّة، وتهرول إلى الفراغ والمسمار الصدئ يحفر دون ملل أو كلال، أمسكت رأسها بكلتا يديها وأغمضت عينيها، ظنتا بأن الذكريات تحاصرها، وفي غضون أيام ستستعيدها، ولكن ها قد مرّ أسبوع والحال على ما هو عليه، فهاجموها أكثر بالذكريات والأحداث والشخصيات، يجب عليها ألا تسهو عن ذكرى واحدة، وألا تغفل عن حياةٍ كانت فيها، ظلّوا متمسّكين بالأمل، ولكنها فتحت عينيها أخيراً، وأطرقت برأسها صامتة، وهمست في خجلٍ:

- لم أتذكّر.

صاحوا جميعاً بأنهم لن ييئسوا وسيحاولون مرّة تلو الأخرى، وستنجح المحاولات، ابتسمت لهذا الكم الهائل من التحفيز والسعادة الحقيقية المرسومة على وجوههم، سعدت كثيراً وهي في حضن والدها وكلماته الرحيمة، سرّت بعناق أخيها وابتسامته غير المتكلّفة، في أحاديث أختها التي لا تنتهي، وفي رأفة والدتها وحنانها، بدأت تشعر بالانتماء وكأنها جزء من المكان، هنا هي مرحّب بها على الدوام ولا أحد سيملّ منها مهما طالت الأيّام، هنا مسموح لها بالبقاء دون شروط ودون قيود.

وعاد الكل يحفّزها لاسيما بعد سؤال الأقارب عنها وزيارتها والاطمئنان على ذاكرتها، الجميع يريد معرفة أين كانت ومع من كانت، الفضول يأكل سكان الحي، والكلّ يسعى لمعرفة تفاصيل جديدة عن عودة ذاكرتها.

عاد الظلّ يراقبها بملامحه المبهمة كأنّه يذكّرها بنفسه ألا تنساه، ها هو يطلّ عليها دون أن يكون لمالك يد في الموضوع، حان وقت معرفة كل شيء، ستسأل منار عنه إذ أخبرتها بأنها كانت ومازالت كاتمة أسرارها. انتظرت حلول المساء وإخلاد الجميع إلى غرفهم حتى جلست بجوار منار تسألها عن الظل ذي الملامح الغامضة، أنبأتها

عن شكله الخارجي، ابتسمت مرام وهرعت إلى الخزانة، فتحتها وأحضرت صندوقاً متوسّط الحجم، ناولتها إيّاه وقالت:

- إنه رشاد.
- ومن هو؟
- متيّم بكِ، وأنتِ كذلك.
- وهل الجميع يعلم بأمرنا؟
- لا.. لا أحد يعلم سواي، وفي هذا الصندوق ذكرياتكما المشتركة.

فتحته مرام وفتّشت محتوياته ببطء، كان بداخله عطور نسائية، عقد من الياسمين الذابل، حمّالة مفاتيح مذهّبة، قلم أزرق، ودفتر صغير مليء بملاحظات الغرام وأوراق شحرة البيروفي والعديد العديد من الرسائل، قضت الليل بطوله تقرأ رسائله الغرامية، كان الوله يغلّفها والحب كاتبها، من بين أوراقها أطلّ عليها الدله ينشد أشعار الهوى، فهوى قلبها وباتَ الألم ينخزُ قلبها الذبيح به، وهنا باتت علّتها بالوصب معلومة بعد أن كانت مجهولة.

وفي الصباح طلبت من منار أن تصحبها إليه، تريد أن تعرف أي الرجال هو ذاك الذي نسيت الجميع وظلت لذكراه وفيّة.

خرجتا إلى الصحيفة وثرثرة منار لا تنتهي، كانت لا تتقن لغة الصمت، عفوية في ثرثرتها دون أن تضع فواصل أو نقاطاً في حديثها، ومرام تستمع إليها والمسمار يدقّ بانتظام في أعلى رأسها، تحاول صرف نظرها عن الألم، فها هي ذكرياتها توشك أن تعود فبعد أن قرأت جميع الرسائل رأت صفحة وجهه النقيّة، لم يكن شبيهاً بمالك، وكان رهانها هذه المرة خاطئاً أيضاً.

وصلا إلى الصحيفة وكان الشارع خالياً إلا منهما، كانت أشجار البيروفي تصطفّ على طول الرصيف، قلّما يخلو شارع في دمشق من أشجار البيروفي إذ كانت تعدّ صديقة البيئة بأوراقها الكثيفة.

أمسكت منار بيد أختها قائلة:

- لن ندخل، لننتظره هنا، لا نريد أن تصبحي محطّة لألسنة الآخرين.

أومأت برأسها وجلسا تحت فيء الشجرة، وأكملت منار ثرثرتها فقالت:

- انظري خلفك تجدي أحرف الوصال تعانق بعضها.

نظرت خلفها فتراءى لها الحرفان ذاتهما (R+M)، تأملت الحرفين وقد كتب تحتها "أحرف الوصال تعانق بعضها"، تطلّعت إلى منار ثمّ إلى الحرفين الذين رأتهما هناك، لكنها لم تكن بطلة القصة، فالقصة تنتظرها هنا لتتوّجها بطلة في قصة أحدهم.

بعد قرابة نصف الساعة جاء رشاد مع أخرى، وقفت منار مصدومة مشدوهة، نظرت إلى مرام وبادلتها النظرات، وقفت تحدّق به برهة من الزمن، وبعدها اقتربت منها زميلتها، وسألتها:

- مرام فاجأتنا.. أين كنتِ كلّ هذه المدّة؟

اقتربت منار، وقالت:

- مرام فاقدة للذاكرة، لن تتذكّركما.

تقدّم وحدّق بها، ثمّ سألها:

- أين كنت؟

قصّت عليه بإيجاز ما حصل معها، أومأ برأسه ثمّ قال:

- حمداً لله على السلامة.

نظرت إلى عينيه، وقالت:

- لا أتذكّرك.. لكنك الوحيد الذي رافقني خياله يرافقني في كلّ اللحظات، كنتُ أستذكر هذه الشجرة وفيئها وأوراقها ويدك البيضاء، كلّها ذكريات غامضة ظلّ عقلي يرسلها إليّ حتى استطعتُ البارحة رؤية ملامحك جيّداً.

نظر إلى الأرض يبحث عن كلماتٍ ينطقها، وبعد دقيقتين نظر إلى جبال عينيها، وقال:

- تستطيعين نسياني من جديد، فلا أمل في لقاءٍ يجمعنا.

ودخل مقرّ الصحيفة هو ومن كانت معه، بينما ظلّت واقفة مصدومة خلال دقائق مرّت كساعات، حتّى سحبتها منار من يدها، وساقتها إلى المنزل دون التفوّه بحرفٍ واحد.

قالت حين أوت إلى سريرها:

- لمَ يسهل التخلّي عني إلى هذا الحد؟

- ليسوا جميعاً كذلك، فها هو مالك قد اتصل بوالدنا، ليأتي غداً ويطمئنّ عليكِ.

نظرت إليها، ثمّ إلى السقف واضعة يديها تحت رأسها، وقالت:

- مالك تحديداً هو آخر شخص أرغب في رؤيته.
- لمَ يا مرام، فهو شديد الوله بك.
- أعرف ذلك، لكن ولهه مؤذي.
- أحسدك يا مرام لأنك خضتِ تجربة رائعة، اثنان تشاجرا من أجلك.
- وتخلّى عني اثنان.
- ولكن ربحتِ الآخر.
- هل نحن في سباق؟

وجاءها مالك عصر اليوم التالي، اختلى به والدها في غرفة الجلوس، استجوبه بأسئلة دقيقة ليعرف مدى قربه من ابنته، تأكّد من الحبّ الذي يكنّه لها فطلب منه التقدّم لخطبتها في حال عادت إليها ذاكرتها، فرح مالك فرحة عظيمة وبان السرور على وجهه، فارتسم على وجه والدها وعلم أنّ الأمر أكبر من حبٍّ وغرام، أنه العشق والوجد.

وحين جاءت جلست بجواره، تركهما والدها يتحدّثان براحتهما، سألها عن حياتها هنا، إن كانت قد تأقلمت مع وضعها الجديد، انسكب دمعها، فقط في حضرته تذوب من الدمع وتبكي دون توقّف، لا تشعر به حبيباً بل صديقاً لذلك تصدق في مشاعرها وتحكي له كل آلامها.

حكت له ما حصل أمس، قصّت عليه إحساسها بالأمر، وهو يرهف السمع ويصغي باهتمام إلى كلّ كلمة تقولها، ودّ لو يعانقها فيزيل عن كاهلها الألم، ثمّ صاحت:

- كان ألم غيابه ينخز قلبي فأشعر به خاوياً على عروشه كأن لا دماء فيه ولا حياة، كنتُ لا أعرفه فأعيش على أمل ذكرياته، والآن بعد أن عرفته طردني من حياته بكلماتٍ سخيفة، ظلّت ذكرياته تحوم في ذهني حتّى لمحتُ وجهه أخيراً، كان وضّاءً كالقمر، بهيّ الطلعة، وحين اكتملت اللوحة طلب مني أن أنساهُ للأبد.

كان كلامها وهي تبكي ينحره، تتحدّث عن عاشق وصل إلى قلبها فاحتلّ كل جزء فيه.

- لماذا أقدم على فعل ذلك؟

- لا أعرف السبب.

- دعكِ منه، فمن تخلّى عنكِ فمن الحماقة أن تفكّري به، فكّري بمن يريدك الآن فحسب وليس غداً.

- لا تحاصرني يا مالك، أنت تعرف جوابي.

- وتعرفين عظم حبّك في قلبي.

أشاحت بوجهها عنه، وقالت:

- لا أستطيع.. ليس الآن.

- إلى متى عليّ الانتظار؟

- لا أعرف.. صدّقني، لا أعرف.

- إذن سأبقى على عهد الحب منتظراً حتى انقضاء العمر، ولن أملّ ذلك.

رويداً رويداً بدأت ذكرياتها تطفو على السطح، وفي مقابل كلّ ذكرى تجدها تضيع منها ذكرى في المزرعة، وكان المسمار الصدئ يواصل عمله على نحو أسرع، والظلال تتحول إلى شخوص حقيقية، والأشياء تظهر، والأماكن تألفها، وتصبح ذكرى المزرعة بعيدة جدّاً، كأن قدمها لم تطأها يوماً.

والدها يحدّثها عن ماضيها، والدتها تحكي لها حكاياتٍ كثيرة، أيمن يجلس كل يومٍ بجوارها ويروي لها رواياتهما معاً، ومنار تنبئها بأسرارهما.

يوماً إثر يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع الذكريات تتطاير، ومرام تتمسّك بها، وصداع رأسها يشقّه نصفين، تبكي، تنتحب، تتألّم، وفي النهاية تأتيها ذكرى واحدة.

مرّت الأيام على هذا المنوال، ومالك يأتي في كلّ أسبوع مرّة يطمئن عليها ويرحل، يرجو أن تنسى جلّ ذكرياتها هناك ليبدأ معها صفحة بيضاء لا تشوبها شائبة، وتوالت الذكريات تصدع رأسها وهي تحاول جلب العديد حتّى لو انفجر رأسها إلى قسمين، ما يعنيها محاولاتها والتي دائماً تنجح.

مرّ شهران، وجاءها سبتمبر حاملاً معه سلالاً من ذكريات الماضي، لتفتح عينيها أخيراً على كامل ذكرياتها هنا، لكن في المقابل لم يعد لها في عفرين أيّ ذكرى.

احتفل أهلها بعودتها إليهم، وأعلنوا الانتصار، عانقها الجميع وعمّت الأفراح في الديار، روت لهم سبب اختطافها، فقد كانت تريد نشر مادة إخبارية دسمة عن مروّجي المخدّرات، وجاءتها تهديدات شتى فلم تعرها اهتماماً، ظنّتها أقاويل فحسب، ولكنهم أرادوا قتلها في أبعد نقطة عن الشام، فشاء القدر أن تكون لها ذكريات منسيّة هناك.

كان أوّل شيء أرادته زيارة حبّ عمرها، الشخص الوحيد الذي لم تنسه وقضّ مضجعها في كلّ الأوقات، نسيت أسرتها بينما ظلّت ذكرى الحبيب تحوم في آفاق نفسها.

لم تخبرها منار بما حصل خشية أن تكذّبها، فرغبت أن تسمع الخبر بنفسها. لكنها طلبت منها المجيء معها كي تساندها. وارتدت أجمل ثيابها وذهبت للقائه، جلست تحت فيء شجرة البيروفي تتحسس أحرف الحب، مرّت ساعتان وهي جالسة في مكانها تقضم أظافرها.

لكم اشتاقت إلى رؤيته، اشتاقت إلى عينيه الصافيتين، وجاءها أخيراً لكن معه أخرى تمقتها، ما كرهت وجود امرأة بجواره إلا هذه، انتفضت على ضحكاتهما، وركضت إليه، وصاحت:

- رشاد.. أيا رشاد، أنا عدت.. عادت إليّ ذاكرتي، وبتّ أتذكّر كلّ شيء.

ظلّ يحدّق بها كمن يحدّق في فراغ، بينما نظرت الأخرى إليهما، وقالت:

- أنهي الأمر معها، وتعال فوراً،

- ما الذي تفعله هذه معك؟

- لا يعنيني أمرك الآن، ولا يعنيكِ أمري.

- كيف ذلك؟ نحن...

- كنا متحابين والآن لا أرى وجوباً لإكمال هذا الحب، لأصدقكِ الأمر يا مرام، أنا لا أعرف ما حصل معكِ هناك غير الذي رويته بإيجاز وأنا رجل غيورٌ بطبعي، لا أرضى أن أتزوّج امرأة سبقني إليها غيري، فأرجو منكِ عدم العودة مرّة أخرى وحاولي نسيان ما بيننا.

- ولكن ما بيننا أكبر من أن يُنسى، ما حصل هناك أخبرني؟

في غمرة سعادة أهلها بها نسوا إخبارها بما حصل معها، تركوها لمالك يخبرها بكلّ قديم ليحاول معها بكلّ جديد، وها هو رشاد يخبرها بما أخبرتهُ به، فينتهي من غرس السهم في فؤادها ويمشي وكأنّه يمشي على جراحها.

أمسكت بقلبها تحت فيء الشجرة تنتحب على الحبّ الذي كان، ومعها منار تحاول مواساتها، بكت وهماً عاشته هناك دون أن تعلم أيّ حياتين عاشتهما هذه المسكينة، حياة لا تريدها وحياة لا يريدها أصحابها، ذرفت العديد من العبرات وحملت قلبها وغادرت المكان.

عانقتها مرام، وبكتا معاً، ثم قالت بصوتٍ متألّم:

- ما ذنبي فيما حصل هناك، لمَ لمْ يخبرني أحدكم بذلك، كان على الأقل قد وفّر علي صدمة أتلقّاها من حبيب العمر، رشاد لم يكن حبيب لحظة بل حبيب عمر، كان البلسم الشافي لآلامي، هو الترياق لوجعي، وها قد استحال إلى وجعٍ أكبر، فإلى أين الهروب وكلّ الطرق تؤدّي إلى عينيه، وبكت كثيراً.

مرّت الأيام وهي تبكي خسران الحب ولا يرضيها أي أمر، تقوقعت على ذاتها أكثر وانزوت في عزلتها، لا ترغب برؤية أحد أبداً، حتّى ناداها والدها ذات يومٍ وأجلسها بجواره، قائلاً لها بصوته الحنون:

- أيا صغيرتي اسمعيني ولا تقاطعيني، أعرف أنّ ما حصل معكَ أثقل كاهلكِ وأتعب روحك، والذنب لم يكن ذنبك، ما كان لكِ يدٌ في كلّ ما أصبحتِ عليه،

ولكن في مجتمعنا هذا لن يتركِكِ الناس وحدك، سينسجون حكايات عنكِ تضرّك، أنت تعرفين ما يحصل وما يحكى عن فتاة اختفت أربعة أشهر وعادت امرأة، لن يصدّق أحد زواجك السريع هذا. فقد ارتأينا أنا وشقيقك أن نزوّجكِ من رجل أُغرِم بكِ وبتِّ شمسه وقمره، وهو مقيم هناك، وبذلك تبدئين بسهولة حياة جديدة دون أن يعترضكِ أحدهم، ولا أن يتفوّه عنكِ بكلمة سوء واحدة، أما إن بقيتِ هنا فستبقى الألسن تلوك سيرتك، ولن تنجو أختك من الأمر أيضاً، وستبقين العمر كله دون زواج، لن يدقّ بابنا أحد طالباً القرب.

ظلّت صامتة، تستمع إلى جديده، لما انتهى من كلامه همست:

- ألا يمكنني الاعتراض؟ كيف أقترن بشخص لا أعرفه؟

- لا يمكنكِ الاعتراض، قضي الأمر الذي تقلقين منه، واتفقتُ مع الشاب فما هي إلا مسألة يومين ثم يأتي إلينا، كي نتمّ العقد وتغادري معه.

استأذنته بأدب وغادرت الصالة إلى غرفتها تبكي، يا الله كم أصبح دمعها سخياً قياساً إلى ما كان، ثم قالت لمنار:

- لماذا أعاقب على ذنبٍ لم أرتكبه؟ كيف أتزوّج آخر وفي قلبي رجل غيره.

- ولكن مالك يحبك حبّاً جماً، وستنسين أفعال رشاد معكِ، فهو لم ينتظركِ قط، وكأنّه سعد بغيابك فبادر إلى الزواج بأخرى، وهو يعرف كم تمقتينها.

- هل تزوّجها؟

- ألم تلاحظي الخاتم الذي زيّن أصبعيهما؟

اقتربت منها، وطوّقتها بذراعيها، ثمّ قالت:

- تزوجي مالكاً.. ففي زواجكما سعادة لكليكما، وانشراح للجميع.

ظلّت تفكّر وتنعزل، تبكي وتشرد حتى جاءها ذات مساء، جلست قبالته وهما وحيدان، وهمست بخجل:

- ألا يمكنني الاعتراض؟

- ولمَ الاعتراض، وفي قلبي حبّ كبير لكِ؟

- ولكن في قلبي رجلٌ آخر.

- أعرف ذلك، وأنا قادر على إزالته من قلبك، سيغدو فؤادك ملكاً لي، لا تترددي يا مرام، فأنا والله لا أطيق البعد عنكِ.

وغادرت معه، دون زواج بخطبة صغيرة، بخاتم ذهبي ألبسها إياه، أرادت أن ترى المزرعة أولاً، وتتعرف المكان وبعد ذلك يتمّ الزواج. لم يرد أن يجبرها على زواجه بهذه السرعة، أراد لها التعرّف مجدداً إلى جنار وأم حسام. وافق والدها على ذلك شريطة ألا يتأخّرا هناك كي لا يؤخَر الزواج، يريد الاطمئنان عليها بأسرع وقت، وحين جلست جواره في السيّارة نظرت إليه قائلة:

- ألا يمكنني الاعتراض الآن ؟

نظر إليها، وأمسك بيدها، فلثمها.

- انتهى الأمر، ولن تقدري على ذلك.

غادرت معه وظلّت صامتة طوال الطريق، تبكي حين تتذكّر رشاداً، وتذرف العبرات حين تتذكّر أسرتها، حياتان عاشتهما كلتاهما قاسيتان عليها، حياة هربت منها وأخرى طُردت منها، وباتت منقسمة لا في هذه ولا في تلك. ثمّ تحدّثت، أرادت أن تستفزّه لتنتقم منه.

- لستُ مغرمة بك، أيعقل أن تتزوج من أنثى لا ترغب فيك؟

- بيننا ما بقي من عمرٍ لتغرمي بي.

- سيتأخر هذا اليوم كثيراً.

- أنا رجل صبور.

- في قلبي غيرك يدقّ له الفؤاد كلّ حين.

- الذي تركَكِ خلفه باكية، لا يستحقّ أن يبقى في قلبك، لقد استطاع بسهولة نزعك من قلبه.

- لا تتحدّث عنه بسوء.

- أنا أحكي الحقيقة الماثلة أمام عينيكِ، وترفضين رؤيتها.

وصلا مع شروق الشمس ودخل بها المزرعة، أراد أن تلتقي جنّار وتتعرف إليها من جديد، دخلت بيت جنّار معه، عانقتها جنار وأم حسام عناق الأحباب، ظلّت جامدة كتمثالٍ، حدّقت في الوجوه بغرابة.

- لقد عادت إليها ذاكرتها من جديد، لن تتعرّف إليكما، لكنّ باستطاعتكما تعريفها بنفسيكما من جديد.

غادرهما مالك ليرعى شؤونه، جلست قبالتها جنّار، وأعادت على مسامعها الحديث عن كارين مرّة أخرى، وندبت قليلاً، ثم أنهت كلامها بقولها:

- عادت كارين إلى هنا بعد شهر من ذهابك، عادت ولم تأتِ إلى دياري، سكنت في القسم الشرقي، تصوّري يا مرام لقد تخلّت عن ولديها من أجله، من أجل أن تصبح زوجة السيّد، كأنني لم أؤدبها جيداً، وحين ذهبتُ لرؤيتها صرخت بي أمام الجميع أنني لستُ أمها لأقلق عليها، نعم كنتُ زوجة والدها ومازلت، ولكنني من اعتنيتُ بها، ورفضت جميع الخاطبين من أجل عينيها والآن ترفضُ رؤيتي.

عانقتها مرام، وقالت:

- الحياة ليست عادلة يا خالتي.
- الحياة عادلة لغيرنا.

وأخيراً نطقت أم حسام ببضع كلمات، ثم عادت لمسبحتها، قالت مرام:

- حدّثيني يا خالتي عن حياتي هنا.

روت لها جنّار كلّ شيء بالتفاصيل التي كانت ترويها مرام لها، لم تخفِ عنها أيّ أمر، حتى مشاعر مالك وعشقه إياها لأنها شبيهة رنيم، نزوات هافال، موت ميديا، كلام الفلاحين، كلّ ذلك أصاب معدة مرام باضطراب، وظلّت الليل بطوله تلعب بشعرها وتفكّر في الأمر. الأوّل أرادها بسبب نزوة، والثاني لشببها بأنثى فهام بها، والثالث تخلّى عنها لأنها ضاعت منه دون سبب.

في الصباح، وبينما كانت الديكة تصيح لصباح جديد، ارتدت ثيابها، وانتظرت انتهاء جنّار من الصلاة وقالت:

- خذيني إلى بيت هافال يا خالتي.
- لمَ تودّين الذهاب إلى هناك؟
- لأتعرّف إلى من كان زوجي.
- لكنّ مالكاً لن يرضى بالأمر.
- لن يعرف بالأمر.

أخذتها إلى قصره، وظلت واقفة قرب النهر خائفة أن يراها، بينما اقتربت مرام من البوابة وطرقت الباب، انتظرت أن يفتح، وطال انتظارها، وارتبكت معدتها، حتى فُتح أخيراً وأطلّت منه روسيل، صاحت:

- ما جاء بكِ بعد فعلتكِ الخرقاء.

- أرغب برؤية السيّد.

- وهل ستغزلين خيوطك حوله كعادتك.

- من بالباب يا روسيل.

انتفضت على صوته، وابتعدت عن الباب، أخفضت رأسها، وقالت:

- رنيم يا سيّدي.

اقترب من الباب، ونظر إليها، حدّق بوجهها الجديد وبعينيها المليئتين بالتحدّي، كانت قويّة لا هشّة، كانت أنثى تعرف ما تريد لا كما عهدها.

- أهلاً رنيم .. تفضّلي.

- اسمي مرام، ولم آتِ إلى هنا كي أدخل وإنما أتيتُ، لأعرف من كنت زوجته.

- كانت غلطة، وأصلحتها.

- وأصلحتها بخطأ أكبر. أشكرك يا سيّدي على ما قدّمت لي ولكن لا سامحك الله على دمعة واحدة ذرفتها بسببك.

وغادرته دون أن تسمعه، وصلت إلى بيت جنار، مدّت يدها إلى جيبها، وناولت جنّار ورقة مطويّة وخاتماً ذهبياً.

- إلى أين يا صغيرتي؟

- كلّ الديار دياري، ولكن الدار التي ذرفتُ فيها عبرة واحدة لا أريد البقاء فيها.

وغادرت ببطء تمشي على ألمها، والألم يكبر كأنّها حافية القدمين تمشي على زجاج مكسور، وصلت إلى الباب وخرجت منه، تأملت المزرعة وتراءت لها كحلمٍ بعيد حلمت به ذات ليلة صيفيّة، تراءت لها أشجارها المائلة بفعلِ الرياح كأنّها كابوس جثم على صدرها ليالي كثيرة، كانت حلماً، وهماً، سراباً، وفي النهاية كانت واقعاً قيّدها ومازالت آثار القيود تنهش قلبها.

مشت في دروبٍ كثيرة فيما ذكريات تعانق ذكريات، والألم يرسم الحزن في عينيها، وابتسمت في النهاية برضاً لخلاصها من الجحيم، ابتسمت لحريّة نالتها، فالآن تشعر بالراحة لأنها ستعيشُ حياتها كما تريد لا كما يريد غيرها.

قرأ مالك رسالتها بيد ترتجف، كانت رسالة مقتضبة مليئة بالخيبة "لا أستطيع إكمال المسير، حاولتُ ولكني لم أقوَ على إكمال الطريق معك، لن أكونُ شبيهة لأخرى عشقتها يوماً، ولن أكون أملاً لكَ وكنتَ ألماً لي، أنا أستطيع الاعتراض."

جعد الرسالة بين يديه وصرخ:

- لماذا؟؟ لماذا تهرب مني كلّ من أغرمتُ بها؟

وضع الخاتم في جيب قميصه وقاد السيّارة باحثاً عنها، لكنّها كانت قد ابتعدت كثيراً عن المكان، ابتعد قلبها أميالاً لا تحصى عن قلبه، حاول العثور عليها فلم يعثر سوى على الألم المتوضّع على جانبي طريق تعزفه أشجار البيروفي.

تمت

٢٠٢٢/٧/٦

من رحم الألم يولد الإبداع